رواية
أحمد فريد
اللوح الأخير
كيان للنشر والتوزيع

اللَّوْح الأَخِيْر

رواية

أحمد فريد

مُقدمة

جمَّدت السماء المُظلمة هواء الدُنيا بصقيعها. وبدت نجومها المزدانة في حقل البنفسج شديدة القسوة. إذ اختفت السُحب المُبشّرة برحمة المطر المُحتملة. وانكشف وجه القمر القبيح المليء بالبثور عن ضوء أبيض بارد، زاد الدُنيا ألمًا فوق آلامها التي لا حصر لها.

أمام العذاب السماوي، وبجسد مُثخن بحُمى مؤلمة، مثلثُ. وعقلي يكاد يبلغ أطراف الدُنيا جنونًا، وروحي تُطبخ على النيران المُستعرة في أعماقي، لا تُنافسها النيران المُستعرة في أفق الأرض أمامي.

كان قلبي يصرخ دمًا داخل عروقي، وجسدي يصرخ عرقًا على جلدي. وأصابع يدي اليُسرى مُعشَّقة في أصابع (هنا) الناعمة الرقيقة. تتمّسك بها بحنانٍ شرس، بلغ حد القسوة. تكاد أظافري القذرة تخترق لحمها الرقيق إلى الكف. ولكنها لم تشتكِ، لم تصرخ، ولم تبكِ، كأنما هي قماشة سميكة، لا تملك إلا أن تمتصّني وتحتويني.

كانت عيناي القذرتان مُجمدتين على المشهد الشَبِق. إذ ضاجعت نيران الأرض المجنونة، برودة السماء، كأنما تُحاول أن تستمسك بذلك العِشق طويلاً، لتفنى النار في البرد، أو حتى ليفنى البرد في النار!

بنبرة مُتفهمة، واثقة، قالت (هنا):

-خلاص؟

شعرتُ بشفتيّ تهمسان قولا لم أستوعبه. ولكنه بدا لي كافيًا، فلم أُضف جديدًا. فقط ظللتُ مُجمد العينين، مبهور الأنفاس، أتطلع إلى النار التي تتسلّق أكواخ القرية، لتبني بُرجها في السماء. مثلما تتحرّك أصابعي في أصابع (هنا)، لإطفاء ناري في هدوئها، أو لبناء برجي الناري في روحها النقيّة.

وجدتني أُجيبها بلهجة حادة مُتحشرجة، أرعبتني:

-انتظري.

أمام بريق النيران، كان هنالك ظلٌ قادمٌ من بعيد. بدا في الظلام المُحيط كشيطان انشقّ عنه الحريق. كان قلبه قاتمًا ترقص حوله هالات النار، يعدو متلعثمًا في خطواته، نحونا. ارتجفت أصابع (هنا) في لحمي، ولكنني لم أهتز. لم تلبث أن انكشفت ملامحه بنيرانه عندما اقترب وسقط عليه القمر. في جلبابٍ مُحترق متهرئ، تفوح منه رائحة الشواء والمَني، يتدلّى وجهه الذي جلدته الشمس وأنهكته التجاعيد وتُجهز النيران عليه. فمه المُرتجف خلف أسنان مُحترقة مُتهدّمة، حاول الصراخ فلم يدرك حلقه إلا الهمس:

-ولدي.

ثُم سقط راكعًا أمامنا، بعدما فاضت روحه تاركةً جسده لأنياب النيران. سمعتُ نهنهة (هنا)، فالتفتُ إليها، مُتأملاً. كان وجهها –على ضوء القمر والرجُل المُشتعِل- بالغ العذوبة والبراءة، كسته الدموع بألقٍ زاده بهاءً. جذبتها من يدها إلى أحضاني برفق. واضعًا رأسها على كتفي. ثُم التفتُ بها، مُلقين القمر وكل النيران وكل الآلام خلف ظهرنا. على إيقاع نبضات قلبينا، خطت

أقدامنا الحافية على الأرض الوعرة الطينية الباردة. فتشكلت تحت أقدامنا الوحيدة المُنهكة، لتكاد تُغرقها وتتكلّس حولها.

يا (هنا)، يا حبيبتي ويا صغيرتي ويا دُنياي ..

همست شفتاي المُتقشّرتان لرموشها المُبتلة:

-خلاص.

شَيْخٌ

١

ظلامٌ، ثُم ومضةٌ من النورِ، يتلوها الاستيقاظ. أنا ثُم أنا ثُم أنا. كُل أنا تختلف عن الأخرى. ربما لأن كُل واحدة لا تُدرك الأخرى فلا تفهمها ولا تستوعبها. الجهلُ نعمةٌ ونقمةٌ. والناسُ أمام ما يجهلون حينًا يحبّون وحينًا يُعادون.

لِمَ خُلقنا على حُب النور وخوف الظلام؟ أليسا سواسية؟ أوليس كل شيء في النور عدمًا وكل شيء في الظلام عدمًا؟ اللّٰه سبحانه نورٌ على نور. ولكن ماذا يعني ذلك بالنسبة لنا؟ ما النور حقًا وما الظلام؟

لِم هذا الهراء الآن؟!

عقلي الذي سوّرته اللحية مثلما سوّرت وجهي. ماذا تُريد؟ أهذا وقت ثورتك؟ الآن وبعد كل ما جرى وما لم يجرِ؟ أين أنت؟ أين كُنت؟ بل أين أنا الآن؟!

تبدأ (أين) في إيقاظ بُعدي المكاني. في البداية كان الزمن، بُعدًا واحدًا، سيدًا مُتوّجًا عليّ في التيه الذي هويت فيه. ثُم الآن يتذكر العالم أن هنالك ثلاثة أبعادٍ ناقصة. وعندما يُدِرك النقص يهرع بملئه فزعًا، كي لا يختل.

أخيرًا انتهى الهذيان، وبدأ الواقع.

أنا أقفُ في منزلي. ليس عِش الزوجية ونعشها. بل منشأي، مهد طفولتي وأحلامي. أُدرك ذلك رغم الظلام والصمت اللذين لا يشوبهما سوى ظلال نهارٍ مُستترٍ، وشقشقة عصافير مكتومة. أتشمّم كل ذرة في كياني العبق السحري، فأستيقظ بانتشاء. يشُحن الخدر بالأطنان إلى أطرافي، وأنا أتلمّس ورد الأريكة البارز عن كسوتها. فتبُخ رائحتها بأنفي المُتلهف. تُمدني ذاكرتي بالبوصلة اللازمة، لأُدرك أنني في الصالة الرحيبة. أتجه مُتسلّحًا بالبوصلة فأذيب شرائط النور الضعيفة الرقيقة إلى الشباك الكبير المُطل على شارع (الفلكي). أقاوم، أشهد الله أني أحاول، كي لا أبكي، بينما تعانق أناملي «الكالون» النُحاسي، وتدير مقبضه، فيُفتح بصعوبة حفظتها وصرير أدرك كل نبرة من نبراته. تهتز أوتاري وتتبعثر أفلاكي بينما يقتحم نور الصباح المكان جائعًا، تمامًا مثلما يقتحم شارع (الفلكي) عينيّ، بأشجاره الوارفة الحاضنة للشارع بالخُضرة والظل. أعترف أنني أجهل أسماء الأشجار وما زلت أتعجّب ممن يحفظها بعناية، ويستطيع التفرقة بينها. ولكنني أعلم أنني أحفظ كل شق، كل جذع، كل ظل ترسُمه وريقات الشجر على الأسفلت المرصوف بعناية قلّما تجدها في شوارع البلاد، بل إنني أكاد أُميز إيقاع عصافيرها عن كل عصافير أشجار العالم.

أترُك كياني يتشرّب عالمي القديم الحميم، ويُعيد تأمُله، بعدما كدتُ أُضيع تفاصيله وسط زخم الدنيا وسُرعتها. وعيناي تُجدّدان عِشقًا كاد يجفّ لكل موجودات الشارع، الذي كان خاليًا في تلك الساعة من الصباح الباكر. بينما تسبح أشجاره وسياراته في ضباب خفيف كالحُلم، وتُشرف الشمس العسليّة على العناية بإضاءته بِرقّة نادرة. فيراودني الخِدر عن نفسي، وأجدني أستسلم لتيار عاصف هادئ رقيق من الذكريات، كأنه نوم اليقظ.

٢

شهد شاهدٌ من أهلها. شهد الزمان والشارع عليّ. أنضج لحمي بينما يرقبني (الفلكي) في جيئتي وذهابي، حيوات أسرتي وحياتي، مماتها ومماتي.

راقبني الشجر، ونقلت زقزقة العصافير قصتي. التلميذ (أحمد) الابن الأكبر للجامعي والجرَّاح الشهير (صفي الدين شومان)، وأخوه الأصغر (عمرو) الذي يصغره بأربع سنوات. النقيضان اللذان لا يستويان أبدا. العالَمان المتوازيان. كل منهما يدور في فلكه الخاص. أسهمت الحياة الرغدة التي تكفّل بها والدهما وموت أُمهما الباكر في زيادة الحزّ بينهما. حتى ملامحهما تبدوان مختلفتين تمامًا. استوحى الابن الأكبر شكل أبيه وقور الملامح، واستوحى الابن الأصغر ملامح أمه القمحية الجذّابة. غار الأول من الثاني عندما استحوذ على حنان الأسرة، بصفته المولود الجديد، أو اللعبة الجديدة التي يلهو بها الزوجان. ثُم لم يلبث أن غار الثاني من الأول عندما انطفأ نجم الأم سريعًا، لتمتّعه بالحنان فترة أطول منه.

أكان من المفترض بحكم الظروف أن نترابط أكثر يا (عمرو)؟ بعد الفاجعة، كان أبونا لنا هو كل شيء. ولكنه كان أبًا، مهما فعل لم يكن ليدرك معنى أن تكون أمًا. الأُم لا تُرضع لبنًا فقط. في فراغه كان يعاملنا كأصدقائه قدر الإمكان. وقد نجح في ذلك إلى حد معقول، لكنه فشل في خلق دفء الأخوين بيننا. لم نكن أبدًا متوافقين، أشبه بحدّي مقص عاجز. لم يقدر على قطع الحاجز بيننا.

خُضتَ أنت في عالمك. وغرقت أنا في عالمي حتى الذقن. كلانا تاه في طريقه الذي شقّه بيديه الطفلتين العاريتين.

يدور اليوم دورته مرة وثانية وثالثة وألفا. ملايين الدورات لعجلة الزمن دافعة أمامها أتوبيس مدرسة (علي بن أبي طالب)، لتتكرّر أيام الدراسة الطويلة المُملّة، والتي لم أكن ألبث أن أتركها هَرعًا إلى مرحي الخاص. شلّتي التي كوّنتها منذ الابتدائية للفَتْوَنة على صغار التلاميذ وضعافهم. بل وكثير من التلاميذ الأكبر سنًا. ثُم تضخّمت سريعًا وتطوّرت في مرحلة الإعدادية لتصير أشبه بالعصابة. ما زالت نكهة أول سيجارة قابعة على لساني وأنفي وكل حواسي، مثل أول أُحبكِ تهامست بها و(سارة) في الصف الثاني الإعدادي. وكقُبلة (سُميّة) الأولى في الثانوية، أسفل درج منزلها بعد المدرسة، في أنقى وأجمل عصرية أشرقت في حياتي.

(إسماعيل شكري) و(حسن عتمان) و(إبراهيم الشناوي). أين أنتم الآن؟ أين (سُمعة) بتصفيفة شعره المموّج على الجنب، حتى يكاد يُشبه أي طالب مؤدّب على نيّاته في المدرسة. وقد كان كذلك بالفعل، إلى أن التقيت به. لم يُفجر أحد شيطانه الخاص في أعماقه مثلما فعلت. كأنما كان ينتظرني منذ وثب في نطفته برحم أمه. كان مُجرد ضحية أخرى من ضحاياي أنا وإبراهيم في الابتدائية. لكنه بريق عينيه. لمعةٌ ما في عينيه المنكسرتين أمامنا أضاءت مخي كله. لمعة تقول أنا مُستعد .. أنا معكم فيما تفعلونه وما سوف تفعلونه .. أيًا كانت العواقب. في النهاية وبتعبيري الطفل وقتئذ: عجبني (سُمعة). ثُم أتانا (أبو علي) في ثانية إعدادي. كان جاهزًا. لم يكن يحتاج لتوعيّة منا. كان قد انسلخ عن شلته القديمة لأسباب لم أعد أذكرها. ولكنها بدت أسباب بالغة

الخطورة والسرّية وقتئذ. الحقيقة وبعدما مرّ بنا ما مرّ، تيقنت أن عالم الأطفال لم يكن يختلف كثيرًا عن عالم الكِبار. فالصداقات والعلاقات، الحُب والكره، يُمارسون كلُعبة طويلة الأمد، حتى يأتي الوقت الذي يتوقف الجميع عن اللعب. لو لم يكن فعليًا، فهو نفسيًا على الأقل.

يقولون إن أفضل مكان للاختباء من الذئب هو عقر داره، ويقولون إن خدعة الشيطان الكُبرى هي إقناعه للبشر أنه غير موجود. لذا فإن أفضل مكان للاختباء من الإنسان هي داخله. وقد أجاد الشيطان اللُعبة حقًا، مثلما أجادها (إبراهيم الشناوي). الرفيق الأعظم الذي هبط عليّ من السماء أو من الجحيم في بداية رابعة ابتدائي. ليُغذّي شيطاني وأغذّي شيطانه. علاقة تكافلية تامة المراسم. أهو السبب الحقيقي وراء ما صرتُ إليه في الأعوام الدراسية اللاحقة؟ أهو من كان ينزغني لضرب (صفوت) والبلطجة على (عبد الفتاح) ومغازلة (سلوى) وأخريات؟ أهو من كان يدفعني دفعًا لارتياد الغُرز المُعبّقة بالحشيش؟ أكان هو أنا أخرى إضافية، وضرورية لإبراز كل ما لدي من نوازع سوء؟!

أعترف أن طينتي العجيبة قُدت من سوءٍ مُميز، لم يلبث أن ظهر عليّ وقتما وعيتُ الدنيا وبدأتُ أخُطُ عبارة «أنا أحمد شومان» على السبورة. مهما حاولت أمي المرحومة إعادة تشكيل طيني في سنواتنا القليلة. كأنما كانت مياهها قليلة فجفت وتبخّرت سريعًا، تاركةً الرمل المعجون غير سوي، يتفتّت ويُفلت من بين أصابعها.

لِم كانت الصدمة إذن، عندما وقعت الواقعة؟ أبعد كُل شقاوة الطفولة تلك، كان عليّ توقع العكس؟ هل تضطر الحياة أحيانًا للقبض على أكُفْنا وصفعنا بها

علنا نستفيق؟ عندما يكون مللها منا ومن خطايانا قد بلغ أقصاه. فلا يعود لديها إلا صعقنا بمدى القُبح الذي أدركناه؟!

وأين كُنتَ يا أخي من كل ذلك؟!

أين كُنتَ يا (عمرو)؟!

٣

ينقطع دفق الذكريات. تخفُت موسيقاه ولا يبقى إلا الواقعُ الصامتُ الماثلُ أمامي. يعود (الفلكي) ليطُل عليّ من النافذة العتيقة، رابضًا أمام بصري كأزلٍ لا يتزحزح. بشمسه الناعسة بين الظلال، وزقزقة عصافيره وهمس أشجاره. وأعود لأمتثل أمام نفسي، بحلقي الجاف الصامت وأنفاسي المُتردّدة القلقة وقلبي الذي استسلم طويلاً لخدر الطمأنينة. في طفولتي، كُنتُ شاهدًا مشدودًا بالهمم المشحوذة والحماسة المشحونة في أجواء حَربِ العبور، وطرب قلبي غير الواعي للحقائق بزغاريد وأناشيد وأهازيج النصر. وفي مراهقتي التي أنضجتها حَرب طفولتي، كُنتُ أكره فترة السلام والطمأنينة، فهي الفترة الرمادية، التي ينسى الأعداء فيها عداوتهم، مُستسلمين لمواءماتهم البرجماتية القذرة. الحرب رغم كل أهوالها الشعواء. تُحب وتكره. العدو فيها عدو والصديق صديق. لا تسمح دوي قنابلها ونفير بوارجها بالشك أو الريبة. لا وقت للتساؤل ولا وقت للعزاء. هناك فقط ألوان واضحة الحدود، حُب أو كُره، قسوة أو رحمة، حياة أو موت. وكل ما يمر بالروح من تمزّق وألم وجنون لا يأتي إلا مع السلام الزائف، اللاحق بالحرب كمجاملة سخيفة.

أعود لأنزع نفسي من بين فكي النافذة وأنياب الفلكي التي لا ترحم ذكرياتي. لأخطو بجسدي عبر الصالة. أدور فيها مُستمعًا باستراحتي الغريبة المُريبة. التي طالت لسببٍ أجهله. أحاول أن أذكر كيف وصلت إلى هُنا، وما غرضي من فتح الشقة والعبث في جروحٍ لا ترحم، فلا أدري.

أأنا على مشارف موتٍ قادم؟ أهي السَكَرات؟

أجد شفتي ترتجفان بشهادة أن لا إله إلا الله. أدعو الله سرًا وجهرًا بحُسن الختام. فيرتطم بصري بال»كومود» المُذهب العجوز، المنحوت على شكل تمثال لطفل روماني قديم، عارٍ، يرفع عبئا طال حمله، القرص الرخامي الحامل لصورة أمي وأبي. لم تكُن صورة الزفاف، كانت صورة الخطبة. فأكادُ أبصرهما في الخيال، يجلسان مُتجاورين، أنامله تدُس الخاتم الذهبي في خنصرها الأيمن. لتدُس عالمه الوقور، المُرتب الهادئ في عالمها المشُاغب اللطيف السحري. فتتشابك المصائر. منذ النفخة الإلهية لروحها في جسدها، كان هو لها مُقدرًا. لم تكُن قصة حب حارة أو زواج صالونات. بل كانت حالة دافئة رقيقة هادئة، جمعتهما سويًا دون صخب العِشق وبهرجته. يتهدّج صوت أبي وتنكسر عينه اليُمنى في محاولة للتماسك، بينما يقصّ علينا قصتهما، بعد رحيلها ونضوجنا. كانت تحمل كُتبها وكراسات مُحاضراتها بهمة وجدّية لهما ما لهما من جاذبية. وكان هو يمر من نفس الشارع ذاهبًا للقاء صديق قديم لم يلقه منذ سنوات. تلاقت العيون وكان ترتيب القدر مُحكمًا.

أرفع رأسي، لأُحدق بكل روحي في صورة الزِفاف. لاهثًا خلف ملامحها، في محاولة لتثبيتها مُجددًا في العقل والقلب والروح. أحيانًا يُخيل لي أنني

نسيت ملامحها. مهما أحرقتُ عقلي بآلام التذكر. ومهما ألصقتُ كياني بوجهها وشعرها وجسدها. ومهما أذبتُ لون عيني لتذكُر لون عينيها.

أحيانًا يا أمي، تأتيني في المنام. تبتلعني ابتسامتك الشابة الجميلة، وأشعر بطبطباتك الحانية على ظهري، مثلما كُنت تفعلين دومًا حين ألقى استحسانك. أحيانًا تأتين غاضبة لسببٍ لا أعلمه. طالما كانت ذكراكِ أشبه بحُب أول غير محسوم، انتهى بفراق لا رجعة فيه. أذكُرِك بجوع متوحّش أحيانًا، وغضب أحيانًا، ولا أذكركِ أحيانًا، فينتابني الغضب من نسيانك أو من ادّعائي نسيانك، أو من تعقيد ما أمرّ به عِند ذكراكِ. فأنتِ لست إلا أمي وذكركِ لا يستوجب تلك المشاعر المركّبة التي لا فائدة منها. والتي في محاولة في فهمها يئستُ، وتعبتُ .. تعبتُ يا أمي.

الأنكى أن (عمرو) طالما كان يحسدني عليكِ، وعلى تمتّعي بحنانك فترةً أطول منه. وهو شعور لا يحتاج للتصريح لي به، وإن كان قد فعل. فرغم عالمينا المُتباعدين فإنني أُجيد قراءة عينيه، التي ورثها عنكِ. وخلجاته التي ورثها عنكِ. لكن لو يعلم (عمرو) غيبي لاختار واقعه. لاختار أن يظل في موضعه، ليس بعيدًا عنكِ وليس قريبًا منكِ. فحتى الأمور الوسط هُنا هي الأسلم والأفضل. القُرب لعنة، مثله مثل البُعد.

وأي بُعد أقسى من الموت. أقسى من أن تتيقّن أنك لن تستطيع رؤية الحبيب. لن يُسمح لك بلقائه مصادفةً وتذوّق لحظة ذكرى جميلة تتلوها لوعة البُعد، وأن ذلك هو حال الدُنيا. لن تسمع أخباره ومن صادق ومن ترك، ما أنجز، ما فعل وما لم يفعل.

موتُكِ يا أمي أمات كُل ذكرياتي معكِ. لا أعلم كيف ولِمَ. وبقيت لحظة عِلمنا بموتك خالدةً في روحي أبد الدهر.

قال لنا جدو (حمدي) –أبوكِ- ونينة (جميلة) –أُمكِ- وخالو (خالد) إنكِ تعبانة شوية، وإنكِ ستُشفين وستلعبين معنا مُجددًا. وقال لنا أبي عندما نضجنا إنه كان ورمًا في المُخ. كان أبي صامتًا وقت مرضك، وأكاد لا أذكر أي كلام له معنا طوال تلك الفترة. كانت هزيمته كطبيب جراح تُضاعف من قسوة هزيمته كزوج وحبيب. هزمه الزمن مرتين ثُم أجهز عليه بالثالثة، عندما أيقن أنه يُكرّر سيرة أبيه، الذي تُرك يواجه موت زوجته مع ابنه الوحيد، طالب الطب المهووس بالنجاح.

ولكنهم –حمدًا لله- سمحوا لنا بتقبيل ماما الغافية، والتي تحلم بالملائكة الآن. تتعرف إليهم قبل أن تذهب معهم عبر السماوات السبع، إلى ربّنا.

موتُكِ يا أمي، أمات أهم معاني الوجود في عينيّ بعدكِ. لا سبيل لردّ ذلك، كما لا سبيل لرد روحكِ إلى العالم.

٤

عندما انقبضت عضلات عيني، لتُحرّكا كرتيّ البصر إلى صورة أبي في زفافه، تهدّم الوهم الذي ربضتُ فيه لفترة أظن -من نور الظُهريَّة عبر الشباك- أنها طالت. أرفع يسراي متسائلا عن الساعة، فتُصيبني المسافة الثابتة بين العقارب المُتجمدة بالجنون!

ضياء الخارج يؤكد أن الوقت يمر، بينما ساعتي لا تزال تُصر على رأيها الشخصيّ. ساعتي تقول تمام الثامنة، وتُجمع على ذلك بكل تروسها وعقارب دقائقها وثوانيها. لِم تعطب الآن؟

أنعش ذاكرتي مُحاولا تذكر بِماذا كُنتُ أفكر في وقفتي. فأتذكر الصورة الكبرى، أبي. تُرى أين هو؟ أهو نائم الآن بالداخل؟

يغوص حذائي في السجادة الحمراء المزخرفة بالورود الذهبية، والتي تتألق أوبارها والأتربة العالقة بها في خيوط الشمس بالذهب. فتزيد من شعوري بالراحة وتذكرني ببراءتي الأولى. كُنتُ أُحب النوم أرضًا بالذات على هذه السجادة، ومداعبة خيوطها التي كانت أكثر شبابًا وقتئذ. لأمد بصري إلى السقف وأرفع ساقيّ فتتمددان في وضعي المقلوب، أدّعي أنني أسير على السقف وأُصدق ذلك. تُعانق قدماي النجفة المُذهبة. فأشعر بلذة فائقة. كأنما قد تحدّيت الجاذبية والعالم والكون، وأخيرًا انتصرت.

تسبح قدماي عبر السجادة، لأمرّ سريعًا من أمام قطعة المرآة المُذهبة الإطار، الرابضة أمام السُفرة الكبيرة الحميمة. تجتاح كياني موجاتٌ ألفتها وعِشتها وتذوّقتها حتى الثمالة. موجات هروبي الدائم مني إلى داخلي، والتي هدّدتها المرآة العتيقة الكاشفة. أنعطف إلى السرداب الضيق الطويل. الذي يتعلق به المطبخ والحمام وغرف النوم الثلاث. تعانق أنفي أشباح روائح المحشي والمشويّات ورائحة الصابون والبلسم الخاص بأمي وكريم حلاقة أبي الذي ورثنا نوعه عنه لفترة من الزمن. في المنعطف الأيسر تكمن غرفتي، التي تجنّبتها قدماي مثلما تجنّبت المرآة قبلا. ثم حجرة (عمرو) تتلو حجرتي على اليسار أيضًا. وحجرة أبي وأمي الرئيسية تربض في الأمام. بابها الأبيض

المُؤطر بمنمنمات وزخارف وردية بهية، موارب، يعبر فُرجته الضوء الفتيّ إلى عيني المُتسائلتين.

يُردد السرداب المُبلط بالخشب صوت كعبيّ الجامدين، إلى أن أبلغ الفسحة التي تؤدي إلى الغرفة الرئيسية الموارِبة. تدفع أناملي الباب بينما أطل برأسي. كان أبي ممدّدًا على السرير العريض الشامخ وسط الضوء. ورغم البُعد النسبيّ وخليط الذكريات المعجون في عبق المكان، فإنني أُميّز صدره يعلو ويهبط بقوة، يغطّ في نومٍ عميق وربما يحلُم أيضًا. أبتسم بعطف لوجهه النائم الحالم. والذي يبدو شديد الراحة رغم زحف الإرهاق والعجز على القسمات الوقور والشعر الكثيف المُشتعل شيبًا.

نومًا هنيئًا أيها العجوز. كُنتَ عجوزًا في شبابك ونضجك وحتى في شيخوختك!

كرّر الموت معك سيرته الأولى. لهث خلفك، ليفقدك نصفك الآخر دومًا. ابن بلا أُم، ثُم زوج بلا زوجة. وأنت صامدٌ كهضبة عملاقة وضعت لترسو أرض الأسرة ولا تميد. لم تستطع أن تكون لنا الأم، لأن الأم لا تعوّض. ولكنك اعتصرت جراحك وواصلت الرحلة، وضعت النجاح نصب عينيك، وعدوتَ خلفه جارًا إيانا معك. أنت صديقي الذي تحمّل حماقاتي التي لا تنتهي، وتذبذبي وأخي بين شتى صنوف الحياة. آمنتَ بحرية الابن في تقرير مصيره، ولم تفرض علينا شيئا يومًا، حتى نصائحك كان أغلبها دافئًا صادقًا، ولم يكن أمامنا إلا أن نرفض الأخذ بها، لأن هذه هي طبيعة الأبناء الثائرين على السلطة الأبوية، مهما بدت حكيمة، ومهما بدت لينة.

أدلف عبر الحجرة، تاركًا دموعي تنساب، لتدرّ ذكرى فاجعة أمي، التي حلّت في نفس موضعك، ونفس جانب السرير الذي ترتاح عليه الآن.

تبحث عنها، رغم العُمر، رغم الدُنيا، رغم الزمن. رموشك التي ترتعش الآن وشبح البسمة في زاوية فمك اليُمني يؤكدان لي أنك معها الآن.

ولكن اسمح لي أن أمثُل أمامك الآن، مؤنبًا إياك بنفس لهجة الصداقة التي تُحدثني بها. أيها الصديق الأب، لقد أخفقت في إحدى أهم مهامك. انشغالك في حضور أمي وحيرتك بعد رحيلها قد أظلما رؤيتك عن تربيتنا التربية الإسلامية الحقة. لم تستطع خلق المُثُل داخلنا. وكانت نصائحك كلها عامة، كما تكون نصائح الأصدقاء. وربما لهذا كله كان تأرجحي أنا و(عمرو) بين صنوف تطرّف الفكر والنفس. هوى كل منا في كهفه الخاص، يستكشفه بنفسه الضعيفة، وبمصباحه الخافت المُتذبذب، وجسده المُرتعش الجائع لحنان الأم.

لا تغضب مني ولا تأس. ولكني لم أستطع منع نفسي أن أُنبهك لقَدَرٍ مضى، وكان أقوى منك ومنا جميعًا.

القدر الذي فرش الطريق أمامي فاخترت سوءه، لتقع واقعتي.

٥

أكُنت أعلم أن الأمر قادم لا محالة؟ أرأيتُ الحقيقة وتعاميت عنها؟ أم أن جهلي وجهالتي كانا مُدقعين لا علاج لهما؟

المؤكد أن فترة الثانوية المُرتبكة قد أهّلتني. وكما رسمتْ طفولتي الشيطانية ملامحي الطفلة، فقد لوّنت المُراهقة عبثي وهوان نفسي عليّ.

عِشتُ قصص حُبٍ كثيرة، خضتُ عوالمها، الواحد تلو الآخر بجسارة فارس وروح مُقامر وسذاجة سكِّير. ولكن لا يُمكن مضاهاة أي قصة من تلك القصص بحُبي السحيق لـ(سُمية). دفعتني عيناها الخضراوان المُتوجتان للأنف المُستقيم والمُذيّل بالفم الدقيق إلى الهاوية. وكُنتُ سعيد الحظ، أو ربما تعيسه، في نيل شعور متبادل منها. في كُل قصصي السابقة، كانت الأحاسيس مُتبادلة كأنما كانت روحي تُجيد تلمُس روح الأنثى ومداعبتها في أعمق وأحصن نقطة في قلبها. أطلق الجميع عليّ (جان) كثيرًا، على الرغم من ملامحي الوقور أو ربما بسبب ذلك.

سمِه حُب المراهقة، سمِه حُبًا جسديًا أعمى. ولكن الأكيد أنه كان عِشقًا وحشيًا. نارًا موقدة اضطلعت على فؤادي وأفحمته في لياليه المُسهِدة، التي كانت تطول أملا في صباحٍ دراسيّ باكرٍ ألقاها فيه، وأملا في خروجة صيفية نختلسها من خلف أهالينا. أحببتُ بحّة صوتها في (أحمد). وعشقتُ كُل خصلة من خصلات شعرها. بقلوبنا نرسُم مستقبلا ورديًا رومانسيًا، هازئين بكل ما يمرّ بنا من سخافات العالم وتوافهه. سحبتني خطواتها من شلتي العزيزة. من (سمعة) الذي تاب عنا، وأغلق على نفسه الأبواب، استعدادًا لمعركة الثانوية. و(حسن) الذي سلك مسلك صديقه. وتُركت أنا و(الشناوي) نواجه شياطيننا وجهًا لوجه. والأدهى أنّه طُلب منا تحقيق مجموع جيد. أما أنت يا (عمرو)، فكُنتَ تُراقبني مُتأخرًا عني بأربع سنوات. تحرق عيناك الصامتتان وطباعك الهادئة الساكنة مؤخرة رأسي. تتطلع فيّ بحثًا عن قدوة ثانية قريبة من

أبيك، فلا تجد سوى أخ أكبر غائب دائمًا، مشغول دائمًا، مجنون دائمًا. وعندما يظهر أمام والدك، فدائمًا ما تجد نصائح الكبير المُبطّنة بانفعال وخوف. وربما لكل ذلك، بدا التفاهم بيننا مستحيلا يا أخي.

ما زالت تداعبني تيارات الربيع الرقيقة، عندما أذكر خطانا على الكورنيش الرحب، تنظر لآلئ النيل إلى أصابعها المُتشابكة في أصابعي. فتتألق في سلام أو ربما حسد. من أجل عينيها، هزمتُ الثانوية العامة والتحقتُ بكلية الحقوق، وكأي امرأة عظيمة تريد رجُلها عظيمًا، تبعتني. قُبلة الثانوية الأولى المُختلسة كانت بداية لحبل سُرِّيٍ مرسومٍ بمئاتِ القُبلاتِ، ذواتِ نكهة اللِّبان.

أذكر الليلة الشتوية كأنها الآن، عندما كمنت شفتاها خلف كل ورقة كتاب وخلف كل قانون وخلف كل تاريخ لذلك القانون. تتمدّد على السرير أمامي كل الكُتب والمراجع في عبث لا حدّ له. عبث قانوني يبحث عن عقل طالب في السنة الثالثة، حاضر لترتيبه. وليس بال عاشق يحرق الشوقُ أجنابه. زفرتُ بمللٍ، وقُمتُ إلى شباك غرفتي المُطل على الليل. فتحته مُتحدّيًا البرد. فلم أجد ما توقّعت من قضمات الصقيع. أطل عليّ القمر الحالم والسماء الصافية والجو ذو البرودة اللذيذة، فبدا كُل شيء ممكنًا. نظرتُ إلى ساعة حائطي فوجدتها تُقارب الثانية عشرة. موعد لقائنا الهاتفي المُختلس. مرّت عليّ الدقائق مطرقة ثقيلة، إلى أن دقّت الساعة الحادية عشرة. أسرعت تجاه التليفون بشوق، وقبل أن أمس سماعته كان قد بدأ في أعذب رنين سمعته في حياتي. كانت هي التي هاتفتني سريعًا، كأنما سمع قلبها صراخي. «وحشتني» قالت بصوت حار مُتهدج، فانسكبت الكلمات مني كخرطوم الماء.

لم أنتظر كثيرًا لأقول لها: «قابليني الوقتي»، فضحكت بصوت مكتوم مزّقني وقالت بجذل: «بطّل جِنان!»

قلتُ بقلبي الذي يدقّ صارخًا:

- «هيحصل إيه يعني؟ أهلك نايمين في العسل، وماحدش هيحس بحاجة، يلا..»

ثُم فتحت قطراتي على قلبها علّه يتفتت حنينًا: «سمية .. سمية .. سمية .. سمية».

نجحت توسلاتي في النيل منها، وفي الليلة الحالمة تلاقينا على دقات ساعة منتصف الليل. إذ كان بيتها في نهاية شارعي. في البداية كُنا نخطو على أطراف أصابعنا كما لو كان كل منا ما زال في منزله. يسترق الخطى الهاربة بعيدًا عن آذان الأسرة النائمة. وعندما خرجنا من حي «العروبة» الخامد إلى الشوارع الساهرة، تخلّصنا من كُل الحذر. بدت الأحلام كلها في المتناول، تحدّثنا عن اقتراب تخرّجنا وخطوبتنا المُرتقبة والتي طال انتظارها. لامسنا النجوم وعددنا الأشخاص الوحيدين في الشوارع، الذين يحثّون الخطى لمنازلهم، إلى زوجاتهم وسكناهم. راقت لنا اللعبة فتعامينا عن الحقائق وخُضنا الأوهام. قررنا تقليد الأزواج اللاهثين في الشوارع الباردة إلى زوجاتهم المنتظرات في المنازل. في كل الدقائق والساعات التي تلت تلك اللحظة التي انتقاها شيطاننا، لم يعد البُعد الزماني ولا المكاني مُهمًا، لم أعد أنا أنا ولا هي هي. تحركنا كعرائس مسلوبة العقل إلى الفخ القدري المحتوم. عِشنا دهورًا من الرعب في دخول فيلا (السنهوري) المعروفة المهجورة.

وغذّى الرُعب إثارتنا المُرتقبة، ليرتفع أنيني وغنجها وشتائمنا السافلة لتُشْعل أشباح المكان بالشهوة. لم يكن الأمر مثل كل لحظاتي المُسترقة في حمامي البتة. تلاحم جسدانا عشرات المرات حتى كدنا نُعتصر في جسد واحد. لم أكن أعلم وأنا أُغمد سيفي بكهفها المرة تلو الأخرى، أنني في الواقع أقتُل نفسي وأقتُلها مئات المرات. مع كل نفس مبهور منا، كانت أرواحنا تُزهق من أفواهنا المُحتقنة المتلاصقة، لتضيع في المكان المهجور الكئيب. وعندما انتهينا مع أذان الفجر البعيد، لم يبق منا سوى أجساد عارية خاوية، تحرّكت تحت سياط الآذان المتوعّدة الرحيمة، في زُرقة الفجر الضبابيّ، نحو منازلها التي تاهت منها. لتتسلل إليها بخطوات مرتعشة مُرتبكة، علَّها تستر عورةً لم تُفلح في تغطيتها ثيابٌ. وما كان للثياب والمنازل مهما بدت دافئة مُحكمة أن تستر عورة نفوسٍ شَبِقة.

وكانت تلك هي نهايتنا. وعلى مدى الأيام التالية، كُنتُ هاربًا داخل نفسي، مُتقوقعًا في منزلي وتحت جلدي. أكاد أدفع برأسي نحو الحائط، كي أُفقده الذكرى الفاحشة، وكي أُخدر شعور النجاسة الذي لا تصفه كلمات. استحممتُ مرارًا وتكرارًا ومرارًا، وحككتُ جلدي بالليف بخشونة شبقة قاسية، لعلي أتطهّر وأنعتق من المستنقع الذي غرقتُ فيه. وكان ذلك دون جدوى. أغرقتُ عقلي بمذاكرة المسائل القانونية والشرعية وكل القضايا المُهمة بدهاليزها. أغرقتُ جسدي القذر بألعاب حواة المحامين للإفلات بموكليهم من محكمة البشر. آملا أن يصدر العفو الشامل عني أمام المحكمة الإلهية. لم أُحادث (سمية) ولم تُحاول محادثتي بعد ذلك أبدًا. لم تشتق إليّ ولم تبتزّني ولَم تُغْوِنِي. وعندما كُنا نلمح بعضنا بالكلية مصادفة، كُنا نتعامى ونهرب من نفسينا المُرتعدتين. بعد اجتيازي السنة الثالثة بأعجوبة، التقطتُ أنفاسي

المُتقطعة. وعلى الرغم من كل ما مرَّ بي، لم أستطع أبدًا أن أتوقف مُراجعًا نفسي برويَّة. بدلا من ذلك، قررتُ خوض تجربةً جديدةً، دفعتني إياها نفسي الآثمة التي تاقت أخيرًا إلى الخلاص.

راقبتني –يا أبي- و(عمرو) وأنا أخوض رحلة عكسية من أقصى العربدة. ولأول مرة أُدرك في تلك الصيفية أن هُناك إلهًا يُعبد ويُخشى. لا يوجد أعذب من صوت الأذان في قلب روحٍ حائرة. كان أذانك يا رب هو ملجئي وملاذي. هربتُ من (سمية) ومن نفسي ومن أبي ومن (عمرو) إليك. وعلى مدى الإجازة الصيفية والسنة الأخيرة من الكُلية، كُنتُ مُعتزلا العالم. أكمن داخل صومعتي، أقرأ وأتفقّه في الدين. عزمت على حفظ القرآن كاملا في الإجازة الصيفية ففعلت. وامتلأت حجرتي بجميع مؤلّفات عُلماء الدين، ابن تيمية والغزالي وعبد العزيز بن باز والألباني وسيد قطب، وغيرهم. داخ عقلي وأُسرت روحي بين قصص الأنبياء والصحابة الراشدين. تسوَّرتُ بعُلوم الدين عن العالم، وتمترستُ خلفها، مثلما سوَّرتُ وجهي باللحية المتروكة. وكُلما غُصتُ وأبحرتُ في علوم الدين وسير السلف الصالح، أشعر بنفسي تزدادُ غرقًا وجهلا. ويبدو لي العالم سحيق البُعد. أرى نفسي القديمة في سياق الدنيا المُبهرجة الألوان الحقيرة السخيفة، فيزداد غضبي على نفسي وعلى العالم الأعمى، المُقيد بقوانينه الوضعية وماديته وسفسطته وغطرسته نحو الهاوية. كُنا في نهاية الثمانينيات، حيثُ الصحوة السلفيَّة الجهاديَّة، والتي أطلق عليها الجهلاء اسم الإرهاب. لم أفهم ولا أفهم حتى الآن ماذا يُريدُ الشتّامون للسلفيين الثوَّار بغير عِلم؟! لِم لا يفهمون ولا يدركون الجرف الهار الذي بلغناه؟! عُميت قلوبهم وبصائرهم، فعميت أبصارهم. صاروا لا يرون إلا ما أُريد لهم أن يروه، مُرتكنين إلى الرؤية الغربية المُتأمركة التي صدّرتها لهم

القصص والروايات والأفلام والأغاني. الحقيقة أن السلفيين الثوَّار كانوا -بعكس ما يُتهمون به- تقدميين جدًا، أصحاب رؤية ثاقبة للمستقبل، مُرتكنة على تراثنا الإسلاميّ القويم. ولكن المُجتمع المُخترق لفظهم وتخلّى عنهم، فقط لأنهم مُلتحون يحملون السلاح كما تقول أمنا الأمريكية. لم نعجب الغربيين لأننا لا نتمتع بالمرونة التي يأملون فيها ويدّعونها. لم نكُن حمائم وكُنا صقورًا، فكان لا بدّ أن ينزعج المُتآمرون بشدة.

أكاد أسمع صياحك يا أبي من أعماق الذكريات، لتسلخني بكلماتك الحارقة:

- «أمّال قاعد في البيت ليه؟! مستنّي إيه؟! ما تروح مع إخوانك المسلمين وجاهدوا في سبيل الله والوطن! .. روح يا ابني معاهم اقتل لك كام سايح ولا فجّر لك كام فندق! .. يمكن ساعتها ترتاح وتنتصر للإسلام والمسلمين!»

فأصمُت. برّرتُ صمتي وقتئذ أنه ليس عجزًا. بقدر ما هو رؤيتي الخاصة. أن الوقت لم يحن بعد. محاولاتُ الرفاق الثوَّار كانت جيّدة. ولكنها تفتقر للتخطيط البعيد. إنهم فقط يضعون المثال الذي يُحتذى به، علَّ المُجتمع يعي وعلَّ العقلاء يستفيقون للخطر المُحدق بالأمة.

«ومن إمتى يا خويا عامل لي فيها مُصلح قوي وخايف على أمّتك الإسلامية؟! ده إنت ماكنتش تعرف مين رئيس حكومة بلدك! السادات لسّه ميت عندك من سنتين! ولا هو علشان حتة بت سابتك، الدنيا قلبت سواد فجأة، وعملت لي فيها شيخ؟!»

صفعتني بكلماتك مُجددًا يا أبي فلم أرد. ووقفتَ يا (عمرو) بيننا صامتًا كعادتك، سابحًا في عالمك الخاص. لِم لم تُوضح موقفك من القضية؟ أنت

أيضًا كنت غير مسيّس ولم تكره في حياتك قدر السياسة وسيرتها. وُكنتُ أعلم أنك مُتديّن بالطريقة التي يحلو للعامة وصفها بالمعتدل الوسطي.

أين كان صوتك أيها الأخرس؟! ألتلك الدرجة كُنتَ تحتقر أخاك؟!

مُعلقًا عينيّ بوجه أبي الشائخ النائم، أتراجع بجسدي للخلف. كأنّما أحاول سحب نفسي من مصيدة الذكريات. أسحب نفسي من نظرات أبي المُحدّقة من خلف جفون الحُلم. وأسحب نفسي من وقفة المُتّهم الماثل أمام قاضٍ قاسٍ مُحيط بكُل شيء.

أسحبُ نفسي من نفسي، ليرتدّ حرف خشبيّ في ظهري وأسمع صوت القلقلة. ألتفت ببطء مُجمّدًا فكي، حريصًا كي لا أُقلق النائم. فتواجهني التسريحة الخشبية سُكرية اللون ذات العمودين المُزخرفين، والأدراج الثلاثة المُغلقة على كُل الأسرار التي دومًا ما شغلت فضول طفولتي وأحلامها. تتوّجها طبقة الفضة المُتكاثفة على اللوح الزجاجي، لتنقل العالم المواجه لها نقلا أمينًا، صادقًا وصادمًا.

بعد أن جرى ما جرى، كُنتَ دومًا تهرب من الصور والمرايا يا (أحمد) يا (شومان). قدر استطاعتك، كُنت تنأى عن النظر في وجهك. هربتَ من صورتك خارج هذا المكان. وحاولت أن تُكرر فعلتك في الصالة، فانقضت عليك التسريحة بصورتك، لتفاجئك وتطعنك من الخلف.

حتى في أشد لحظات نجاحك، عندما تجلس أمام عيون الكاميرات الرقمية الرائقة، تواجه جمهورك ومريديك في قناة (الدعوة)، كُنتَ تحرص ألا تُشاهد

تسجيلاتك، وتحرص ألا تكون موجودًا عندما تُشغل امرأتك برنامجك في الإعادة.

اعترف لنفسك الآن، أمام وجهك الشاحب الذي زاده الوقار إرهاقًا، أمام تضاريسك التي تغيّرت، وملامحك التي عمّقها الزمن، وشعرك الذي خفّ ووخطه الشيبُ، ولحيتك الطويلة المُحنّاة التي احتلّت وجهك وجسدك الذي سَمِن وبرزت كرشه. اعترف الآن بخوفك وجُبنك، طالما كُنتَ كذلك. غلّفت خوفَك من الحكومة المتأمركة عدوة الإسلام، ولم تندفع وسط جموع رفاقك المزعومين، لِما أسميته «رؤيتك الخاصة». وأنك ستنتظر الوقت المناسب. فالمستقبل سيكون للإسلام ولكم كما ادّعيت. ارتضيت أن تُهادن باسم المستقبل الآتي. والأنكى أنك كُنت -غافلا- تُطلق على الزميل الذي يتخذ ذات موقفك، أنّه براجماتي ارتمى في حضن النظام العالمي الكافر. نهيت عن الفعل وأتيت بمثله باسم الحِكمة، وباسم انتظار رياح التغيير والإشارات الربانية. ثُم شتمت في سرك ولعنت كل من نافق وهادن وكان مرنًا كما أمره آلهته الغربيون.

عِشتَ الأوهام والخطط والضلالات في خيال منامك فقط. تضاجع الأحلام وتغرق فيها فقط داخل جدران عقلك ومنزلك وسريرك. مثلها مثل قَسَم تخرُجك بأن تعمل في المحاماة بشرف وأمانة وأن تحترم الدستور والقانون. ثُم لا تلبث أن تتخلى عن كل مثالياتك بمُجرد الخروج من عتبة المنزل. ليُخرِجك أبوك الجرّاح -الذي خدم أُناسًا كثيرين- من الخدمة العسكرية بالواسطة، ويضعك تحت يد صديقه، شيخ وشيطان المحامين (عبد المنعم الدسوقي)، فتتلمذ على يديه. منه تتعلم كيفية اللعب بالقوانين لعبًا.

«تعرف يا واد يا (أحمد) .. الميزة فيك غير إنك بتتعلم بسرعة وغير إني شايف مني فيك كتير .. الميزة الكبيرة فيك هي دقنك دي .. مع شوية البهارات اللي بتعملهم تقدر تاكل أجدعها قضية .. أنا متفائل بيك يا خليفتي».

يقولها الشيطان الأكبر ووجهه الأشهب يحتقن بالمرح. ليُداعب الشيطان الأصغر الرابض داخلي، ويُمسّد على رأس حيوان الخوف الرابض في أعمق أعماقي. علّمني (الدسوقي) الكثير والكثير. وكانت أكبر هداياه لي هي كيفية التلاعب بالكلمات واستشفاف الطبيعة والمِزاج الشخصي للقضاة. كان يعرف كيف ينفذ عبر تلافيف أمخاخهم، مثلما كان ينفذ عبر ثغرات القضايا وملابساتها. قيل إنَّ الكلمة نور وبعض الكلمات قبور. هذه حقيقة، ولكن (الدسوقي) علمني أن الكلمة هي الشيطان الذي استطاع الإنسان خلقه.

وهكذا، وجدتُ نفسي أتدرّج عبر سلالم الشيطان الإنسيّ إلى عالم النجاح، بينما يقبع السلفي داخلي خلف جدار الخوف في كبتٍ حالمٍ حانقٍ، لم يستطع تمثيل نفسه على سطحي سوى باللحية وكلمات المرافعات، شياطيني الصغيرة التي أخلق آلافا منها في كل لحظة. رغم ذلك أو بسبب ذلك، تأخّر استدعاء زوار الفجر كثيرًا.

ولكن ذلك لم يمنعه من أن يأتيني في النهاية، ويستدعي الخوف من قبوه المُغلق منذ مقتل السادات، وحالة الفزع العام التي اجتاحت البلاد مع مطاردة الجماعات الإسلامية.

ويستدعي أشياءً أخرى.

يرتعش جفنا الوجه المُحدق بي في المرآة. تتوتر عضلات وجهه فتهتز لحيته الثقيلة. ظهرت الدوامات في نهر الخوف الساكن. هناك من وقف على ضفته مُتحديًا وألقى الحجر ثُم جرى. من فعلها؟ ولأية مصلحة وجهة يعمل؟ وما غرضي الآن من التواجد في بيتي القديم، خلفي أبي النائم، وأمامي المرآة العتيقة، أنظر في ذرّاتها الفضّية المُنهكة المُتآكلة وتنظر في خوفي. عاصفة في قالب الثلج. من وجّهها؟ ومن رنَّ أجراس الإنذار؟

كان الإنذار في نهاية التسعينيات. بالتحديد بعد إحدى جلسات قضية (رفعت الباشا) في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٩. كان العالم الغربيّ المُتغطرس يترقب نهاية الألفية ويشيع مهاويسه أساطير نهاية العالم التي اقتربت، غير عالمين أنني سأُبصر في منامي -بعد اثنتي عشر عامًا من ذلك التاريخ- العالَم وهو يستعد ليُدمر نفسه بنفسه، إثر هرطقة علمية مغرورة. أما أنا فكُنتُ في عالمي الخاص، فُقاعتي التي ارتج سطحها بقوة مُزلزلا كياني. كان الليل قد تمادى، فزحف البرد ليسكن نُخاع عظمي، وأنا أقود سيارتي الصغيرة إلى بيتي. فكرتُ في أبي الذي لا بدّ أن يكون قد نام بعد تعبِ يومٍ طويل في عمله. و(عمرو) الساكن في الجهة الأخرى من العالم. مشغولا في بعثته الأمريكية بعدما تفوّق في كلية العلوم. قُلتُ لنفسي ساخرًا ربما هو أيضًا يحتفل ويحتفي مع الكفرة بنهاية الألفية ويسكر معهم في صحة العالم الذي ينتهي!

أعجبتني خواطري السخيفة، التي حملتني إلى الرصيف في منتصف شارع الفلكي. ركنت السيارة تحت منزلي، وهبطتُ منها. أغلقتُها والتفتُ مُلتقطًا بعيني صورتي التذكارية اليومية للمنزل من الخارج. وعندما التفتُ مُتحركًا

حول السيارة، لأصعد. لم أشعر سوى بقنبلة تنفجر في مؤخرة رأسي وظلام يهجم أمامي.

وعندما عاد النور، وبدأت الدنيا تصير مفهومة مُجددًا، كُنتُ أجلس على كرسي خشبي. التفتُ لأستوعب المعالم من حولي، بينما عنقي يتذكر ضربته فيعود ليؤلمني، وقلبي يتذكر الخوف الكامن خلفه في الصدر، فيضرب طواحين الدماء مُسرعًا. زحف القلق خلف أظافري، فآلمتني. بينما أعود إلى الوجه الثلاثيني المُتبسم الساكن خلف المكتب، يُراقبني كفأر تجارب مُسلٍ.

تراجع بظهره للخلف، وسحب نفسًا عميقًا من الهواء حولنا. ربما ليوسّع مجال رؤيتي أو يستمدّ سلطته من صورة إلهه ورئيسه المُبارك، المُعلقة خلفه.

قال بصوتٍ رخيمٍ قوي:

-ازيك يا شومان ..

أفقدني الخوف إحساسي بنفسي.

-الحمد لله. ازيك إنت يا باشا..حضرتك ...

-عامل إيه؟ أخبارك وأخبار قضاياك؟ .. الناس عندنا متابعينك من زمان وبسمع عنك أخبار كويسة.

-فضلة خيرك يا بيه .. خير هو أنا عملت حاجة زعّلتكم لا سمح الله؟

رفع حاجبيه متظاهرًا بالاندهاش، وقال بلهجة حاسمة مُرعبة:

-إنت؟! لا أبدًا. هو إنت تقدر تعمل حاجة تزعّلنا أصلا؟!

ارتجفت شفتاي وأنا أقول:

-يا رب دايما تكونوا مبسوطين. لو فيه أي خدمة أقدر أعلمها أأمرني؟

أطلق ضحكة مفاجئة مستفزّة، أثارت رعبًا فوق رعبي. قال:

-أخبار قضية (رفعت الباشا) إيه؟

رغم الخِدر، فهمت ما يرمي له. فقُلت مُسرعًا:

-ما حضرتك عارف. سيادتك دي بالنسبة لنا قضية زيّها زي أي قضية. هي آه فيها جماعات جهادية عايشين الدور. بس سيادتك عارف حاجات زي دي بتعمل صدى كويس في الإعلام، وبتصيّت الدفاع. سبوبة والكل بيسترزق. وكله في النهاية بيتم برعايتكم. لو عايزين تطلّعوهم هتطلّعوهم، ولو عايزينهم يشيلوا الليلة هيشيلوها.

لم يبد عليه التأثر من كلماتي. الواقع أنني أعلم أن كلماتي لم تُضف جديدًا. ولكنه كان الرد الوحيد الذي ملكه لساني في تلك اللحظات العصيبة.

زفر ببطء مُتعمد قائلا:

-طيب..

ثُم هب واقفًا، فهب معه قلبي داخل صدري. تركني أغلي في صمتي على إيقاع قدميه الثاقبتين. ثُم خرج وأغلق الحجرة عليّ.

هذا الو..

كدتُ أشتمه في أعمق أعماقي. ولكنني خُفتُ أن يسمع إلهه المُصوَر شتائمى، فيشي بي. حاولتُ مراجعة ردودي معه، ربما أكون قد أخطأت في كلمة ما، فلم أستطع تذكر كلماتي وقتئذ. بل إن عقلي المحموم قد شكك في كون شتيمتي قد خرجت من بين شفتيّ دون وعي مني، فسمعها. إنه مثل كل من على شاكلته، يُجيد التحكم بخوف الضحية، تضخيمه وتشكليه كيفما يشاء. إنها صنعته الأولى والأخيرة، دونها لا يملك لضحيته شيئًا. مهما تعدّدت وتطوّرت سواطيره وسجائره وبنزينه ونيرانه وأنواع مُنفاخه. في سنواتي الأبديَّة بالغرفة، حاولتُ استراق السمع حولي. لعلي أسمع شقشقة عصفور مُبكر في الفجر، فأشعر أن العالم ما زال هناك بالخارج، قائمًا حيًا، لم يتركني بعد. ولكن لم أسمع سوى دقات قلبي وصفير الصمت في أذني.

بعد ساعة أو اثنتين أو ألف، وعندما تيقّن إلهه الباسم ببلاهة في صورته، أن الخوف قد أنضجني تمامًا، وصرتُ مثل اللحوم المُجفّفة. فُتح بابه الذي كُنت قد تيقنت أنه لن يُفتح أبدًا. هرعت إليه بخوف، فوجدته يبتسم بخبث:

-براءة يا عم أحمد.

لم تستطع أساريري المُتيبّسة الاستجابة لفرحتي الغامرة بالخلاص. أضاف:

- عمومًا..خد بالك اليومين الجايين دول وماتلعبش دور أكبر من دورك.

-أكيد .. أكيد .. شكرًا يا سعادة الباشا .. شكرًا.

صافحني بحرارة غريبة. وعندما حاولت تجاوزه للخروج، قبض بقوة على ساعدي الأيسر، قائلا:

-الرائد عصام الدهشان، اسمي، علشان هنتقابل كتير يا أحمد .. ومش بعيد نبقى أصحاب!

لا أذكر تحديدًا شعوري إزاء جملته الأخيرة. ولكنني علمتُ وقتئذ أن عبارته ستكون ميثاقًا غليظًا سيطوّق رقبتي إلى أبد الآبدين. وعندما رافقني مُخبره الغليظ عبر السلالم الطويلة، التي صعدنا بها إلى العالم الذي نعرفه، وعندما اخترقت نسمات الصباح الباردة الرطيبة مسامي، وشقشقت العصافير مُجددًا في أذني، ولامس بصري وجوه الأطفال المُتسولين والشباب المرح والطلاب المُكفهرين والعجائز الحائرين والرجال المسئولين. عندما عانقني كل ذلك، أدركتُ للمرة الأولى والأخيرة، بعد وفاة أمي وفاحشتي مع (سمية)، أنني على قيد الحياة.

٨

امتد شعوري بعودة الحياة والروح بضعة أيام لاحقة. شعرتُ خلالها بأحاسيس الناجي الوحيد من غرق سفينة. تشبثتُ بكُل ما يربطني بالحياة قدر استطاعتي. أصلحت علاقتي المتوتّرة مع أبي من كثرة صداماتنا الفكرية. هاتفت (عمرو) وطالت مكالمتنا. كان في نبراتنا ما يؤكد أن شعورنا بالاحتياج قد تلاقى في ذات النقطة، وذات اللحظة. حدّثني عن العالم الكافر كما يُحب أن يسخر مني مُقلدًا. وكيف أن الكفرة يقدّسون العمل ويكرهون

الكسل والتنطُع. يعشقون الأفكار المجنونة ويغامرون بتصديقها، علّها تفتح لهم بوابات لأماكن غير مطروقة. وكيف أن كُل ذلك يجعله يشعر بالهوة السحيقة بيننا. احتد صوتي عندما حاولت الدفاع عن موقفنا. قلتُ له:

-إحنا حالة وظروف مختلفة .. وبعدين يا أخي همَّ سايبنّا في حالنا حتى علشان نحاول نفوق؟!

-يا شيخ (أحمد) أرجوك كفاية تواكل وتعليق شماعات على مساند وهمية.. لو عشت هنا واتعاملت مع الناس هتعرف إن الوضع عندنا ماعادش له حل .. ماعادش نافع خلاص، تعرف لو الوضع عندنا ثابت حتى كنت هقول لك فيه أمل .. لكن المشكلة إننا بننحدر في اتجاه هاوية .. ثقب أسود هيبلعنا، أو خلينا نقول إنه بلعنا خلاص! لأ وفرحانين قوي بإطلاق قمر صناعي ماصنعناهوش ولا حتى له أي هدف علمي .. قمر شايل شوية قنوات تافهة تغرق الناس أكتر ما هي غرقانة!

تهرّبت من حواره المُفحم قائلاً بمرح:

-وإنت أخبارك إيه؟ مفيش حتة أمريكاني كده علينا؟

تغيّرت نبرة صوته بصورة لم أستطع تحديدها أو إدراك مغزاها:

-لا أمريكاني ولا صيني حتى، هو إحنا فاضيين للكلام ده!

فضحكتُ قائلا:

-على أخوك برضه؟! .. وبعدين أيوه يا سيدي دايمًا فيه وقت للكلام ده! إنت نسيت إني قديم في المواضيع دي قبل ما ربنا يتوب عليا.

تهكّم:

-الله ينوّر طريقك يا شيخنا .. دعواتك لينا بقى. مش ناوي تفرّح أبوك بيك قريب بقى.

ابتسمت لتخاطره الذي لمسني:

-قول يارب.

واستطردتُ سريعًا مُنهيًا المكالمة:

-المهم تخلّي بالك من نفسك .. وتحافظ على نفسك من الفتن يا عمور. ربنا معاك. لا إله إلا الله.

-ماشي يا شيخ. محمد رسول الله.

وعندما أنهيت مكالمتنا، شعرت بحالة نادرة من الرضى عن النفس. أصررتُ على استثمارها بشتى الوسائل. شرعتُ في البحث عن شريكة الحياة. الزوجة التي تمنّيت من الله أن تكون صالحة، وتعينني على التقوى. وتحافظ على اسمي ونفسي ومالي. أطلقت الخاطبين وسط معارفي، يبحثون وينقّبون عن الدرّة الثمينة. وكانت مواصفاتي بسيطة، أهمّها أن تكون مقبولة الملامح مُنتقبة حييّة. فطبيعتي الشخصيّة ورؤيتي الدينية تُحب في المرأة أن تكون

رقيقة خفيفة كالنسمة، شبح لا يكاد يُرى. لا يتفحّص المشتهون مفاتنها، كلما مرّت في الشارع، كأنها سلعة رخيصة تُباع وتُشترى.

وكانت (درة) الدرر هي مُكافأتي التي نلتُها بعد طول انتظار. من أسرة كريمة ميسورة، يملك والدها الأستاذ (عبد الحي مطاوع) شركة مقاولات مُزدهرة. أمّها ربة منزل فاضلة، لديها أخ أكبر، (محمد)، مُدرس تشريح بكلية الطب. أسرتها مُتدينة مُحافظة جدًا. وعندما اصطحبتُ (مها) ابنة خالي معي لرؤية العروس. أسهبت في سرد محاسن درتي الشكلية والخُلقية. بدت لي كُل الأمور مثالية. خاصةً بعد مُساهمة أبي بشراء شقتين من مدّخراته، واحدة لي والأخرى لـ(عمرو). كانت الشقتان في شارع (أبو النور) الموازي لشارع (الفلكي). قريبتين من بعضهما ومن بيتنا. ولم يملك (صفي الدين) الرفض خاصة بعد اطمئنانه لوضع الأسرة الاجتماعي والمادي والخلقي.

خلال فترة الخطبة القصيرة، كُنتُ أزورها بمنزلها. حكيتُ لها عن عالمي الضيق الذي هربتُ فيه، حكيتُ لها عن أحلامي التي يضنّ الواقع عليّ برفضها. ولكن معجون الخوف الذي شُكلت منه خلاياي جَبُن على إخبارها بتاريخي السابق مع بنات حرف السين. كانت تلك هي المفارقة التي لاحظتها مُتأخرًا، كُل بنات عِشقي كانت أسمائهن تبدأ بحرف السين. كأنّما كان حرف عِشقي هو المُعادل للشين التي يستهل بها الشيطان اسمه. قصّت لي قصتها، والتي كانت قصة فتاة محترمة مُتحفّظة شديدة التقليدية. خريجة كليتي، كلية الحقوق. تصغرني بعامين. قصّت لي شفتاها الرفيعتان عن مفارقة غريبة، أيّدتهما عيناها اللتان زادهما بياض وجهها سوادًا. كانت مُعجبة بي من أيام الكُلية. كانت عيناها العاشقتان تتبعاني بينما أدور في متاهتي الخاصة

مع (سمية)، ثُم تتبعتني بينما أدخل صومعتي بعدما قتلت عشيقتي وقتلت نفسي. كانت شفتاها، من خلف نقابها، ترتجفان داعيتين بيأس مخلوط بالأمل أن يضعنا القدر على ذات الطريق. لم يكن أمامها إلا الدعاء، فمقاييس شخصيتها لا يمكنها استيعاب ألاعيب بنات جيلها لإيقاع الشبان، أو حتى جذب انتباههم. صداقاتها محدودة جدًا، ولكنها قوية رغم ذلك.

دمعت عيناها وبكت بينما تخبرني ذات يوم بتلك القصة، فشعرت بدموعها تغسل قلبي وذنوبي غسلا. دمعتُ وشعرتُ بالتطهر والخلاص على يديها. وأحسستُ أن نقابها قد وُجد ليسترني ويخبّئني من نفسي التي كرهتها، ومن الناس الذين اعتزلتهم مُكتفيًا بعلاقاتي العملية بهم، المُستغلة إياهم.

وفي منتصف ديسمبر من عام ١٩٩٩. اقترن اسمي باسم درتي العزيزة، في فرح هادئ على التقاليد الإسلامية. دون صخب لا داع له، ودون رقص شيطاني ماجن مُزعج. نظرتُ لوجه أبي فرأيت ملامحه تتألق بسعادة تحمل قدرًا لا بأس به من الإرهاق. تعبتَ يا (صفي الدين) وتشعر أن الراحة قد قاربت. لا أيها العجوز، ستصمد وستظل تعارك الحياة، وتعاركني، حتى آخر نفس من أنفاسك المُنتظمة، التي أسمعها تهمس نائمةً من خلف ظهري، بينما وجهي شاخصٌ في وجه الشخص الذي تفاديته طويلا. لم يحضر أخي الفرح، إذ منعه انشغاله التام وغرقه في أبحاثه من قطع تذكرة عبور القارات لحضور عُرس نصفه المُتصل المُنفصل.

على إيقاع الدفوف وأسماء الله الحُسنى، خطونا –أنا و(دُرة)- على السجادة الحمراء الطويلة، المؤدية لخارج الفندق. بدت وهي تتأبط ذراعي كملاك أبيض رقيق، يحمل مسحة من الحزن الذي يجذبك للتساؤل دومًا عن سره.

معًا، خطونا خطواتنا الأولى نحو البداية الجديدة. حيث القطيعة التامة لكل تاريخي الأسود مع البشر. ضاعت كل سيناتي وبدأتُ أبجدية جديدة، تُوجت سريعًا بـ(عمرو). ثُم تلته (أسماء) بعد سنتين، ثُم آخر العنقود (هُدى)، التي كانت بمثابة فاتحة الخير لما وصلت له الآن.

كانت علاقتي بـ(درة) شديدة التوهُج في بداية الزواج. في تلك الفترة اكتشفت معنى نصفك الآخر، الذي تصير الحياة أخرى به. اكتشفت أن المقصود بالنصف الآخر لم يكن النصف الذي تعشقه وتُمارس كل الجنون معه. ليس ذلك هو النصف الذي نتزوجه ونُعاشره في الغالب. بل هو النصف الذي يمنحك شعورًا بالامتلاء والاستقرار، الذي يُشعرك بالمسئولية التي ارتضيت أن تحملها تجاهه وتجاه نفسك.

بدأت علاقتنا في الرقص بمنحنياتها مع بداية انتفاخ بطنها بـ(عمرو). ثُم فترت نوعًا مع النصف الثاني من الحمل، ثُم عادت تضبط موازينها مُجددًا مع ولادته. ظلت دائرة تأرجح علاقتنا مستمرة مع كل حمل وكل ولادة. خرجنا بعد كل الأطفال الثلاثة بهيئة مُختلفة تمامًا. ولكنها لم تعد أبدًا كما كانت. خفت الحُب وأتى الاعتياد والعِشرة والمسئولية. ضاعت أنا وأنتِ وأتت بابا وماما. والبحث عن خروجات للأطفال وأكلهم ولباسهم وحفاضاتهم وحضاناتهم ومدارسهم. بكائهم وإسهالهم ومرضهم وتطعيمهم. وأنت يا (أحمد) تُذاكر قضاياك بقوانينها الوضعية وتبحث في علوم الشرع والفقه عن الخلاص في الرحمة السماوية. تعمل وتُكافح، تترافع وتخطب، تكسب بعض القضايا وتخسر بعضها، تنافق وتمسح الجوخ وتحلُم بعالم خيالي، تُمارس فيه أفكارك الإسلامية المثالية التي هربت من محاولة فرضها على الواقع،

فقط لأنك أجبن مما تخيّلت، أو لأنك تتصوّر أنك كذلك. تُهادن وتُمارس كل الحقارات الدنيوية بقلبٍ جامدٍ، حالمًا باللحظة التي يتحقق وعد الله ويتم لك الدين، ويجعل أعزة الأرض أذلّة، ويُمكّن لكَ ولإخوانك -الذين لا تُحدثهم حتى- في الأرض. تختلج عضلات قلبك بسعادة بالغة مع انفجار برجي التجارة العالميين وثورة الثور الأمريكي العمياء المُتلفّت حوله، بحثًا عن صافع مؤخرته. ولكنها سعادة مكبوتة، مسجونة، مُرة، داخل عظام قفصك الصدري المُحكمة، ولحمك السمين الواقع تحت قبضة عقلك الحديدية.

يجيش كيانك بكل ذلك، فتلقى أباك، ليقرأ خلجاتك وترى في عينيه كلماته السابقة تُستدعى من أعماق ذاكرتك: «أمال قاعد في البيت ليه؟! مستني إيه؟! ماتروح مع إخوانك المسلمين وجاهدوا في سبيل الله والوطن!» . كما تحلُم في ذات الوقت بتحقق وعد الرائد المُتعجرف (عصام) الذي صار المقدم (عصام)، صديقك الشخصي وحبيبك كما تُحب أن تناديه. تسأله، فتلتمع عيناه في جذل بينما يُشعل عينيك بالشهوة. ويقول:

- شايلين لك حاجة كبيرة يا شيخنا .. حاجة هتفرّحك قوي..

بلهفة تقول:

-امتى يا باشا؟

فيبتسم ويقول ببطء مستفز مُتعمد:

-قريب إن شاء الله.

انتظر قريبه ذلك عامين بعد ذلك الحوار المُتكرر، كي يتحقق. في العاشر من يناير من عام ٢٠٠٥، مع مخاض حبة عنقودنا الأخيرة، (هُدى). مُلتحفةً أقمطتها البيضاء، تنظر إليّ بعيني أمها السوداوين البريئتين الحزينتين. وتتحرك يداها الصغيرتان في محاولة لمُداعبة وجهي. فلا أملك إلا الابتسام وفيضان العينين من البراءة الطاهرة التي نجحت نفسي الخبيثة في تكوينها. ليتأكد لي أن الجزء البريء داخلي ما زال حيًا، مهما حاولتُ كتم أنفاسه.

أتت (هُدى) مع أذان الظهر. لتحمل إلينا ظهيرة جديدة تقف شمسها فوقنا. اجتمعنا في اليوم التالي، لنحتفل بها في منزلنا بـ(الفلكي). حضر جميع الأهل والأحباب. ابتسمت دُرتي بإرهاق، ضحك (صفي الدين) من قلبه، ولكن ضحكاته كانت تتوقف في نهايتها. ربما لقلقه على (عمرو). الذي لم يأتِ كالعادة. دائمًا كان الغائب الذي أشعر بحضوره يداعب مؤخرة عقلي. لم يفت عليه أن يبارك لي بصوته المُحايد الغريب، بعدما هاتفه والده يزُف إليه النبأ السار.

وفي الليلة التالية، بالتحديد في الثاني عشر من يناير. أتى الوعد الموعود. رنَّ المحمول عن رقم طويل. نظرتُ للكود السابق له، فعرفتُ أنه اتصال من السعودية. للمفارقة أتاني صوت محدّثي بلهجة مصرية خالصة.

-السلام عليكم .. أستاذ (أحمد شومان)؟

-وعليكم السلام .. أيوه أنا .. مين معايا؟

-حضرتك أنا (جابر إسماعيل) من المؤسسة العربية للإعلام.

-أهلا وسهلا. خير؟

-كنا عايزين نحدّد معاد مع حضرتك. إيه رأي حضرتك تيجي تحج وتزور بيت اللّه. وبالمرة نتكلم في شغل مشترك ما بيننا.

-ممكن أفهم على الأقل العناوين الرئيسية للموضوع إيه؟

-مش هينفع حضرتك نتكلم في التليفون. بس اللي أقدر أقوله لحضرتك إن الشغل لو حضرتك وافقت عليه هيبقى في المجال بتاعنا .. الإعلام.

-جميل جدا .. ميعادنا هيبقى إمتى إن شاء اللّه؟

-حضرتك لو وافقت .. موسم الحج قرّب .. ممكن تعدّي على مكتبنا في مدينة نصر..العنوان ١٨ شارع (أحمد عرابي) .. الدور الثالث، ثاني شقة. تتفق معاهم على كل التفاصيل وتجهز الباسبور، وإحنا هنخلص لك كل الإجراءات إن شاء اللّه عز وجل.

ابتسمت للهدايا القدرية التي آتتني على غفلة، إثر أولى خُطاك يا (هُدى) في الحياة. وبدت لي نعمة الذهاب للحج أو حتى العُمرة بديهية جدًا. جعلتني أتساءل لِمَ لم أفكر في ذلك من قبل؟ أبسبب ذلك الجانب الهشّ داخلي؟ الخائف المُتقوقع الهارب من نفسه ومن العالم، ومن يدري ربما كان يحاول أيضًا الهروب من اللّه، مهما علم وفهم وأدرك عبثية ذلك الهروب الزائف؟

كان اليوم التالي بالغ البرودة، كاد برده يعتصر الرئات ويُزهق الأرواح ويُجمد الأنفاس في الصدور. لم تُمطر السماء واكتفت بسُحب كثيفة مُقبضة، سرتُ تحت مظلتها ومظلات الأشجار الوارفة الظليلة إلى شارع (أحمد عرابي)

بالمهندسين. نبضات قلبي السعيدة المُترقبة تطرق على صدري بصبر نافد، بينما يُقلّني المصعد الناعم الحديث على عكس البناية القديمة، المُنحوتة في قالب قبيح مُصمت. فتحت المصعد وخرجتُ منه مُلتفتًا إلي يميني، لأجد الشقة التي اتخذها مقر الشركة، تتوّج بابها لافتة مُستطيلة مُنيرة باسم الشركة. دلفتُ عبر الباب المفتوح لأقابل السكرتير الأنيق، الذي سجّل اسمي وأجلسني على الكنبة الوثيرة أمامه، بينما يُبلغ مُدير المكتب بمجيئي. تطلعتُ إلى الجدار الواقع خلف مكتب السكرتير. حيثُ برز شعار الشركة الدائري المُلون بالأزرق والأخضر. والمكتوب تحته «نحو إعلام عصري هادف». لَم أُكمل عصيري مثلما لم أُكمل نظرتي المُتأملة للشقة القديمة التي دُهنت حديثًا وأثثت بالطريقة العصرية التي لا تخلو من مسحة التراثية المُعَبق بها هواء المكان، وصوت خفيض لتلاوة قرآنية، تأتي من مكانٍ غامض. فقد قام السكرتير بنفسه سريعًا إليّ قائلا باحترام خاص:

-الأستاذ (زكريا عبد القوي) في انتظار حضرتك.

صحبني السكرتير ذو الملامح غير المميّزة إلى الطرقة القصيرة، التي أسلمتني يمناها إلى باب مكتب المُدير. طرق السكرتير الباب وفتحه ثُم تركني أدلف إلى المكان.

كانت الحجرة تحمل نفس الحالة الديكورية للشقة. بالإضافة إلى مكتب الأستاذ زكريا الكبير، المُستهل باسمه وصفته وبلا إله إلا اللّٰه مُحمد رسول، منحوتة على قطعة خشبية مُنتصبة. بينما يقبع خلف المكتب وفوقه شعار الشركة مُذهبًا.

وقف الرجل بجوار مكتبه المُعبق بالبخور، ليستقبلني مُرحبًا. كان خمسينيًا، ضخم الملامح، ذا شعر أبيض حليق ولحية سوداء متوسّطة الطول، وكرش ضخمة تنفخ قميصه تحت البذلة. بدا شكله مألوفًا وحميمًا مما زادني راحة، قلتُ:

-السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

رد سلامي مُبتسمًا، واحتضنني في حرارة، قبل أن نجلس.

-ازّي حضرتك يا حضرة المحامي الكُفء .. بنسمع عنك كل خير .. سمعتك عطرة طيبة ما شاء اللّٰه.

زادني كلامه احتراما لنفسي فأجبت:

-اللّه يخليك. أخبار الشغل إيه؟

تراجع للخلف وتراخت ملامحه أكثر:

-الحمد لله .. أهو أدينا شغالين بكامل طاقتنا علشان نطلع للهوا قريب .. الحمد لله خلصنا التراخيص والموافقة الأمنية ..

أنارت كلمته الأخيرة السرداب القديم المُظلم، فأغلقتهُ سريعًا، قائلا:

-طب تمام جدًا .. إن شاء اللّٰه تكون فاتحة خير عليكم..

لوّح بكفيه الممتلئتين:

-حضرتك عارف إحنا الوقتي بندوّر على كوادر تشتغل معانا، وتكون من خارج الصندوق.. من ضمن الباقة اللي بنولّفها قناة دينية .. عايزين نعمل قناة دينية تدعو الناس للدين الحق القويم. إعلام يفكّر الناس بالثوابت اللي التيارات الإعلامية كلها بتحاول تمحيها. أسوأ حاجة في الدنيا لما تهزّ ثوابت الناس زي ما بيحصل معانا من سنين طويلة. الناس لما فقدت القدوة والمنبر والاتجاه وصل حالها للي حضرتك شايفه الوقتي. اتسعروا. وأي مصيبة تحصل في البلد يقول لك الحكومة هي السبب. ماحدش فاهم ولا حد مقدر. إحنا سياستنا الإعلامية الرئيسية مفيش سياسة. إحنا هدفنا قاع المجتمع. الناس .. الشعب. ربنا قال إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. وأظن إننا لازم نشتغل على النقطة دي.

صمت لحظة ليختبر ردود أفعالي التي ظلّت جامدة، تُطالبه بالمزيد من الاستفاضة. قال مُستدركًا:

-حضرتك الأول تحب تشرب إيه؟

هززتُ رأسي ويدي بقوة مُجيبًا:

-لا شكرًا والله .. سكرتيرك تكفّل بالواجب.

-خلاص يبقى شاي.

طلب قهوته الزيادة وشايي. قبل أن يُكمل رافعًا حاجبيه:

-مش معنى إن إحنا عايزين نقدّم إعلام متنوع في القنوات الأخرى بتاعتنا، يبقى هنخلي قناتنا دينية صرفة بس. زي ما إحنا محتاجين دعوة دينية حقة،

محتاجين الدعوة دي تبقى مرتبطة بالناس وبظروفهم. عايزين حد زي حضرتك كده. الحقيقة أصدقاء كتير رشحوا لنا حضرتك .. بصفتك رجل قويم محتك بمجالات العمل المُختلفة. رجل جرب وشاف. اختبر القانون الوضعي بتاعنا وثغراته ووقف في ساحات المحاكم .. عنده قدرة الإقناع والقوة إنه يقول للناس إيه الأقرب للحق وإيه الأبعد عنه، من غير ما يهادن أو تغريه المغريات زي ما حصل من بعض الدعاة اللي للأسف علّموا الناس تنازلات كتير باسم الدين يسر وباسم مسايرة العصر زي ما حضرتك عارف.

أجاد الرجل لمس وتري الداخلي، أشعل الحماس لديّ، فانتفضتُ على إثره. كان أستاذ (زكريا) خطيبًا مُفوهًا. تشربتُ الكثير من لغته الجسدية وأضفتها لحصيلتي الحياتية، فنفعتني وقت اللزوم.

قلتُ:

-كلامك وصلني يا أستاذ .. أعتقد الشرف لي أنا إني أشتغل معاكم لو حصل نصيب.

قال مُبتسمًا بطيبة:

-الشرف لنا. وبإذن اللّه هيعجبك التعامل معنا أدبيًا وماديًا. إحنا زيّك برضه عندنا إمكانيات كتير وطموحات واسعة.. وأدينا مع بعض بنبدأ.

ابتسمتُ:

-أكيد .. وأهو كلنا بنتعلّم.

أطلق ضحكة خفيفة قائلاً:

- إذن على بركة اللّه .. أتشرف باستلام الباسبور علشان نخلّص الإجراءات.

أخرجت المطلوب من جيب سترتي الداخلي وترددتُ:

-زوجتي إن شاء اللّه هتطلع معايا. فرصة زي ما حضرتك عارف.

ابتسم الرجل:

-مفيش مشكلة طبعًا .. حج مبرور وذنب مغفور إن شاء اللّه.

على الفور، سلمتهُ جوازي السفر إلى الأراضي المُقدسة، جواز عبوري إلى حياة أخرى مُختلفة مُزدهرة، وجواز صداقتي ومحبّتي الدائمة لذلك الرجل الطيب.

٩

ها أنتذا يا شيخ (أحمد شومان). تقف مُتجمدًا أمام مرآتك، تُحدق بعينين لا تريان في الشخص المُحدق فيك على الجانب المُقابل، بنفس العينين اللتين لا تريان. من أعماق قلبك تندفع الذكريات، لتنفجر في شرايين مخك، فتُغرقه في دمائها العطنة التي طال حبسها. وأنت لا تستطع شيئًا. لا يُمكنك إلا الاستسلام لتقريع سياط النفس القلقة، الحاملة للذكريات كأدلة دامغة على إدانتك أمام المحكمة التي نصبتها لنفسك. بإرادتك أو دونها.

تعقد النية وترتدي زي إحرامك وامرأتك تتبعك أينما تذهب. أنت رجُلها وبطلها الأوحد، مهما تغيّر مناخ العلاقة وتوقّعت هيئات الأرصاد القلبية انتهاءها. الاعتياد يهزم الحُب. الروتين يهزم الجنون. وسط الجموع المليونية الرهيبة، الحالمة، المُتضرعة، الباكية، المُستغفرة، تطوفان مُتجاورين قدر الإمكان. كُلٌ في عالمه. تفعل مثلما يفعلون. أو نفسك هي التي تقود فلا تدري أنك تفعل. تسبح في بحر دموع وعرق لا نهائي. لبيك اللهم لبيك. تتمنى أن يحترق جسدك الآن، ويتركك تفرّ إلى الله فرارًا أخيرًا. تتمنى أن تذوب عجينتك الشيطانية بالتلاوات القرآنية اللانهائية ولمس الحجر الأسود والارتواء بالماء الزمزميّ.

تطوف هائمًا بين صفاك ومرواك. فيتفصّد منك العرق والبكاء، وتعود للتمني بأن تكون تلك هي حُمى الشفاء. تتمنى وأنت تعلم أنها ليست حُمى الشفاء وأنه ما بيدك ولا بقلبك ولا بروحك أيَّة حيلة. لا تملك إلا التضرّع والأمل. وأنت تعلم أن الأمل لأمثالك يصير لعنة دائمة عندما يلتصق به الخذلان. يضاجعه فلا يتركه. نكاح لا طلاق فيه.

تقف على جبل عرفات. ترجم شيطانك مرات ومرات راجيًا، لكن جزءًا صغيرًا في داخلك -تكاد تُدركه- يعلم أن شيطانك لن يتأذّى ولن يتألّم. لن يتقهقر ولن يُقهر، لأنه أنت وأنت هو.

تُنهي إحرامك فتعود لمضاجعة زوجتك بلهفة وشبق. مثلما تعود مُتكالبًا إلى مقرّ المؤسسة العربية للإعلام بجدّة. حيثُ تُنهي إجراءات تعاقدك وتوقِّع عقد الثلاث سنوات ذي المبلغ المُحترم. فتعلم من داخلك أنك نجحتَ تمامًا وفشلت أبدًا.

بعد شهرين من التحضيرات المُرهقة، تبدأ مع البث التجريبي لقناة (الدعوة)، التابعة للمؤسسة العربية للإعلام. مثلما تفعل في مرافعاتك، تُحرك جسدك بصورة دقيقة مدروسة وتنتقي كلماتك -شياطينك الصغيرة التي تُجيد خلقها من نيران كهفك- تُداعب أوتار الجماهير العريضة التي ليست أقوى عقلًا ولا أشد حذرًا من القاضي المُتحفز على منصته للنطق بحكمه.

أجدتَ الكلمات واحترفت صنعتها. فأحبّك الناس سريعًا مع دعاية القناة المُكثفة وإمكاناتها المادية الضخمة.

ترفع نبرة وحدّة الفتوى حينما يستوجب ذلك، وتُخفضهما حينما يُطلب منك ذلك. وفي الظلام يرقبك المُقدم (عصام) مُبتسمًا بخبث. ويحدّثك صديقك الأستاذ (زكريا) مُشجعًا فخورًا بدُميته الجديدة، التي أُريد بها أن تُعجب الناس، وتقول لهم ما يريد القرد المهووس المُتعصب داخلهم أن تقوله لهم.

يتم تعديل عقدك المرة تلو الأخرى. وتتهافت القنوات على ظهورك المُبارك. كما تتفتح لك مصاريع القصور بأمرائها وسيّداتها. فتُنهي علاقتك بالقانون الوضعي الإفرنجي المقيت، والتي طالما خُضت فيها مُكرها، لأنها لُقمة العيش.

يشتُمك المعارضون وينعتونك بتاجر الدين، السلفيّ المُتعصب، عميل أمن الدولة. فتُدميك شتائمهم من الداخل، ولكن لا يلبث أن يُنسيك شيطانك كل ذلك، مع السُلطة المهيبة على العقول والأموال والمنازل. يميع موقف أبيك، أحيانًا يبدو رافضًا غاضبًا عليك. وأحيانًا يبدو سعيدًا بنجاح ولده، خاصة في الساعات الطويلة التي يقضيها مع أحفاده. يُداعبهم ويلاعبهم. صار مُخه كمُخهم، طفل يُغيّر مواقفه سريعًا. من الرفض التام للقبول المُطلق في

ساعات أو دقائق. كأنما تعب من المُناهدة ومن المناقشة ومن اللوم ومن الغضب. تبرّ أخاك قدر الإمكان، فتشعر بنبرات صوته وملامحه في المهاتفة الإنترنتية بجمود عدواني يُخجلك أحيانًا من ذاتك. تظل وفيًّا لزوجتك وأمّ أولادك، دُرتك الثمينة، التي أبيت أن تأتي لها بدُرر، مثنى وثلاث ورِباع. ليُشعرك ذلك الجزء من نفسك أنك مازلت إنسانًا. يزاوجه مواقف أبيك الفخور، لتعيش لحظات نفيسة من الرضا عن النفس، قبل أن يُقبل عليك مُسرعًا جلّاد الضمير الذي لا يرحم.

وتُنهي حلقاتك الناجحة دومًا مُغمضًا عينيك، خاشعًا بالدُعاء، الذي يُمزّق نياط قلبك، ويُبكيك:

تُبنا إلى اللّه، ورجعنا إلى اللّه، وندمنا على ما فعلنا.

١٠

أرتجفُ وأنتفض أمام مرآتي. لتعود عيناي لحِكمة الرؤية أو لضلالاتها. فتُبصر الدموع في مقلتيّ انعكاسي. أرفع يدي إلى عينيّ وخديّ. فأجدهما مُبللين فعلًا بندى الدمع. مُجددًا الدموع ولا شيء سواها، دموع التماسيح، الكاذبة قصدًا أو بغير قصد.

واضعًا المرآة خلفي، أستدير وقلبي يخفق بتثاقُل مثل صخرة نابضة. أتحرك ببطء مُلقيًا نظرة سريعة على العجوز النائم في سريره، الحالم كما لم يحلم من قبل. أهرع بكل كياني خارجًا من الغرفة. خطوات مُتحجرة، تُحاول التحرر في البداية، قبل أن يُذيب الانفعال ثلجها. تنحل عقدة قدميّ فأخرج

مغلقًا باب الحجرة بأكثر الصخب هدوءًا. أعدو خارجًا عبر السرداب، فتنعكس خطواتي المُسرعة بصداها في قلبي قبل أذني. لتزيد الخوف خوفًا والغضب غضبًا. أعود للصالة حيثُ يصل الغضب أقصاه، فيعميني حرفيًا. تطلب عيناي تفاصيل المكان حولي، فلا تجدان سوى النور الزائغ. الأشبه بالعدم أو العمى. ما فائدة النور دون تفاصيل ينعكس عليها؟ قُلت قبلًا إن النور والظلام في حد ذاتهما عدمًا. لا معنى من ورائهما سوى ما نعكسه من داخل أنفسنا عليهما. مثلهما مثل كُل موجودات العالم. أجساد كانوا أو أفكارا. تميد الأرض بي وينحني السقف نحوي، ليُسقطني من فوق قدمي أرضًا. تعلو دقات قلبي فتصير طبولًا لا تُحتمل. ويكادُ النور أمامي يصطبغ بشبح الأحمر. تُفرقع كريات الألم في جسدي مثلما فرقعت كريات الدم في بصري، فلا أملك من نفسي شيئًا. وسط جنون الألم الجسدي، تأتي الذكريات بجنونها، كأنثى شبقة مُرعبة بارعة الغواية. لا تبغي سوى امتصاص رحيق جسدي كله.

الدماء في كُل مكان. تسعى في الأرض لتلوث كُل يد. لا تُفرق بين الأبرياء والأشقياء. تتحرّك قبضاتها في كل مكان لتعتصر كُل يد. فيحمل كُل شخص دليل إدانته. يظل أثر الدم على اليد مهما غُسلت اليد، ومهما طُهّرت. الدم هو الهواء الثاني الذي نتجاهل وجوده، رغم أكلنا وشربنا وغُسلنا وغرقنا فيه. لذا لم تكن جمعة الغضب استثناءً. فقط كانت تجليًا أوضح للحقائق المُتجاهلة. الحقائق التي تجاهلتها شخصيًا بينما أقف على بُعد أربعة أيام من الغضب الشعبيّ. أصرخ في برنامجي حتى يبُح صوتي. لا تستسلموا لدعوات الخامس والعشرين من يناير الهدّامة. الخروج على الحاكم المُسلم حرام شرعًا. حرامٌ .. حرامٌ .. حرام. أصرخ بها مرة تلو الأخرى. فأبصر المُقدم

(عصام) يبتسم في الظلام ويُصفق لي بقوة. وأرى رأس صديقي (زكريا عبد القوي) تومئ بقوة، تأمينًا على كلامي الذي أسعده.

لا أظن أن أيًا منهما كان يعلم ما يجول بخاطري ولا حتى يهتم لذلك. المهم أن أؤدي وظيفتي على أكمل وجه. أما ما لا يعلمونه أنني فعلت ما أفعل ليس انتظارًا لتلميحاتهما. بل لأنني كُنتُ مقتنعًا تمامًا بما أقول.

حدثتُ جمهوري عن الخوارج، عن دورهم في محاولة تفتيت عضد الجسد الإسلامي أكثر فأكثر. حكيتُ لهم الفتنة الكُبرى، وحدثتهم عن الفتنة الأخرى القادمة. لأنني كُنتُ موقنًا بما في نفوسهم مثلما أنا مُوقنٌ من نفسي وشرورها. راودتهم أحلامُهم عن نفوسهم فأصغوا لها. لم يُدركوا ماذا يعني إسقاط سُلطة الدولة مهما بدت ظالمة. لم يُدركوا أنهم يبالغون في تقدير أنفسهم. لا ولم يعلموا أنهم بعد الوحدة والصمود أمام ما بدا لهم الهدف الأسمى وتحقيق رحيل الطاغوت، سينقسمون أمام توافه الأمور، مثلما كانوا يفعلون قبل الثورة. سيبحثون عن الغنائم ليتقاسمونها، تاركين الرُماة يعاودون الكرار. وقتئذ لن يصمدوا ولن يفيقوا. هُم ليسوا المسلمين الأوائل ولم يعُد بينهم النبي صلى الله عليه وسلم ليرشدهم إلى الحق. سُنته وقرآن الله موجودان بينهم، بكل تأكيد، ولكنهما مهجوران. ومن هجرهما سيهجره الحق ويزيغ في أوهام الأباطيل. اسألوني قبل أن تُقبلوا على ما لا طاقة لكم به. أسألوا الشيخ الصامد الواثق أمام الناس والمُتداعي من داخله، يبحث عن نفسه فلا يجدها. أيبحث عنها عند عيني أخيه المُراقبتين، أم في كهف عشيقته السابقة، أم في قلب زوجته الحالية، أم في ضحكات ذرّيته البريئة؟!

في تلك الأيام العصيبة، كان خط سيري مُحددًا وسط البرد القارص. بين الأستوديو حيثُ أُطلق كُل حِبالي المفكوكة، والمنزل الفخيم بالتجمّع الخامس حيثُ أسكن. مُستترًا مُحتميًا من غضبهم الوحشي خلف الأسوار المؤمنة وكاميرات المُراقبة وأجهزة الإنذار وطاقم الحرس المُدرب.

تابعتُ الأحداث المُتلاحقة على القنوات المتنوعة، بل وتابعتُ إعادة برنامجي على عكس عادتي، تابعت سريعًا وجهي الوقور المُلتحي وأوردتي المُحتقنة وعيني الباكيتين، فشعرتُ أنها من أكثر لحظاتي صدقًا.

تحمستُ أن تهدأ الأمور بعد الخطاب الثاني. قبل أن تنهار أحلامي كلها بالغباء الذي تمثل في إطلاق الجِمال على المتظاهرين. وعندما جاء التنحي بأفراحه وليالي ملاحه، لم يسعِد شخص واحد في منزلنا، ولم نحزن. ولكننا فقط تسلّحنا بترقّب وحذر لا نهائي. ورُعب من المُستقبل الغامض، بعدما أزيلت كل شبكات أمانه.

هاتفتُ والدي فوجدتُ صوته سعيدًا بالانجاز. فَرِح العجوز برحيل الطاغوت ولم يدر أن مصر هي بلاد كل الطواغيت. وعندما تلاقينا في المنزل القديم بالفلكي، وسط الأجواء المنتشية الباكية، قال بحماس لم أره يُنير وجهه منذ فترة بعيدة:

-كده بقى نقدر نبني البلد على نضافة .. المهم التطهير في أسرع وقت. الظلم هيطلع من الناس أسوأ ما فيهم زي ما عمل قبل كده.

أصابتني كلماته في مقتل. لم أرد، فهو يعلم «التخاريف» التي قُلتها في برنامجي. نظرتُ له مُقاومًا الشفقة التي تُحاول أن تقفز من عيني.

سرنا بالسيارة في بطء شنيع وسط الكتل البشرية اللانهائية. لفظت شوارع مصر كُل شعبها الليلة. يحتفلون بالأعلام ويرقصون ويغنّون. تتحدث يا (صفي الدين) من نظرتك الجامعية الفوقية. رغم احتكاكك العنيف بالمُجتمع وعملك كجرَّاح تشُق بطون الناس لإخراج عِلاتهم. لم ولن تستطيع فهم عِلّتهم هذه المرة. شقّ البطن هذه المرة لن يؤدي إلا إلى قتل المريض، فالورم مُنتشر بكل الجسد. يستحيل فصله. حتى العلاج الكيماوي لن يُفلح. طبيعة الناس تحوّرت وتشوَّهت يا أبي. لا تبديل ولا إصلاح بعدما جرى ما جرى. إلا بطريقة واحدة ناجعة، هي العودة للدين الحق. تلك العودة لا يُمكن جلبها بمُجرد شعارات رومانسية سخيفة.

من خلف زجاج السيارة، تأملتُ الوجوه السعيدة البلهاء، إلى أن اصطدم بصري بوجه يُخيل إلى معرفته. استغرق الأمر مني ثانيتين بدتا مثل دهرين، لأدرك أنني أُحدق في (إبراهيم الشناوي)، صديقي الصدوق القديم، رفيق الصعلكة والصياعة. كان (هيما) يقود السيارة المُجاورة لي، يضحك بينما صوته العميق يعلو مُحادثًا فتاة تبدو كابنته، جالسةً في المقعد الخلفي. التفت رأسه إليّ لا إراديًا، فتعلقت عينانا ببعضها بعضا، لتسري رعدة أُقسم أنني رأيتها في وجهه، مثلما شعرتُ بها في ذاتي. اتصل حبل الوجوم حاملًا آلاف الذكريات بيننا بسرعة الضوء. رأيتُ ابتسامته تهتزّ على شفتيه، بينما يدير رأسه إلى الجالس بجواره. مددتُ جسدي إلى الأمام وبصري إلى العُمق على يميني، لتترك الصواعق الدنيا وتحل في جسدي. كانت السيدة المُحجّبة الجالسة بجواره هي الشبح المُستقبلي لـ(سُمية). لمحت (سُمية) ما لمحه (إبراهيم)، فارتعدت ملامحها ببكاء قادم. بينما تحرق عيناها وعينا (إبراهيم) والفتاة الجالسة في الخلف وجهي ولحيتي.

امتد الأمد إلى أبد الآبدين، أو هكذا بدا لي. قبل أن يشتمنا السائقون بالخلف، مستنكرين.

«يلّا يا عم إنت وهوا .. هزُّوها شوية .. مش ناقصاكم».

ارتفع زئير سيارة (إبراهيم)، لينطلق من جواري ويُسرع داخلًا أقرب شارع جانبي. بينما لا أزال في حالتي الذاهلة الواجمة، في خلفيتي يدور صياح الأولاد واحتفالاتهم بمصر .. ومصر .. ومصر.

«يلّا يا شيخنا بقى ..»

فعلتُ مثلما فعل (إبراهيم) وزوجته (سُمية). دُستُ بنزيني بكل قوة، لعله يحرق الحالة اللعينة التي وضعتني فيها الذكريات والنظرات. دُستُ لعل عجلاتي تفرم شعور الحرج السخيف والقذارة التي اعترتني مُجددًا. علّها تُدهس وتموت، دون جدوى. بقيت الذكريات والشعور والطريق كحقيقة مُرعبة يستحيل تجاوزها.

جاء الموقف ليحلّ لغزًا بحثتُ عن حلّه كثيرًا دون جدوى. أشبه بالتفسيرات الحاذقة لمفتش «إسكتلاند يارد». كان قتلي لـ(سُمية) ولنفسي مُجرد نهاية فصل. ليس لي فقط، بل لكلينا. لِمَ الاندهاش؟ هل كُنت أتصور أن تنتهي حياتها بعدي وتموت بقية روحها مع جسدها إلى الأبد؟ أتكون تصاريف القدر الشطرنجية جزءًا من صدمتي؟ ثورة الفرس الجامحة هددت الطابية المسكينة وقتلتها، فيُقتل الفرس على يد الفيل القادم من آخر اللوحة، في عملية انتحارية يقضي عليه بعدها الوزير. فقط لتكتشف أن القطع الثلاث لم تمُت. فقط تخرج من رقعة، لتدخُل أخرى. الآن أُبصر اللوحة الشطرنجية من

عِلٍ. أرى إعجاب (إبراهيم) الخفي بعشيقتي، خاصة أنهما كانا معرفة، إعجاب لم ألحظه في عنفواني وثقتي وحبي. ثُم بعدما وقعت الواقعة، تقدّم (إبراهيم) إليها، أو ربما علم صديقي بطريقة قدرية ما، لا تخلو من التكتم الشديد على الفضيحة. وبشجاعته المعهودة، ورجولته المُمتزجة بُحبه وغفرانه، فعلها. داوى صديقي الحميم السابق خطيئتي، بينما كُنت تائهًا في عالمي الخاص الجديد، الذي قطعني بطبيعة الحال عنه وعن حياة الصعلكة القديمة. وارى صديقي العزيز سوأتي، بعد أن غسلها وطهّرها. قطع علاقته بي مثلما قطعت علاقتي به. تمّ الأمر في هدوء، خاصةً بعدما انتقلت (سُمية) من شارعي بعيدًا. توارى الفيل النبيل والطابية الجريحة في الظلال. تركوا الفرس وحده، عجوزًا، شائخًا، يبدأ في رصّ قطع رُقعته في غرور، رغم علمه أنه لا يملكها. فلا يملك تحريكها سوى القدر.

هكذا انتهينا، لنلج بداية جديدة.

احتلت الذكريات المشجونة المسجونة كياني طوال أيام. ولم أستطع مجاوبة الفرحين البُلهاء إلا ببسمة مُغتصبة. لم أستطع الاحتفال مع زوجتي بتنحي الطاغوت بطريقتنا الخاصة. للمرة الأولى منذ سنين طوال لم أتجاوب معها. كان جسدي سابحًا خارج النهر، خاويًا. لا يملك من نفسه شيئًا سوى الذكريات والألم. الكثير من الألم.

سريعًا وكما توقّعت. بعد ذهاب سَكرة الثورة. أتت الفكرة، أو بمعنى أدق الفتنة. بدأت المعركة حامية الوطيس بين جميع تيارات الشعب. انقسم الشعب على نفسه آلاف المرات. صار كُل شخص يُعامل نفسه والآخرين كدولة مُنفصلة. كُنتُ أرقُب كُل ذلك بشماتة صافية. اشربوا من نفس الكأس،

التي حملت السم المدسوس في العسل. بينما أطلع على جمهوري في برنامجي، مُستغلًا سقف الحُريات الفوضوي، وانقطاع الاتصال والتوجيهات مع أمن الدولة الخائف المُنهار. ومُستغلًا ذاكرتهم التي صارت أقرب لذاكرة الأسماك، أو هي أسوأ. استدرجتهم. جمحتُ في أفكاري التي أبثها للناس. صرتُ كعروس فقدت مُحركها ودبت فيها روحها الخاصة. شجّعني (زكريا) صديقي على جموحي، طالما يُدرّ على القناة الملايين، وعندما بزغ نجم التيارات الدينية القوية المُنظمة الفاعلة في الشارع. علِمت أن لحظة الاختيار قد أتت. لم تكُن معركة الاستفتاء التي شجّعتهم فيها وخُضتُها مُجرد عِراك على وجود المادة الثانية من عدمها. ولكن كان الأمر بالنسبة لي مسألة بناء مُستقبلي. راهنتُ على حصان القوى الإسلامية الأسود، لأنني رأيت فيها تحقق حلمي القديم. فرض المبادئ الإسلامية الحقّة، بكُل وسيلة وأية وسيلة. كُل شيء مُباح. الديمقراطية وصندوق الانتخاب وسيلة مُناسبة. فخ مُحكم لإسقاط التيارات المدنية المُتغربة، التي لا تفقه شيئًا عن طبيعة مُجتمعها وناسها. يتحدثون عن الخيار الحُر النزيه وكأنهم يتحدثون عن الشعب السويسريّ. بل وكأن ديمقراطيات العالم العريقة هي ديمقراطيات حقة، لا يتم فيها شراء الأصوات بصور أخرى، ولا يتم توجيه الناس إعلاميًا.

هذا شعبك أيها الليبرالي العلماني «المُتغربن»، لن تصل إليه إلا بالأغذية والخدمات. «بالزيت والسُكر» كما يتهكّمون على الإخوان، و«تضليل الناس» كما يتهمون السلفيين ويتهموني على صفحات التواصل الاجتماعي الساخرة، التي نشرت فيديوهاتي العديدة وأنا أصرخ في جمهوري:

«التصويت بنعم واجب شرعي على كُل مُسلم حق. لا تحيدوا عن الحق. لا تتبعوا العلمانيين. لا تسمحوا لهم بمحو هويتنا وانتزاع الشريعة من نصوص حياتنا يا أحبابي.»

ثُم تهكمي الساخر من كُل محاولات التيارات الفاشلة لفرملة القطار الإسلامي، محاولاتهم العابثة في أحداث إبريل ومحمد محمود ثُم مجلس الوزراء.

«أخي المُسلم الحبيب. التصويت للمُرشح الإسلامي واجب شرعي يحتّمه علينا المنطق الإيماني.»

هكذا، صمدتُ في كُل المعارك، من برلمان إلى شورى إلى رئاسة. اصطففتُ مع إخواني –مع العسكر ثُم ضدهم- في انتظار لحظة التتويج. مهما كان الثمن من سخرية وتهديدات وشتائم. دعمتُ الجواد الإسلامي الأصيل، بحضوري المُدعم للمؤتمرات ومالي وكلماتي المُحرضة لنُصرة تيار الإسلام عبر القناة. استرخصتُ كُل نفيس في سبيل حُلم الدولة الإسلامية الرشيدة، المُنطلقة من قلب مصر، لتصل إلى العالم.

قال خصومنا: تُجّار دين، بِعتُم الدماء من أجل الكراسي. فقط لأن الفرصة لم تُتح لهم ليكونوا مكاننا. لا توجد دولة في العالم لم يتم بناؤها على الدماء والضحايا. مات العهد القديم الورديّ، مات عُمر بن الخطاب وانتهى نسله بعُمر بن عبد العزيز. انتهت المثاليات ولم يبق سوى الدم. سلوا عبد الناصر الذي تسجدون له، سلوا الخلفاء الأمويين والعباسيين. سلوا محمد علي، مؤسس مصر الحديثة، على رفات عُمر مكرم والثوَّار.

ينهون عن الأفعال ويأتون بمثلها. ثُم يتهموننا بالازدواجية. ولكن حقيقة الحقيقة ليس إلا هذا: نحنُ بشر. جميعنا ازدواجيون. كُلٌ على طريقته الخاصة. وعندما يصير الوضع كذلك. تنعدم كُل المبادئ الحاكمة. لا يبقى ولا يُخلد سوى الهدف النهائي. حسنات الخواتيم سُتذهب سيئات البدايات بمشيئة اللّٰه وأمره.

كُنتُ أعلم أن هدفنا هو الأسمى. لذا كُنتُ على يقين أننا سننتصر.

١١

بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية وقهر مُرشح الإسلام للطاغوت الصغير الذي كاد ينقض على الحُلم ويُجهز عليه، بتصريحاته العنيفة ضد الإسلاميين، وادّعائه بتمثيل الدولة المدنية جورًا. بالتحديد في وقفة عيد الفِطر المُبارك، عاد (عمرو). بُعث الأخ الأصغر من تجميده الاختياري الإجباري في الولايات المُتحدة. كان قد هاتف والدي في ليلة السابع والعشرين القدريّة، ليُخبره بمجيئه الذي فاجئنا بالفعل. فمنذ سافر إلى الولايات في عام ٩٦. لم ينزل إلى مصر لزيارتنا سوى ثلاث مرات. كُلها كانت قبل عصر الانفتاح الإلكتروني. وكانت تلك النقطة بالذات تثير غضب أبي العميق، عندما يُمس الوتر بعد مُهاتفات (عمرو). وأنا أعلم عن أبي تلك الغضبة المخصوصة له على أخي الأصغر، هي غضبة حُزن وحُب تحمل من العتاب قدر ما تحمل من التعذير بالضبط. أراك يا (صفي الدين)، تخلق لولدك الأصغر ألف عُذر، لا تبوح بحجج أبدًا. كل ذلك كان يكمن في داخل القلب الأبوي، الذي اجتهدتُ كثيرًا لفهم الكثير منه، ووقف كثيرٌ آخر أمامي مُغلقًا يُعجز كُل مُحترفي قراءة القلوب.

ولِم لا وقد مستني -في أحيان أقل- نفحات قلبك الغامض، عندما ترى كُل ذنوبي وأخطائي وتناقضاتي، فتغضب بنبرة أقل عصبية بينما في داخلك تخلُق لي ألف عُذر. وأنا أعلم أن نصف أعذارك إن لم يكن كلها، كانت لأنني الابن الذي جلب الأحفاد. مصدر بهجتك الوحيدة الذي استمر قبل وبعد الثورة.

عاد (عمرو) مع أغاني العيد البهيجة. والألوان الزاهية التي غالبًا ما تكون مُبتذلة. والأطفال ببهجتهم التي تُمثل العيد الحقيقي. هُم الصِدق الوحيد وسط الأكاذيب.

في النهار الحار، أقبل علينا الأخ والابن الغريب، على خلفية هدير الهمهمات المُستقبلة والمُودعة والمُنتظرة، وعلى خلفية خوائنا المُنتظر. أتى بحقيبة متوسطة تنُم عن زيارة قصيرة حَذرة ووداع جديد قريب.

رغم تواصلنا الشحيح عبر (سكايب). ورُغم ملامحه المألوفة جدًا. بدا الشخص المُبتسم الماثل أمامنا كشبح شخص كُنا نعرفه. ثُم فجأة ماتت الذاكرة عنه إلا من بعض الملامح الرئيسية. التي تسمح للروح بربط الشخص الجديد بذاته القديمة. بالنسبة لي على الأقل، بدا (عمرو) شديد الأمريكية. كأنّما أذاب اختلاطه بهم حِدّة قسماته ومخارج عاميته المصرية. بالطبع، لم يمنعنا شعورنا بغرابته أن أهرع نحوه بوقار مُتلهف يناسبني، مثلما هرع نحوي بحيوية تناسُبه. احتضنا بعضنا طويلًا، ووجدُت عينيّ تذرفان دمعًا لم أعلم متى هطل. أما هو فلم يتأثر. ظل مُبتسمًا واجمًا مُرددًا: وحشتني يا أحمد .. وحشتوني قوي.

ثُم تلقفه أبي سريعًا. ظَهْر (عمرو) أمامي، وعلى كتفه ترتاح رأس أبي كما لم ترتح من قبل. شعرتُ كأن الرجُل قد شاخ فجأة. تقدم به العُمر ألف عام، عندما ارتاحت ملامحه العجوز المُجهدة من حِمل السنين وألم الفقد والتعلُق بشماعات الذكريات ولهيب الحنين.

-ازيك يا بابا.

-الحمد لله .. الحمد لله.

كرّرها الأب بصوتٍ مهزوز، كأنما يُردد ابتهالا ما. وفي طريقنا إلى السيارة، توقفتُ لالتقاط بعض الصور مع جمهوري الأثير. ترياقي المُسكن للنار المُحتدمة داخلي. الدليل الوحيد بعد أولادي، أنني تركتُ في هذه الدُنيا الحقيرة إرثًا. لم ينتظرني والدي وعمرو. وإنما استبقا إلى السيارة. تدور حولهما هالات مُهيبة من المشاعر. منها ما هو مُرتبط بالمطار. فهو مثل محطة القطار، لا يحمل سوى شحنات شجن هائلة. إذ يملك المكان طاقات نفسية بالغة الشِدة والنقاء. يكفي وهجها لإنارة بلاد العالم كلها. راقبتهما بعينين خاطفتين ملهوفتين. بينما أُنهي صوري التذكارية مع جمهوري الحبيب. الابن الذي يخطو مثل أب والأب الذي يسير على خطا الابن مثل ابن. والأخ الأكبر لا يلبث أن يهرع في إثرهما دامعًا. عله يلحق بنور الموكب المهيب.

كما هي العادة في أحاديث المصريين في هذه الفترة. انصبّ الحوار كله على السياسة وسنينها. في السيارة التي كُنتُ أقودها، احتد أبي:

-لو كان مرشحو الثورة اتحدوا .. ماكناش وصلنا للي وصلنا له ده..

فتحمّس أخي:

-المهم إن الفلول سقطوا. الشعب برضه أثبت إنه واعي وفاهم. نظريًا لو حسبناها هنلاقي إن مرشحي الثورة واخدين في الجولة الأولى ما يقرب من سبعين في الميّة من الأصوات. بس نعمل إيه بقى في الغباء السياسي وتفضيل الذات.

كدتُ أسمع همس الابتسامة في كلمات أبي:

-بس كويس والله إنك متابع الأمور بالتفاصيل دي يا عمور.

فضحك عمرو:

-ماتنساش إن الفيس بوك بالذات وصل العالم كله ببعضه. خاصة من حيث ردود الأفعال.

وأضاف ضاحكًا:

-الفيس بوك اللي بيتشتم فيه ابنك الشيخ يوميًا!

ضحكا فضحكتُ معهما على سبيل المُجاملة ثُم قلتُ:

-يا سيدي .. خليهم يتسلوا.

فتحمس أبي بالهذر:

-شُفت يا واد يا عمرو .. أول ما بيغلب معايا يقوم مطلع لي وش الفلول ده على طول.

نظرتُ أمامي حيثُ التكدّس المروري، والسيارات العابرة عكس الاتجاه، والتكاتك الشبيهة بالخنافس، تظهر فجأة من أي مكان، لتخترق الزحام وتحتك ببعض السيارات، وتُثير الإزعاج بأغانيها الشهوانية المُقرفة، والباعة الصغار الجائلين والمنقبات الشحاذات. وقلتُ:

-أهو أحسن من اللي عايشين الوهم.

ثُم أشرتُ للمشهد العبثي أمامي. مُضيفًا:

-قولوا لي يا جماعة الخير .. إيه اللي ممكن يصلح المشهد اللي إنتم شايفينه ده إلا حاكم قوي يطبق الشريعة كما أنزلت، وبتدعمه جماعة لها قوة نافذة في الشارع؟

يحتد (عمرو):

-يا عمي إحنا مش في قاعدين في برنامجك علشان تاكل بعقلنا حلاوة بالكلمتين دول. شريعة إيه بس ما تصلي على النبي! هتأكل الجعان شريعة وتدّي المحتاج شريعة وتعالج المريض بالشريعة وتعلّم الجاهل بالشريعة؟! الشريعة كلمة فضفاضة جدًا بتستغلوها إنتو كويس.

-الحقيقة يا عمرو إن عدم الرغبة في إقامة الحدود هو الجزء الغاطس من كلام اللي زيك. دي تلاكيك عاملة زي تلاكيك الطالب الفاشل اللي مش عايز يذاكر وبيتحجج إن المنهج صعب، والامتحان هيجي من برّه الكتاب المُقرر.

فيُجيبني بحسرة لاذعة:

-آه لو تشوف البلاد برّه بيعملوا إيه. بيعملوا شريعتك دي بس بطريقتهم الخاصة.

تاني يا عمرو .. هترجع تهرب تاني من هنا وتقول لي برّه. ماشي يا عمرو.. أنا قلت خلّيني ساكت من الأول أحسن.

قُدت السيارة بمهارة رغم تركيزي التام وانفعالي مع حديثه، والعرق الذي أغرق قميصي.

فضحك بتهكم مرير:

-يا ريتك سكت..يا ريتكم سكتم. أدينا شايفين على الواقع كلامكم وصلنا لإيه!

كُنت على وشك الصراخ بوجهه، وكدتُ أن أخبط السيارة أمامي في غِمرة الغضب والزحام الكريه. إلا أن أبي الذي كان صامتًا يُتابع المُبارزة الكلامية غير المُجدية تدخل قائلًا:

-خلاص يا ولاد .. يلعن أبو السياسة اللي هتبوظ لمتنا .. لا إله الله إلا الله.

أخيرًا وجدنا ما اتفق كلانا عليه: مُحمد رسول الله.

عُدنا إلى بيت (الفلكي) الحميم. وعلى عكس البشر في أفعالهم بعد الانفعال. كُنتُ أُتابع (عمرو) بعينين لا تغفلان. كأنما أُحاول رد نظراته الدائمة المُراقبة التي تحرق ظهري في غيابه. وقد لاحظ ذلك أكثر من مرة، واندهش منه.

لكنه آثر الصمت ولم يُعلق مثلما كان يفعل دومًا. كانت أسرتنا الصغيرة في استقباله. راقبته وهو يبتسم مُجاملًا لدُرتي المُنقبة، شعرتُ بنوع من الغيرة السخيفة رغم نظراته الباردة لها ولي. راقبتُ احتضانه لـ(عمرو) ابني ومُحاولته الفاشلة للانسجام معه. راقبتُ حنانه الفاتر لابنتي المُحجبة (أسماء)، ومُداعبته الخاوية لآخر العنقود (هُدى). ولم يكن ذلك بجديد عليه، فقد كان طوال حياتنا معًا بذات السِمة. صامتا، انفعالاته بطيئة، بارد، ضعيف الحُجة في الأحاديث العامة، يبدو كسولًا على الرغم من تفوقه العلمي. كأنما هو آلة قُدّت من أجل مُهمة واحدة، العِلم.

لم أستطع التحمُس بشكل جدّي في زيارات وأحاديث الأيام الأربعة التالية. اقتبستُ برودة أخي وتابعتُها بفتور لا يخلو من اهتمام مُصطنع. خاصة عندما سأله أبي ليلة رحيله مع رحيل العيد:

-قولي يا عمور .. إنت مش ناوي تستقر وتفرحنا بيك بقى؟

بعدما جلس جواره، قالها (صفي الدين) باهتمامه دافئ أعشقه. فأجابه أخي ببروده التقليدي، والذي لم يخل من ارتجاف مُتوتر بشفتيه وتجمد لجسده:

-ربنا يسهل يا بابا.

طبطب أبي على ظهره قائلًا:

-أهم حاجة يا ابني .. أرجوك وبقولها لك تاني .. أرجوك اوعى تخلي الحياة والشغل ينسيك. هتيجي عليك فترة بعد ما العمر يأزف .. هتندم فيها.

بجموده:

-الأعمار بيد الله يا بابا.

-أنا بس حبيت أنبهك .. إنت ما بقيتش صغير وأنا عايز أطمن عليك.

تدخلتُ:

-ومهم علشان يحفظ نفسه من الفِتن.

أثار دهشتي تعبير عابر لمحته على وجهه، كأنما يسخر من كلامي أو ربما يهزأ بكلمات أبي الدافئة. كظمتُ غيظي مع أنفاسي. بينما يرد:

-أكيد .. أكيد.

في اليوم التالي كان وداعه مع أبي دافئًا حزينًا، ووداعه معي بالغ البرود، مهما كثُرت طبطباتي وكلماتي:

-توصل بالسلامة، خد بالك من نفسك.

أو كلماته:

-أكيد إن شاء الله.. خد بالك من بابا.

في نفس العام الذي ألقى أبي فيه مواعظه على أخي. سافر الرجُل لحج البيت، الذي استطاع إليه السبيل أخيرًا، كي يبحث حوائجه لدى ملك الملكوت.

وفي نفس التوقيت تقريبًا، هوت عليّ الصدمة المُزلزلة، القادمة من شمال الأرض الغربي.

١٢

فجأة يحدث الانسحاب. ينتهي بخرُ الكابوس الأحمر. يموت الألم كما لو لم يولد قط. ويعود جسدي إليّ. أتحرّك بجسدي على الأرض الخشبية المُوسدة بالسجاد، فيئز الخشب تحت ثِقلي. وأبصر سقف منزل (الفلكي) المُتوّج بالنجفة المُذهبة الكبيرة. فترتبك خواطري مُجددًا وأهم بجسدي مُتسائلًا بغباء عما حدث، ويحدث لي. كأنما سقطتُ في هوَّة سحيقة واقعة في أعمق أعماقي. هوَّة تخطت حدود العقل، اخترقته وعبرته إلى فخ أبشع من ألف كابوس. الذكرياتُ كوابيسٌ لا ترحم. أعود لتساؤلاتي السخيفة المُملة: كيف أتيت إلى هُنا؟ ولكن يُقابلني سورُ النسيانِ العظيمِ المُمتد إلى آخر حدود العقل. كأنما ذاكرتي هي الأخرى قد «تَسلفنت» وسوَّرت نفسَها بلحيةٍ لا تُسمن ولا تُغني من فهم.

أقفُ فيتحدّد موقعي من الصالة. كُنتُ جوار السُفرة، في مُقابل «الكالسون» الكبير الحاضن للمرآة الضخمة. والذي يقع بجواره باب الشقة. هل ممُكن؟ أيمكنني ببساطة تحريك بضعة عضلات والوقوف أمام الباب وإدارة المقبض ومن ثم تجاوزه وإغلاقه، نزولًا عبر السلالم القصيرة؟ لِم لا أفعل ببساطة؟ الأعمالُ بالنيات وأنا أنوي الخروج. فلِم لا يتحقق لي ذلك؟ ما الذي يجذبني ببساطة للبقاء في الشقة الصامتة؟ والدي نائم بالداخل. ولا أذكر أنني كنُتُ

أنوي القدوم هُنا لمُهمة ما. ماذا عليّ فعله؟ أأنا هُنا الآن فعلًا؟ أم هو حلمٌ عميقٌ سأستيقظ منه في النهاية؟

فجأة، أشعر بتنميل الخوف في قلبي وأطرافي. هُناك وجودٌ آخر معي في الشقة. ليس وجود أبي الغافي. إنه وجودٌ غريبٌ. تمَس هالته الكلب الراقد في مؤخرة رأسي، فينبح تجاهه بأقصى ما يستطيع. تتراجع أذناه إلى الخلف ويكشر عن أنيابه بخوف وغضب. ما أستطيع أن أؤكده أنني بصدد كيانين في هذا المكان. ولكن أين يُمكنهما الاختباء في أشعة الشمس الفاضحة؟

بقلبٍ خافق، وأطراف مُرتجفة، أهرع باحثًا في كل أشبار الشقة. تتبخر الذكريات كلها ولا يبقى إلا كلبي والكيانان المُتربّصان. ندور حول بعضنا بعضا باحثين كأطفال يلعبون «استغمّاية». بحثتُ في الصالة تحت السُفرة، وخلف الأنتريه، وفي الصالون والمطبخ والحمام. لن أبحث في غرفة أبي، فقد كُنتُ هُناك وآثرتُ ألا أزعجه. أقفُ في السرداب الطويل، يستنشق لهاثي عبق سجادته، أمام الحجرتين المُتجاورتين. حجرتي وحُجرة أخي. أتوجه بالغريزة نحو حُجرة أخي، وكلبي يكاد يسمع ويُميّز أصوات اللهاث المُختبئة خلف الباب. تلامس أناملي المقبض المعدني، فأنتفض كما كان يحدث لي أحيانًا مع لمس المعادن. إذن أنا مشحون. الكهرباء الاستاتيكية تملأ جسدي. كما كُنتُ أفعل صغيرًا، أُدخل يدي بالكامل في كُم قميصي بعدما فككتُ زره. وأمسك بالمقبض تحت حماية قميصي القطنيّ. أُدير المقبض الثقيل دومًا لأسفل، وأدفع الباب بقوة. لتنفجر فيّ قنبلة الضياء، تمتصني ليصير جسدي عدمًا، وتتجسد الذكريات –مُجددًا الذكريات اللعينة- لتكون هي الواقع.

كُنا صباحًا. والجو الخريفي ذو الشجون، مُحيط. أشبه بذكرى حزينة تأبى المرور. وكعادتي في المواسم المُناسبة، كُنتُ جالسًا في حديقة منزلي في تلك الساعة من الصباح، أدفع الهواء الصحو إلى صدري، لأُنعشه ببرودة لذيذة، مُعطرة بأشجار النعناع والبُرتقال التي زرعتها في أطراف حديقتي الواسعة. ارتشفتُ شايي ببطء، تاركًا دفئه يناقض البرد المُحيط على جلدي، فيثير فيه قشعريرة مُحببة. وتلقفتُ جُرنال (المصري اليوم)، أُتابع خلاله أبرز المستجدّات على الساحة السياسية. هُراء المائة يوم وكشف الحساب ما زال مُستمرًا. الإعلام العلمانيّ يشنّ هجماته الشرسة على الرئيس المسكين، الذي تسلّم بلادًا مُنتهية الصلاحية. كإدارة ومؤسسات وشعب. الكُلُ يسنُّ سواطيره على الرجل الذي ما زال يبحث مثله مثل غيره عن مفاتيح البلاد. ما زال يُحاول تحديد أولوياته وسط مناخ عدائيّ مُتحفز. ليكتشف أن كُل خطأ في البلاد له أولوية الإصلاح. فيثير ذلك ارتباكه أكثر، وبالتالي يأتي البطء في اتخاذ القرار، وبالتالي يأتي المزيد من الهجوم. لا أحد يتفهم ولا يُمكن أن تُحسن النية في الناس. انتهى زمن النوايا الحُسنة. أتت الثورة ومعها الطموحات والآمال كُلها. وتصور أغلب الشعب المُنهك الجاهل أن موسم حصاد المكاسب المادية قد أتى. طلبوا أجورا أعلى وإجازات أكثر، مقتحمين الإدارات والمكاتب بأوردة مُنتفخة مُهددة. استمتع الجميع بُمخالفة القانون والاستهزاء به. ساخرين من الداخلية التي نالها شعور الزوج الذي أصيب بعجز جنسيّ مفاجئ، لم يعد قادرًا على مضاجعة زوجته وإمتاعها. فسخرت الزوجة الوقحة منه ومن عجزه، آتيةً برجال آخرين يُمتعونها أمامه في سريره!

أُصيب الجميع بالسُعار المُفاجئ. والنُخب المُتحذلقة تظهر على البرامج الحوارية تُثير الشعب أكثر وأكثر. بالإضافة لهرائهم في اللجنة التأسيسية، التي أصبحت شغل التيارات المدنية الشاغل. مشكلتهم ليس في إخراج دستور يليق بمصر كما يقولون. وإنما مشكلتهم هي الإسلاميون. يتمحّكون في مسألة تمثيل التيارات الفاعلة في المجتمع والشخصيات العامة. فقط ليُعطلوا السفينة قدر استطاعتهم، بل يستمتعون بإغراقها طالما أن الرئيس وحزبه الحاكم إسلاميون!

وسط كُل تلك الفوضى، تأتي أنت يا (عمرو). تنشر لك الجريدة حوارًا كبيرة ملأ الصفحة الضخمة. تحت عنوان: «عُلماؤنا في الخارج: دكتور (عمرو شومان) عالم الفيزياء الجزيئية..سيِّد الذرّاتِ.»

لم أكن أعلم بالتحديد مجال بحثك المهني في الولايات، إلا الآن. كان مجال بحثك قنبلة حقيقية هزّت كياني. حتى إنني ظللتُ أُحدّق في كلمات ردودك وشرح مجال أبحاثك طويلًا، علّني أقرأ شيئًا آخر غير ما كُتب.

بذهول، أدرتُ بصري مُتأملًا الصفحة، بكُل ما بها من مُفاجآت وآراء أخرى تخصّ رؤيتك لمستقبل مصر بعد الثورة، ورأيك في مشروع النهضة وتشكيل الجمعية التأسيسية، إلخ. وزُينت الصفحة العملاقة بصورتك في أثناء الحوار. تجلس خلف مكتبك، أمام شعار معهد ماستوشستس الضخم البارز من الجدار. بنفس سمت أُمّك الجذاب الصامت. وملامحك المصرية الأصيلة ذات الأنف المُستقيم المُتوسط والعينين اللامعتين، وشِفاهك المرسومة وطابع الحُسن المغروس في ذقنك. مُشيرًا بذراعيك في حماس هادئ كأنما تُراقص أنثى من الهواء.

أفقدتني كلماتك النُطق. أيَّة أبحاث إعجازية تلك التي تعمل عليها ورفاقك؟ أي شيطان يكمن خلف تفاصيل وجهك المَرِح المُصمت؟!

شعرتُ بنار الجنون تكاد تحرقني. أية صفاقة تلك؟! ما الذي تُحاولون إثباته أيها الأمريكان مع أخي الشيطان، ابن أمي وأبي؟!

كان أبي قد سافر للحج. ودُرتي لا تزال نائمة. سمعتُ صوت دربكة خافتة في الداخل. فالتفتُ ونيراني الخريفية تشتعل داخلي، مُدمرةً كُل أشجار بُرتقالي. كان (عمرو) ابني قادمًا، يبدو جاهزًا للخروج بزيّه المدرسي. ووجهه الشبيه بوجه أمه الصبوح، لا تزال تبدو عليه ركلات النوم. أتاني وقبّلني قائلًا:

-السلام عليكم .. صباح الخير يا بابا.

جاوبته بآلية، مُبتسمًا قدر استطاعتي:

-وعليكم السلام ورحمة الله .. صباح النور يا (عمور).

لمعت عينا ابني وتجّهم وجهه، وقال مُلاحظًا:

-مالك يا بابا؟ وشك شكله متضايق.

تملك نفس ألمعية وصمت عمّك الشيطان يا (عمرو)، وسَّعتُ ابتسامتي الكاذبة:

-مفيش حاجة يا حبيبي .. شوية مشاكل بس في الشغل.

-طيب الحمد لله.

-إخواتك فين؟ أسماء وهُدى نزلوا؟

-لا لسّه. الباص بتاعهم بيتأخّر شوية عن الباص بتاعي. أول ما يخلصوا فطار ويجهزوا هيجوا يسلّموا على حضرتك.

طبطبت عليه، سارحًا في (عمرو) الآخر. فقال الأول:

-همشي أنا بقى علشان ما أتأخرش. زمان الباص على وصول.

قبلتُ جبهته الواسعة الناعمة قائلًا:

-في رعاية الله يا حبيبي. ماتنساش تبقى تراجع على سورة البقرة النهارده علشان أراجعها معاك قبل ما أنزل.

فابتسم الولد وهو يلتفت:

-أكيد إن شاء الله.

أسرع الخُطى حول الحديقة للبوابة الأمامية للفيلا. ولم يكد يختفي عن أنظاري حتى أتت أختاه. أقبلتا كملاكين مُحجّبين رقيقين. كانت (أسماء) تُشبهني شكلًا فتمنيت من الله ألا تشبهني مضمونًا. و(هُدى) كانت أشبه بخالها الطبيب. سلمتا عليّ وقبلتاني. بشقاوتها المُعتادة التي كانت لا تزال مكسوّة بغشاوة النوم، قالت (هُدى):

-بابا مش ده عمو (عمرو)؟

فأطلقتُ ضحكة آلية غريبة:

-أيوه يا هُدهُد. عمِّك بقى راجل مشهور الوقتي .. يلا إنتي وأختك علشان المدرسة. بطّلوا لكاعة.

فقالت العسل باسمةً:

-لسّه يا بابا إنت مستعجل على إيه .. بتطفّشنا ليه كده!

ضحكت أختها (أسماء) بخجلها الذي أعشقه. فقلتُ لها مُتضاحكًا:

-بطّلي لماضة بقى يا بِت. هتخلينا ناخد سيئات على الصبح كده! يلا بدل ما أزود مقرر القرآن عليكي النهارده!

-خلاص خلاص .. على إيه يعني!

قالتها بينما تجُرها (أسماء) من يدها ضاحكةً قائلةً:

-سلام يا بابا.

-خلاص يا (سما) سيبي إيدي بقى. هتتخلع.

ابتسمتُ لهما مودعًا، ثُم سريعًا عُدتُ إلى وجومي وانفعالي بمُجرد ابتعاد وجهيهما عني. ظللتُ سارحًا بعيني في وجه (عمرو) المُطل عليّ من الجرنال. المصري المُسلم، الذي باع روحه للشيطان في سبيل الهراء الذي يُسميه علمًا! تخلَّق بخلائق رفاقه الأمريكان، فاكتنف الغرور روحه، وظن أنه إله مُخلّد، سيتمكن من تكليم الحجر وأمر الأشياء أن تكون فتكُون. أي شيطان يسكنك يا (عمرو)؟ أهو نفس الشيطان الذي سكنني ولم يخرُج؟ لا أعتقد. إن شيطانك لأقوى، وإنك لهالكٌ إن ظننت أن النجاح هو أن تفعل ما تفعل. بأضعف الإيمان،

إن شيطاني ليس إلا نفس الشيطان الرابض في ظلمات الناس. وليس إبليسًا جهنميًا يحتل القلب فيفرعن صاحبه مثلما فعلتَ! لقد بنيت بروجك المُشيدة لعلك تتسلقها إلى الله، ثُم وقفتَ في قمتها لتقول من عِل: أنا ربكُم الأعلى.

هيا، أرمقني الآن من خلف السُحب والسماوات كما كُنت تفعل دومًا. حدِّق في أفكاري بعينيّ أمك الجذابتين المُخترقتين، اللتين تتهماني بأنني لا ولم ولن أفهمك. وتصماني بالحقد على نجاحك العلميّ. فأنت لم تربط نفسك بالبشر ولم تنغمس في دفئهم وخطاياهم مثلما فعلتُ. وبالتالي كان لا بدّ لك من النجاح العلمي في النهاية. ولكن من قال لك إنني فشلتُ؟! أوليس لكُل امرئٍ طريقته في النجاح؟ أولستُ الآن أملك سُلطانًا واسعًا على وِجدان جمهوري؟ وسلطانًا أرضيًا من زوجة صالحة ومال وبنين؟

مع نهاية اليوم، أصبحتَ يا أخي حديث الساعة في البرامج الحوارية. العالِم المصري الفذ. الذي أثبت أن المستحيل مُمكن وأن المُستحيل ليس مصريًا. أثارت أبحاثك الخيال مثلما أثارت الجدل عما يمكن أن يصل إليه العلم.

في اليوم التالي، أي قبل عيد الأضحى بيومين، هاتفني والدك سعيدًا فَرِحًا، فقد وصلته الأنباء من الأقرباء وكلّمته أنت شخصيًا لتُخبره، لتستمتع بنبراته السعيدة الفخور بِك. قال لي بنفس النبرات:

-ابقى كلم أخوك بارك له.

كلمتُك يا أخي وباركتُ لكَ على ما وصلتَ إليه، بأقصى نبراتي وجومًا. فكان ردُكَ البارد الهادئ الواجم:

-الله يبارك فيك يا أحمد.

-عقبال ما نفرح بيك بقى علشان تلاقي حد تفرح معاه بنجاحك ده.

شعرتُ بالبرود الذي صقلته في حروفي قبل أن تشعر به يا (عمرو). قُلت باقتضاب بدا لي حاملًا سخرية ما:

-دعواتك يا شيخنا.

-ربنا يوفقك .. ويهديك.

هكذا أنهينا مُكالمتنا الصباحية. لأطُل على جمهوري في برنامجي المسائيّ، قائلًا:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، مُحمد عليه أفضل الصلوات والأنبياء والتابعين. أما بعد ..

موضوعنا الأول -أحبائي في الله- اليوم عن العِلم وعلاقته الشائكة بالدين.

نما لعلمي كما وصل لجميع المُتابعين أمر علمائنا في الخارج وإنجازاتهم، أمر الكشف الأمريكي الذي يشارك فيه العالم المصري (عمرو شومان) .. أخي، الذي أعلن الآن على الملأ أنني بريء منه إلى يوم الدين.

وأقول –ولله العِلم كله- أن ذلك الكشف الخطير الذي توصّل إليه الأمريكان، والذي يسهم فيه المدعو (عمرو شومان) حرامٌ. إنه الكُفر والإثم المُبين. لا

يُمكنني مُحاباة العالِم المصري لمُجرد صلة الدم بيننا. فأنتم تعلمون أنني لا أخشى في الحق لومة لائم، لا يُمكنني أن أنافقكم لمصلحة الأخ الذي تبرّأت منه.

ينم هذا الكشف أحبائي عن ضلالة الغرب الفاسق في غيّه. أعمى الغرور بصيرتهم فتمادوا. أيحاولون محاكاة قُدرة اللّٰه سُبحانه وتعالى في خلق الأشياء وتكوينها كيفما أراد واتفق؟!

(رفعتُ حِدة لهجتي)

يحاولون التقاط القبس الإلهي الذي أمدّه اللّٰه لنبيه سُليمان عليه أفضل الصلوات والسلام. حاشا لله أن ينجحوا، مثلما فشلوا سابقًا في محاولة خلق واستنساخ البشر. واللّٰهُ غالبٌ على أمره بإذن اللّٰه. يمكرون واللّٰهُ خيرُ الماكرين. وسيعلم الكفرة أي مُنقلب ينقلبون.

(ثُم رفعتُ يدي بالدعوات)

اللهم خذهم أخذة عزيزٍ مُقتدر .. اللهم أنزل عليهم لعنتك بقدر غرورهم وفِسقهم ..

اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السُفهاء منا. آمين يا رب العالمين.»

تدفّقت الدماء في عروقي والدموع في مُقلتي، بينما أعود بعد الفاصل لأخطب في الناس خُطبتي، وأحكي لهم قصة قارون الذي ظن أنه بلغ ما بلغه لعِلمٍ عنده. حكيتُ لهم كيف يكون العِلم طيّعًا في خدمة الدين وتهذيب البشر.

وليس شحن الغرور في نفوس البشر ودفع أحلام الألوهية في عقولهم التي أغواهم الشيطان بها، مثلما فعل معك.

هكذا وبينما كان أبوك الجبان، حاج بيت اللّه الذي لم يفك إحرامه بعد، فخورًا بهرطقتك. أدركتُ أنا مآل ما تحاول الوصول إليه. وكان لدي الشجاعة والجُرأة اللازمة لقول الحَق في وجه غرورك العلمي الأعمى. كفّرتُك يا (عمرو). أخرجتُك عن المِلة يا من كُنت أخي.

في ذات الليلة المُسهدة، عُدتُ إلى المنزل، يُحيطني غشاءٌ سميك لا يتحلل من الخواطر والانفعالات والشجون، التي كست تمثالي بالصمت العميق. وكما العادة، تفهمت عينا دُرتي المعركة الدائرة في صدري. فلم تُحاول إزعاجي، وأبعدت الأولاد عني قدر الإمكان. فقط اكتفت بإعداد العشاء الساخن، الذي أكلتُ منه بضع لُقيمات. وبكفيها الرقيقين تربتان ظهري المحموم قبل المنام. فتبسمتُ لها قدر استطاعتي. وانحنيت أُقبل هامتها وشفتيها قبل أن أُريح ظهري مُحدقًا في السقف.

على أنفاسها النائمة المُنتظمة، وتحت قُبتي جفنيّ المُظلمتين، صارعتُ الأفكار والخواطر والذكريات. رغم غضبتي عليك، نالني الألم المُشفق الذي أحدثته لنفسي عندما أعدمتك يا أخي. رأيتني الأب والأخ الذي يُعاقب ولده بضرباتٍ مُبرحة، ثُم يحرقه الندم والذنب رغم تأكده من صواب ما فعل. ولم تخل تقلبات مضجعي من طعنات عينيك الطفلتين الثابتتين عليّ، مع طعنات السؤال الذي لا جواب له: أتُراني أخطأتُ في حقك؟!

لا وألف لا. إنك شيطانٌ، وقد تماديت حقًا بالغرور والفِسق.

لم أعلم أنني هويت في النوم، إلا في نهاية الرؤيا المُزعجة التي أبصرتُها وذُقتُ رعبها حتى الأذنين. أبصرتُ (عمرو) جالسًا أمام جهاز مُعقد لم أُميّز تفاصيله، تتعامل أنامله مع أزراره بسرعة، ثُم يضغط في النهاية زرًا أحمر. فيُصدر على إثره الجهاز صفيرًا حادًا مُتصلًا. أخيرًا استطعتُ التحرُك بجسدي الذي كان مُتجمدًا مُستنجدًا في نهاية الغرفة، يُراقبه ويحاول منعه بلا حيلة، وأدرتُ رأسي نحو النافذة. لأسمع ضجيجًا عنيفًا يتعالى مُغطيًا على صفير الجهاز. كان الضجيج يبدو قادمًا من السماء المُظلمة ذات الغيوم، التي بدت كما لو كانت أعمدتها تتهاوى، لتقترب بأجرامها نحونا بسرعة مخيفة، في مشهد دفن قلبي في باطن قدمي. أطلقتُ صرخاتٍ متتالية، أضافت نبراتها لفزعي فزعًا جديدًا، قبل أن تهوي السماء علينا، فتنسحق البيوت المُحيطة تحت ثقلها. وصلت الكرة السماوية الهائلة إلى رؤوسنا. والتصقت بسقف الحجرة ففتتها، لتهوي علينا غاشيةً بكامل الظلام.

١٣

يضيع الضياء المُنفجر. يذهب النور الشاهق بعدمه. ويعود جسدي يتكون فأشعر به. يداهمني السأم والإرهاق من هذه الدائرة الجهنمية المُفرغة، من إتيان سيول الذكريات المدرارة، التي جرفت معها قطعًا مني، ثُم اختفائها، مثل طمث شهري مؤلم.

على مِهل، تعود أُحجبة الوعي في التكوُّن. لمسٌ هُنا، اتزانٌ هُناك، سمعٌ هُنا، شمٌ هُناك. وفي النهاية أتى البصرُ، وأخيرًا تتكوّن الصورة.

في قطعة اللمس يمسّني الهواء، وفي الاتزان تضبطني الأرض الفلّينية الغريبة، وفي السمع يأتيني صوت هدير الهواء الهامس مع أنفاسٍ تتردّد بانتظام، كأنها أنفاس نائم -أيكون أبي؟، وفي الشم يأتي نسيم الهواءُ مُحايدًا من أي عبقٍ عطري.

وعندما يأتي البصر مع إحساس نبضات القلب، يكون كُل شيء صادمًا، وبالغ الدهشة!

في البداية كان الظلام، ثُم أتت ومضةُ النور. تُرى أهو الاستيقاظ؟!

عَالِمٌ

١

في البداية، كان العدم. كتلة مُتجانسة بالغة النقاء. مُستقرة تمامًا، أبدية الأبد. ثُم أتى الانفجار العظيم. بآلياته التي لا تزال غامضة، أسست طاقته مشروع الوجود. رُسمت الخُطة، ووُضع الهيكل، وتُرك العُمال يسعون عبر الثقالات ويحملون الطوب والمُسلحات والأسمنت، لإتمام مشروع الكون، الذي انبثقت عنه مشروعات عديدة لا حصر لها من المجرّات والكواكب.

كذلك أنا. إذ أنفجرُ من عدمي السابق لأتوهج وأنشأ الآن. بينما يسعى عُمال العدم المخفيون لملء هيكلي العظمي بكتل اللحم والدُهن. وملء هيكلي العقلي بكُتل الأفكار والإحساس والوجود.

أنا الرقم، الواحد أو الاثنان أو الألف أو المليون، الذي إذا تفكّكت وقسمت على العَدَم، لا أساوي إلا كُتلة المجهول، والذي يخشى العُلماء إجحاف الأبديّة بوصمها به. لمَ يخشى غرورهم الاعتراف؟ يُزين لهم شيطان حسابهم الأمر. كل ذلك حتى لا يعترفوا بمدى جهلهم بالأبديّة؟ أنها ستظل دائمًا مجهولة، لأنها نهاية الحياة الدُنيا. هي خط الأفق. هي الحد الفاصل بين أرض الدنيا وسماء الآخرة.

العدد المقسوم على صفر يساوي موت العدد ولا شيء سوى موته. فالصفر هو عزرائيل الأعداد، سارق أرواحها، المارق بفعلته خلف برزخ مساواة

المُعادلة. وإذا كان الواحد هو أصل الأعداد، فالصفر هو نهايتها.

أنا الواحد الذي ينتظر موته وأبديته المجهولة في قِسمته على الصفر. أنا الذي حقق ويُحقق وسيُحقق كُل طموحاته سريعًا، بينما يأمل في تحقق الحُلم الذي طالما أمله، الموت شابًا.

إن كان للجسد قيمة فيما أمر به، أدور برأسي مُتطلعًا لما حولي. فلا أرى شيئًا. كأنما قد تمت المُهمة ولفظني العدم، ليواجهني وحدي. كأنما أنا كُفءٌ لمواجهة تلك الظلمة التي ما بعدها ظُلمة.

أنتظرُ حدوث شيء، همسة أو لمعة أو حركة. لا يحدث. إذن، سيكون عليّ تخليق عالمي الخاص. أوكلني العدم مُهمة خلق كوني المُنفرد ومنحني ألوهيته. وأنا لا أعلم هل هذا خبر سار أم تعس؟ أهي نهايتي؟ أتُراني اقتربتُ من الصفر الذي طالما حلمتُ به؟ لا أدري. ولكن إن كانت هي النهاية المحتومة وإن كُنتُ قد مُنحتُ أمنية أخيرة بخلق عالم على طريقتي، فلِم لا أبدأ؟

كعادة كُل البدايات، يبدو الأمر عسيرًا جدًا. فلا يوجد مِمن سبقونا أحدٌ قد فعلها واضعًا خبراته في كتاب استرشادي بعنوان: كيف تخلق عالما؟! ولكن لطالما كانت البدايات هي أكبر تحدٍ يواجهني وأعتقد أنه أكبر تحد يواجه أي مخلوق ضعيف مثل الإنسان. وصدق من قال إن الانتهاء من بداية الأمر لا يعني سوى إمكانية تحقيقه. لِم لا أبدأ؟ لِم أتجاهل السعي نحو البداية وأظل أحوم حولها؟ لِم أهرب بهذا الشكل من البداية؟ أستكون مؤلمة إلى ذلك الحد؟ فلأبدأ. فلأوجه كُل الطاقة وكُل الإرادة وكُل الحيرة التي بداخلي إلى ما حولي، سأغيره، وسأقهره.

أوجّه كياني كُله نحو غريمي، صفحة العدم الساكنة حولي كأنها الجبال الراسخة. بكل قوتي أطرق على ظلامها، وكما توقعتُ، لا أسمع طرقًا ولا هديرًا. فقط أشعر في داخلي بأنني أطرق فولاذًا منيعًا.

تزيدني مقاومة العدم الفولاذي صلابة وصلادة. أظهر غريمي كُل ما لديه من جسارة واستبسال، وبالتالي قام دون قصد بنقل قُدراتي إلى المستوى التالي، الأعلى والأقوى. دون وعي حقيقي، أستنفر كياني كله، وأنا أطرق على الظلام المُحيط. هذه المرة يُردد عقلي بوادر استسلام الفولاذ. وأمام كياني المُثابر، تنبعج قطعة من العدم وتلتفّ حول نفسها كأنما تنصهر وتتشكل. عند تلك النُقطة، لا يعود لوعيي أي دور حقيقي، أو هكذا يخُيل لي. كأنما كانت المُشكلة كُلها تكمُن في البداية. أمام كياني المُندهش، يتقشر العَدَم كُله من حولي، ليكشف عن صورة شديدة الزيغ.

تتسلم غريزتي قيادة الدفة، ويبدأ العَمل. أهكذا يُبنى العالم؟ فقط بنيّة طيّبة وإرادة قوية وغريزة سليمة؟ أين المعرفة هُنا؟ أم أنني أجهل أنني أعرف كُل شيء في أعماقي؟ ولِم لا؟ ألا يحمل الإنسان نفخة من روح الله شخصيًا؟ لا بدّ أن ذرات الإبداع والمعرفة قُد نُفخت داخلنا. فقط كُل ما نحتاجُه هو تقشير طبقة البربرية المُتكلسة على أرواحنا وعقولنا.

فجأة، أجدني داخل تلك الصورة الزائغة شديد البهوت. لا أدري كيف اقتربتُ منها دون أن أدرك. ولكن ما قيمة الإدراك هُنا على أية حال؟ بل ما معنى وجودي هُنا أصلًا؟ ومن وأين كُنتُ قبلًا؟!

تتطوّر الأسئلة التي لا إجابة لها. كما تتطوّر الصورة الزائغة الخام. أنا سوبر كمبيوتر يقوم بتخليق ومُعالجة كُل ذرة بكسلية من الصورة. حاسوب لا يعمل سوى بالغريزة اللاواعية. في البداية، تبدو المُعالجة شديدة البطء، كما لو كانت ستستغرق سنوات. ثُم لا تلبث أن تبدأ في التسارُع. المُخ يتعلّم بسرعة، والروح عندما تتطهّر، تتخلّى عن غبائها.

أمام كياني المُنهمك، يُرصف أسفلت الشارع الناعم شديد السواد، وتتحدد علاماته شديدة الوضوح، يُوضع ملاط الرصيف، ترتفع الأشجار الصغيرة اليانعة على جانبي الطريق، تُشيد أعمدة الإضاءة، تُنحت المنازل على الجانبين، فيبدو أغلبها غير مُحدد المعالم، لا يُمكن تذكرها بمُجرد الالتفات عنها. ولكن أبرز طابع لها هو المزج بين شكل العِمارات المصرية الحديثة شديدة القبح في بعض الأدوار وشكل المنازل الفارهة الراقية بـ(أورلاندو) في أدوار أخرى، بل تحمل بعض الأدوار واجهاتٍ زُجاجية عاكسة مثل بعض الأبراج الشاهقة ببوسطن. وتتولد في الأدوار الأرضية بعض البلكونات شديدة المصرية، تحمل حبالها غيارات داخلية وملابس مغسولة، كما تتولد محلات الفول والطعمية والكوا. تجاورها واجهات محلات ملابس وتُحف ومطاعم أمريكية. كأنما قد أصاب حاسوبي عطب ما. ووسط كُل ذلك العبث الذي خلقتُه، والذي انزعجتُ لتشوهه بهذه الشكل، ينشأ بيتان مُتقابلان من وسط سخطي ودهشتي. يتطاول الأول في البُنيان وينُحت من غموض الماضي، ليُبعث منزل (الفلكي) أمامي من برودة بوسطن. العِمارة ذات الثلاثة طوابق، والدهان الأبيض الشاحب المُتقشر، والشبابيك الخضراء التي سحلتها الشمس. ثُم يقابله ارتفاع عِمارة ٢٦ بشارع (ووتربول)، ذات الطراز الفيكتوري القديم المُميز، والمدخل المُسيج بسور حديدي قاتم السواد، مُحافظًا على

كُتل الزرع الأخضر اليانع التي تعتني بها مس (باولا) أرملة الدور الأول. العمارة التي تحتضن شقتي.

يُسقف العالم بنهارٍ أزرق بلا شمس، وسُحُبٍ كثيفة تُناسب جو بوسطن في بواكير الشتاء. حاولتُ خلق نهار أكثر بهجة ولكنني وجدتُ أن الأمر ليس بيدي. أو بمعنى أكثر دقة: لم يعُد بيدي.

بعد اكتمال العالم الذي خلقتهُ، أتجسد أخيرًا. يعود إحساسي بجسدي، حاملًا معه نوعا من الضيق بعودة الجسد، المُتدثر بثقيل الثياب وغطاء رأس، كما لا بدّ أن يفعل في جو كهذا. أنظر إلى كفي المُزرقتين الباردتين، فأصفقهما ببعضهما بعضا، وأحكهما علهما يُشعلان شرارة الحرارة. أضعهما على وجهي، كأنما أتأكد من كامل تجسدي. ثُم أخيرًا أعقدهما أمام صدري المُحصن وأدفنهما في إبطيّ.

بلا وعي، أجدني أدُق الخُطى بقدمي على الشارع المُسفلت الخالي من المارة والسيارات، فأبدو كإله هبط إلى عالمه بعد اكتماله، كي يُراجع تفاصيله النهائية قبل تشغيله. وبلا سبب ظاهر، أنظُر مرتعش القدمين نحو منزل الفلكي على يميني. قبل أن أتجنبه وأتجه يسارًا حيثُ عِمارة (ووتربول). أقفُ على رصيفها، أمام بوابتها الحديدية السوداء اللامعة، وسورها الزرعي المُسوّر بحديد أسود، والحلق المُزخرف حول بوابتها وشبابيكها. وأمسحُ كُل جسدها سريعًا بعينيّ، بينما تحُفني أصوات العصافير المُبكرة. ثُم على مِهل، أبدأ في مسحها جُزء جزءًا، في غسق عالمي البارد الخالي.

المَدخل.

عِند البوابة الحديدية السوداء، يتوقف بصري، ويتوه وسط تشكيلاتها الحلزونية وسيقان اللبلاب المعدنية المُلتفة حول أسياخها التسعة.

على هيكل معدني مُحكم مثل هذه البوابة، بنى الطفل الهادئ الصموت عالمه الداخلي من أحلام جامحة شديدة الهشاشة. لكنه لم يكترث، وعَمِل جاهدًا أن ينقلها إلى واقعه. يستطيع القول إن ذلك قد كلّفه الكثير، مثل عُزلة الناس وعدم استطاعته الاندماج معهم. يستطيع قول ذلك كمحاولة إنسانية مشروعة للوم العالم الذي لا يفهمه. ولكنه يعلم أن ذلك بعيد عن الصواب.

علم (عمرو شومان) أنه خُلق كذلك، علم أن القدر قد اختاره ليحمل عن الكثيرين من حوله عبء الأفكار الكُبرى. استوعب أنه يستلذ مصارعة الأفكار وعِراكها وعِشقها ومضاجعتها بصخب يختبئ خلف عظام جُمجمته وأغشيته السحائية ومادة مُخه البيضاء. لا يستطيع الالتزام بموعد اجتماعي واحد، ولا يقدر عقله الجبار على تذكر تفاصيل الأماكن.

وعندما أنهى المُعيد (عمرو شومان) إجراءات بعثته الكاملة وارتحل على الطائرة العابرة للقارات إلى بوسطن بولاية ماسوشيستوس الأمريكية في ١٧ سبتمبر من عام ١٩٩٦، عَلم أن الصراع الذي لم يكن قد خمد داخله بين الأفكار والبشر قد انتهى. أن الأفكار انتصرت وأُبيد البشر. وبينما تسير الطائرة محمولةً على أبسطة الريح، وهي تشُق السُحب مَهديةً بطيارها الآلي وصاعدةً وهابطةً بطيارها البشري، كان يقين (عمرو) في النجاح قد صار عِنده كالعقيدة. لم تقلق نَفسه الحائرة لحظة بينما تطن أذناه بتأثير هبوط الوصول،

لم يتوتر وهو يخرج من باب الطائرة، مُلتحفًا أغطيته الثقيلة، مُعانقًا هواءَ الحُرية البارد، لم يرتبك وهو يخطو واثقًا، حاضنًا أجواء العِلم والحضارة نحو البوابة الأمنية بمطار (JFK) بنيويورك، ثُم مطار (لوجان) بشرق بوسطن، ولم يتلعثم وهو يُبرز باسبوره وتأشيرته ويقول بإنجليزيته الجيدة مُجيبًا المسئول عن هدف الزيارة مُبتسمًا: «للدراسة .. بعثة علمية»، ولم يئنّ من جرِّ أمتعته خارجًا من المطار نحو أقرب تاكسي أصفر اللون.

وضعتُ أمتعتي على سقف التاكسي، وركبتُ آمرًا السائق الأشهب بالتحرُك إلى شقة (ووتربول)، التي كُنتُ قد حجزتها قبلًا بالاتفاق مع زميل أقدم هُنا، (هشام مدحت). بدأت السيارة القوية رحلتها، عبر الشوارع النظيفة الأنيقة، المغسولة بالمطر. تدفقت الصور في عينيّ الماثلتين أمام قلبي الخاوي. من خلف زجاج السيارة، تابعتُ المدينة السائرة كما أسموها، كناية عن أعداد الطلبة الغفيرة، الذين يحجّون إلى المدينة الحاضنة لجامعات (هارفارد) و(بوسطن) و(ماسوشستس) ومعهد (MIT). يقطعون مشاويرهم سيرًا على الأقدام. بدت لي المدينة في تلك الساعة من الصباح، كشُعلة نشاط أرضية. بحثتُ في الوجوه التي لا أجيد قراءتها ولا تذكُرها عن آثار النُعاس، فلم أجد. فقط الحماس الهادئ البادي في الخطوات الشابة، والانشراح الدفين في العيون، رغم الغيوم الكثيفة ورذاذ المطر المتناثر بين الفنية والأخرى. في التاسعة والنصف صباحًا توقّف التاكسي أمام البيت الفيكتوري ذي البوابة المُميزة. أنزلتُ الأمتعة عن التاكسي ونقدته حسابه الدولاريّ ثُم توقفتُ على الطوار الزلق أمام البيت -مثلما أفعل الآن- مسحتهُ بعيني الخاويتين دون اهتمام فعلي، ثُم صعدتُ الدرج الصغير عبر الحديقة المُسيجة إلى الدكتافون، ضغطتُ الزر المجاور لاسم السيدة (باولا بندكت)، فضرب الأزيز شقتها. من

الداخل، سألت عن هوية من بالباب فأجبتُها أنه أنا (عمرو شومان) مؤجر الشقة الجديد. مرت دقيقة قبل أن تخرج عليّ السيدة الستينية النحيلة الشاحبة ذات الابتسامة البسيطة، لتستقبلني وتُرحب بي، بالطريقة العملية التي أُحبها دون عزومات المراكبية التي يبرع بها المصريون. على الفور دخلت لتأتي بمفتاح الشقة الصغيرة القابعة بالطابق الثالث والأخير. صعدنا الدرج الخشبي العتيق، تتقدمني مُثرثرةً دون مُبالغة عن حُبها لمصر، فقد زارتها وهي صغيرة ولا تزال تذكُر وقوفها أمام الهرم الأكبر الشامخ ومُحاولتها صعوده. وخوفها من وجه أبي الهول. ضحكتُ من كلامها وقُلتُ لها بسخرية لاذعة إن ذلك هو الشيء الوحيد الذي نجحنا فيه كمصريين، تشييد المباني ورص الأحجار، صنع أسلافنا أصنامًا من آلاف الأعوام ثُم خرجوا ولم يعودوا. ردت عليّ بلهجتها المُتشققة ذات الدفء العجوز:

-بالمناسبة .. يوجد هُنا قسم خاص بالآثار المصرية بمتحف الفنون.

- أها عظيم .. سأحاول زيارته وقتما أجد الفرصة.

أدارت المُفتاح في الباب البُني القوي، ودلفت وأنا خلفها مع حقائبي الثقيلة، أتطلع إلى المكان، قبل أن أقول:

-شقة لطيفة، أشكرك سيدتي.

سلمتني السلسلة الخضراء التي تحوي مفتاح الشقة ومفتاح بوابة العِمارة. وقالت بنفس الابتسامة المُرحبة:

-العفو عزيزي (عمرو).

حملتُ حقائبي إلى غرفة النوم الوحيدة، الصغيرة العملية ذات السرير المتوسط الحجم، وسريعًا فتحتها لأرضّ الملابس الثقيلة التي اقتنيتها من مصر خصيصًا من أجل الصقيع الأمريكاني. بعدما انتهيتُ، خرجتُ مُجددًا إلى الصالة الصغيرة ذات الكنبة الرحيبة والتلفاز المواجه لها. على يمين المدخل رُكن المطبخ، بينما يسكُن الحمام جوار غرفة النوم. اتجهتُ إلى الحمام الضيق حيثُ نظرت إلى وجهي بالمرآة، فلم أر فيه آثار اندهاش أو انبهار، رأيتُ ما توقعتُ داخل العينين السوداوين، التماعة التصميم. على الفور، تركتُ المياه الباردة تضرب وجهي، لتُشعل طاقة جسدي القتالية في دَرء البرودة، وتُشعل في روحي صواريخ التحدي. أخذتُ حقيبة أوراقي الصغيرة والمفاتيح، فتحتُ بابي وخرجتُ مغلقا سكني الجديد الصغير. اتخذتُ أقرب تاكسي، سائرًا فوق كُوبري (المِلح والفُلفُل)، العابر لنهر (تشارلز) إلى حيثُ كلية الفنون والعلوم التابعة لجامعة بوسطن. هبطتُ منه لأقف أمام الصرح العلمي الذي أتعبني الوصول إليه. عبرتُ البوابة المُزينة للسور الأسود المُحيط به، مُلقيًا نظرة سريعة على الصرح الرمادي الضخم الذي تتكون تحته أبخرة العِلم والشغف بقوانين الحياة. لا أعلم الكثير عن فن المعمار ولكن كلاسيكية البناء الممزوجة بعصرية النوافذ قد شدت بصري، وأعطت البناء بُعدًا خاصًا ذكرني بإنجلترا كما نراها في الأفلام القديمة، ولِم لا وقد سُميت إحدى مُدُن ماسوشستس باسم (كامبريدج) تيمُنًا. لفت انتباهي الكلمات المحفورة على هامة الواجهة: جامعة بوسطن - تخليدًا لذكرى تشارلز هايدن-. الذي علمتُ فيما بعد أنه أحد أعلام المدينة، المُستثمر الأعزب الذي كرّس حياته لخدمة ناسه ومُجتمعه. هبطتُ بنظري للحظات، مُراقبًا الوجوه الرائحة والغادية، الشابة والكهلة والعجوز، الجادة والمرحة. المُتحركة من وإلى وحول الصرح،

والواقفة المُنتظرة شخصا ما أو حدثا ما يبدو قادرًا على الحدوث في جو نابغ مثل ذلك. ثُم دلفتُ عبر الفم المفتوح المنتظر إلى عُمق المكان.

مُسترشدًا باللافتات الخضراء الأنيقة، اتجهتُ إلى كلية العلوم، حيثُ قسم الفيزياء، الواقع في الجزء الخلفي من المبنى العملاق، ثُم صعدتُ السلالم الرخامية العريضة البيضاء المُنارة بشبابيك ضوء النهار إلى الطابق الثاني، حيثُ قسم الفيزياء الجزيئية. هُناك سألتُ عن المسئول الإداري للبعثات العلمية، فوجهتني إحدى الطالبات إلى مكتب (كارل ستيفتز)، حيثُ التقيتُه بعد دقائق معدودة، تصافحنا وتضاحكنا مُجاملين، ثُم أنهى مُقابلتي مُنهيًا الإجراءات الروتينية التقليدية التي قد تستغرق في مصر قرونًا. تسلمتُ المُستند الخاص بالأساتذة المُشرفين عليّ. ودون إضاعة ثانية من الوقت، اتجهتُ إلى مكتب كُل منهم، للتعريف بنفسي.

إلى وجه الأستاذ (هانز توايكر) القوقازي وعينيه الزرقاوين الباردتين: مرحبًا سيدي .. أنا (عمرو شومان) .. المُعيد المصري الذي أتشرف بإشرافك على رسالتي. ثُم إلى وجه الأستاذ (روب مكالستر) الأشبه بالوجه المصري ولكنه مُتوجٌ بشعر بُني قصير بالغ النعومة: مرحبًا سيدي.. أنا (عمرو شومان) .. المُعيد المصري الذي ..

كثير من الابتسامات، قليل من الأحاديث، التي دارت معظمها حول شخصي وحول مصر ثُم حول الفيزياء الجزيئية، وكيف أنها أخيرًا قد وصلت إلى المكانة التي تستحقها كفرع بالغ الأهمية بعد جهودٍ حثيثة وعملٍ مضنٍ. وكيف أنها الوسيلة الأكثر دقة لفهم العالم. تبادلنا بعض الكلمات عن طموحي العلمي وموضوع رسالتي اللصيق بمجالهما البحثيّ. وهكذا إلى أن انتهت

جلستا التعارُف سريعًا. اتفقنا على البدء من الغد، حيثُ سأنضم إلى الفرقة البحثية التابعة للأستاذ (هانز توايكر)، والتي ستُمكنني من العمل على رسالتي بصورة أفضل وأقرب.

ثُم كان هناك الكثير من الشكر، والقليل من الوداع، وإلى اللقاء غدًا.

٣

بسلاسة وسُرعة وانسيابية، دخل ترسي في الآلة الأمريكية العملاقة. تعرفتُ إلى زملائي الباحثين في الفريق، (نيك) و(إيملي) و(ليز) و(ريكاردو). وبعد تعريفي بالمُهمة، لم نلبث أن بدأنا عملنا على الفور. كان هدف الفريق البحثي جديدًا، مُثيرًا. نجح في شحذ كُل طاقات خيالي وفجر كُل الثقوب السوداء في عقلي، كانوا يعملون على تطوير جهاز قادر على رصد وتسجيل نوع خاص من الذبذبات التي تُصدرها الجُسيمات الأولية، مثل الكواركات (1) والليبتونات (2)، والتي تُمثل البناء الرئيسيّ لكل ذرات الكون.

بعدما أثبتت المُعادلات والتعديلات التي أُجريت على نظرية «الأوتار الفائقة (3)» القديمة المتروكة إمكانية وجود هذه الذبذبات الخاصة جدًا. ، رغم استحالة الأمر بالمنظور المُعتاد لميكانيكا الكم(4) ، طبقًا لمبدأ عدم اليقين الشهير(5).

كانوا يأملون في تحقيق قفزة تقنية في تطوير ذلك الجهاز، ولو بصورة بدائية تؤدي إلى ظهور نتائج، كي يُقدموها إلى معهد ماسوشستس التقني

MIT، لينالوا ثقتهم ويظفروا برعاية «حاذقين الـMIT» كما يسخرون منهم، فيستطيعوا العمل بسقف أعلى للميزانية، وبالتالي تطوير الجهاز أكثر فأكثر.

وعندما بدأ عملنا، اندهش الجميع من قراءاتي العميقة في المجال رغم ضحالة الدراسة فيه بمصر، وانبهروا بمقدرتي على ربط الأفكار ببعضها، لرؤية الحلول غير المطروقة، والاستدلال للخروج بنتائج منطقية.

هكذا دارت حياة (عمرو شومان)، الباحث العظيم، أو موته البطيء. ما بين الغَرق المُنهك مع الفريق البحثي، والعمل على رسالته بطول الساعات، ومُطالعة المراجع في مكتبة الجامعة الفخمة غالبًا، والمُذاكرة في منزله أحيانًا. لم يشغله شيء سوى عِلمه. اكتمل عالمه كما تمنّى، شعر الجميع بتوهّجه بما فيهم هو نفسه. رأى في عيون الزملاء الغِبطة والانبهار والحَسَد والإعجاب. ولكنه لم يتوقّف، ولم يسمح للسعادة والسلام أن يوقفا مسيرته لحظة. فقد عَلم أن أخطر شيء قد يُهدد مسيرة الناجح هو التوقف للاستمتاع بنجاحه. لم تتحسن علاقته بزملائه ولم تتدهور. فقط بقيت على نوعٍ من الاتزان. عَلِم شخصية (نيك) الساخرة-الجادة، واستوعب إلى حد ما برود (إيميلي) الشبيه ببروده، وعَرِف طباع (ريكاردو) الكوبية الحارة. جاملهم في كثير من الجلسات، وتضاحك معهم بأقصى ما يستطيع وجهه المُتحجّر. كما عَلِموه واستوعبوا طباعه نوعًا. أطلقوا عليه سِرًا اسم الرجل الآلي. فابتسم في أعماقه مُنتشيًا عندما سمعهم يتهامسون باللقب مصادفة. كان اللقب يُسعده ويُحمّسه لمزيد من الغرق في بحور الأفكار. مُراقصتها ومعابثتها وترتيبها وربطها ببعضها بعضا. لم يكن اللقب إلا شهادة بهزيمة البشر أمام الأفكار. وثيقة انسحاب بشري أمام مدّ أفكاره، في انتظار

إملاءاتها. نجح في نيل الدكتوراه في زمنٍ قياسيّ. وأهّله نبوغه واجتهاده للاستمرار في الولايات مع الفريق البحثيّ، خاصة بعدما نالوا رِضا الآلهة في الـMIT، كما تُحب (ليز) تسميتهم.

(ليز) زميلتك الشقراء، ذات النغازتين، والعينين اللتين زاد ضيقهما من فتنتها بصورة غريبة، وأنفها الدقيق القصير المُلائم لوجهها الطفولي، والذي لم يخل من فتنة الأنوثة. (ليز) التي هزمتها برودتك وتحوّلت نظراتها مع الوقت من السخرية والازدراء إلى الاندهاش ثُم الانبهار ثُم الإعجاب، ثُم ما يبدو أنه حُب. ولكن معذرة يا (ليز)، فلدي أبحاث لأنجزها، لدي كشوف كونية لأبرزها، لدي نوبل لأحصدها. ليس لدي الوقت للبشر وقد كرهتهم من كُل قلبي.

لم تَقُل لها ذلك بالطبع بينما توصلها إلى بيتها القريب من بيتك، بعدما أصرّت هي على أن تسيرا قليلا بعد ذلك اليوم الصيفي المجهد الطويل، الذي أتاكم فيه عرض الـMIT. تحدثت هي كثيرًا بينما ظللتَ أنت صامتًا. لا شيء داخل عقلك سوى الأفكار السابحة العالقة، في انتظار صنارتك لصيدها وترتيبها في شبكتك، ولا شيء في روحك سوى الخواء. ثرثرت لك بكُل شيء عن حياتها. وأنت تقريبًا لا تستمع، وإذا استمعت لا تفهم وإذا فهمت لا تستوعب. لا جرَم أنك لم تُخلق لفهم البشر. توقفتما أمام منزلها فتثاءبت في تكاسُل، وحاولت الاقتراب وتقبيلك بشفتيها الشهيّتين، ولكنك تراجعت بسرعة كالمصعوق. لم ترتبك من ردة فعلك، فقط توقفت وهي تَزُم شفتيها في نوع من التفهّم. ودون اعتذارات سخيفة، هزت رأسها في صمت. قائلةً بوجوم: ليلة سعيدة. وفي طريق عودتك إلى بيتك القريب، أطلّ اندهاشك بـ(ليز) من شُراعة روحك الضيقة. ما الذي تراه في شخصك البارد لتحتمل كُل ذلك؟ كيف ظلت

تحتمل صمتك وسخافتك طويلا دون ملل؟ ثُم كيف لم تنفجر أمام وقاحتك عندما حاولت الاقتراب مِنك؟ بل لِم تحاول الاقتراب من روحك القبيحة أصلا؟

أنا الدكتور (عمرو شومان)، الباحث في الفيزياء الجزيئية، الذي لا يُجيد فن الاقتراب من البشر. بل إنه يحاول قدر الإمكان إبقاء المسافة ثابتة. وحتى إن حدث بعض الاقتراب يُحاول بكُل ما أوتي من فزع أن يُعيدها سيرتها الأولى. كيف وصل لذلك؟ ولِم؟ لا يريد أن يتذكر. ولكنه أكيد أنه جُبِل على ذلك منذ ولادته تقريبًا. كانت الصفة محمولة في جيناته، فقط احتاجت المؤثر اللازم لتفعيلها.

شغلت (ليز) بعضًا من تفكيري، وشُحنت ذكراها بآثار الصراع القديم المحسوم بين الأفكار والبشر. فاجتاحني الغيظ والغضب من كل تلك الشحنات التي تُحاول التيقظ بداخلي. اللعنة عليكِ يا (ليز)! ولكن بمُجرد مُلامسة بحر الأفكار والأحلام العلمية، ذوت ذكرى (ليز)، ووجدتُ نفسي تسبح بانسيابية أوحشتني في تضفير نظريتي الخاصة، والتي عمل مُخي المحتقن عليها ليالي طويلة، قبل أن يصرعني النوم سويعات قليلة، لأفيق منه إلى عالمي الراسخ الأبدي، حلمي وكابوسي.

كان صباحًا مُميزًا، صيفيًا أقرب لجو الربيع. ذلك النهار الذي سأنتقل فيه رسميًا من خانة باحث جامعيّ مؤقت إلى خانة الباحث الدائم بأقوى وأشهر المعاهد التقنية في العالم. في الجامعة، اجتمع الفريق في مكتب أستاذي دكتور (توايكر) الذي صار يكن لي أكثر من مُجرد شهادة نلتها منه، إنه احترام نادر لا يشعر به إلا العالِم من عالِم مثله. شعور يُسمى التقدير، ولكنه يحمل

مسحة غريبة من الامتنان. كان اجتماعًا ودّيًا لمُناقشة المرحلة الأولى من خطة تطوير الجهاز الذي أسميناه Particle Reader. قال العالِم بصوته القوي:

-سيُمكننا تمويل MIT من استكمال العمل في المرحلة الأولى..سيكون علينا تطويع الجهاز بحيث يقوم بتسجيل كُل أنشطة الذبذبات الجزيئية، بواسطة الجهاز سنتمكن من مداهمة الجسيمات ؛ لقرائتها دون أن تؤثر قرائتنا على محتواها وموضعها ، مما سيُمكننا من دراستها. فيتحطم مبدأ عدم اليقين بالضرورة.

تنهد لحظة مُغمضًا عينيه ، قبل أن يقول :

-ستكون مرحلة بالغة الإرهاق يا رفاق وعلينا التركيز بشدة في الحصول على أكبر قدر من التسجيلات لدراستها. سنحتاج جهودًا جبارة للحصول على تقدم سريع فلا تنسوا أننا مازلنا تحت الاختبار.

قال (ريكاردو):

-أوغاد MIT !

فرد (نيك) هازًا رأسه ساخرًا:

-أوغاد يملكون قوت يومك .. لا تنس ذلك.

اكتفيتُ بهزة رأس مُتفهمة، وكانت (إيملي) قرينتي الباردة تفعل المثل كما توقّعت. نظرتُ لـ(ليز) التي تجنبتُ تمامًا الحديث معها منذ الصباح. فوجدتها

لا تزال تُثبت عينيها العسليتين عليّ، كأنما لم يجر ما جرى أمس. قالت بملل وبنفس ثبات النظرة:

-بالتأكيد .. علينا أن نتحرك إليهم الآن يا بروف.

هز أستاذنا رأسه موافقًا، فتفجّرت الحركة المُتحمّسة المُترقّبة فينا على الفور. كُنا قد جمعنا كُل الأوراق المهمة في أكثر من علبة متوسطة الحجم، وقد أنهينا تفكيك قارئ الجسيمات، تمهيدًا لنقله إلى معملنا الجديد لدى السادة الجُدد.

تبادلنا بعض الكلمات والعبارات التي لا داعي لها. واكتفيت باستراق النظرات الباردة إلى (ليز) التي كانت تنظر نحوي بين الحين والآخر. انطلقنا جميعًا مع مستلزماتنا في ميني باص إلى MIT. وقفنا أمام الصرح الأبيض ذي القُبة الضخمة والأعمدة العشر بانبهار ونوع من الشوق. تحرك قطار الحُلم إلى القضبان التي ستقلّه نحو الواقع. أما أنا فزاد يقيني بقُرب ملائمة الأجواء لقول نظريتي الخاصة. صَفَّر (نيك)، وقال (ريكاردو) مازحًا، وهو يحضن الهواء أمام حديقة البناية العِملاقة:

-MIT .. بيتي الأبيض!

ضحكوا، فضحكتُ معهم. وبعدما دلفنا إلى المكان المُمتلئ بالطلبة النابهين والأساتذة الحاذقين، وأنهينا الإجراءات البيروقراطية التي لا يُمكن بالطبع مقارنتها ببيروقراطية «العُهدة والدمغة» المصرية، دلفنا إلى المعمل الفسيح المُجهّز بالحواسيب القوية والطاقة الدائمة المُولدة من المفاعل الخاص

بالمعهد. رتّبنا الأوراق ونصبنا الجهاز من جديد، وبعد استراحة قهوة سريعة، مشحونة بصمت الألسنة وانفجار العقول بالأفكار، بدأنا.

٤

مع الدفعة المادية الهائلة المُتمثلة في قدرات المكان، والدفعة المعنوية في حفر الحُلم على تضاريس الواقع. تسارعت وتيرة إنتاجنا. لم يعد يهُم الوقت كثيرًا، بل كان وجداننا الجمعي يُخبرنا بقِلة ساعات اليوم على ما نُحاول إنجازه. ولكننا ارتضينا بمقاييس اليوم التي لا يُمكن تغييرها واكتفينا بالسعي نحو رفع مقاييسنا نحن. وقد نجحنا في ذلك بلا أدنى شك.

في وقت قصير، كُنا قد أنجزنا مشروع تسجيل الذبذبات. الأمر الذي كان يعني ببساطة تحقيق حُلم فيزيائيين عديدين وعلى رأسهم آينشتاين بتحطيم تابوه آينزنبرج لعدم اليقين. إثر ذلك ، ثارت ضجة عظيمة في الأوساط العلمية ، ما بين صدمة والتشكُك والاستنكار لدى الغالبية في البداية ، ثُم مع الوقت انهارت دفاعات الوسط العلمي للفظ الاكتشاف ، بينما ظلّ البعض متشبثًا بالرفض الممزوج بالكبرياء العلميّ. بل وبدأنا في دراسة ما وقعت عليه أيدينا من تسجيلات حصرية. وفي نهاية أحد تلك الأيام اللاهثة، كُنا مجتمعين بالمعمل مع أستاذنا (هانز توايكر)، عندما قدمنا له خلاصة ما توصلنا له. شعرتُ أن الوقت قد حان لإلقاء قنبلتي، أو بداية نظريتي، التي طوَّرتها من مُعايشتي مع أبحاثهم وبكثير من الاستدلال المنطقي وبعض الغريزة العِلمية التي أعلم أنني أمتلكها. ناظرًا للجميع، مُتلعثمًا في كلماتي كما أفعل دومًا، قُلتُ:

-إحم .. أظن أننا ربما نكون على وشك التوصل لكشف مُذهل.

التمعت العيون وحدّقت نحوي، وخاصة عينا (ليز) اللتان لا ترحمان. فقال (نيك) ساخرًا:

-انظروا إلى هذا الرجل، قُل كلامًا غير ذلك يا رجل-الاستعراض!

وقالت (إيميلي) باهتمام بارد:

-ما هي؟

ارتبكتُ، ولكن دكتور (توايكر) شجّعني بابتسامة مُقدّرة، فقُلتُ:

-أظن أننا على وشك رصد لغة الوجود!

خيّم الوجوم عليهم. فأضفتُ:

-بل وربما فهمها أيضًا!

ضحك (نيك) و(ريكاردو)، بينما تفكّرت (إميلي)، وبقيت عينا (ليز) الساهمتان كسؤال بلا جواب. قال دكتور (توايكر) بنوع من التحفظ:

-اعذرني يا (شومان) .. لقد قرأت عن الدين الإسلامي بضعة كتب .. وأعلم أن عقيدتكم تؤكد أن كُل شيء يسبّح باسم الرب. كما أن تراث الديانات السماوية يحوي كثيرًا من مُعجزات الأنبياء، مثل مُعجزة (سُليمان) وقدراته الخارقة على فهم لغة كل الموجودات. أخشى أنك تُقحم خلفيتك الدينية في أمر علمي محض كهذا.

كانت كلماته بها هامش خفيف من الصحة، فالأمر كان -لدهشتي- يُداعب خلفيتي الدينية، ولكنني لم أسمح له بهزيمتي. فعاجلته بكلمات سريعة كالطلقات:

-سيدي أنا أعلم جيدًا ما أتحدّث عنه .. ولا علاقة للدين بالأمر. أنا أتحدث من منطق علميّ بحت .. فمن خلال بضع قراءات لنماذج الذبذبات المرصودة، ومع تبديل تردد موجات راصدنا .. لاحظتُ بالفعل أن أنماط الذبذبات تختلف باختلاف موجاتنا المُرسلة، كأن تغيُّر الأنماط أشبه بتغيُّر ردُّ الجسيمات على حسب الإشارة المُرسلة، فيما يشبه إجابة بلغة خاصة تتغيّر مفرداتها بتغيير السؤال أو الإشارة. كما أنَّ اللفظ قد خانني نوعًا .. فأنا قُلت فهم لُغة الوجود، وأنا أعني أنها ربما تكون الخطوة النهائية. أنا أتحدث أولا عن فهم مغزى ذبذبات الجسيمات كخطوة أولى. ومن يدري؟ ربما استطعنا بواسطة قدرة الحواسيب الفائقة على جمع وتحليل المعلومات، للتوصل إلى نوع من الأبجدية الثابتة التي يمكن فيما بعد مراكمتها لوضع أبجدية شاملة لتحليل واستيعاب عالم المادة!

ظل وجومهم على حاله، بينما قال (ريكاردو) مُشيرًا بقلمه في الهواء:

-وما دليلك على وجوب صحة ما تقول؟ هي افتراضات مبنية على افتراضات مبنية على افتراضات .. مُجرد بيت من ورق التاروت .. إذا سحبت أحد أوراقه سينهار البيت كله.

ابتسمتُ:

-بالفعل هي افتراضات .. ولكنها أقرب الافتراضات للواقع والمنطق رغم كل ما بها من خيالية!

وتوجهتُ بحديثي إلى (توايكر) بثقة داخلية وارتباك خارجي:

-سيدي. جلّ ما قصدته هو مُشاركتكم تصوّري المبدئي المتواضع. كما أننا في جميع الأحوال سنقوم بتحليل الذبذبات، ومحاولة فهم مغزاها، وربطها ببعضها بعضا. وهي خطوة إن قُمنا بها ستكون هي المدخل لما أقول. لا بدّ أنك تعلم يا سيدي مدى السبق العلمي الذي يمكن كشفه؟ أضف إلى ذلك التطبيق في مجالات غير مطروقة على الإطلاق. أبسطها وأكثرها مُباشرة مثلا التحكُم بالمناخ. إن سار الأمر كما أتوقع سنكون أمام أداة الإنسان لترويض الطبيعة بصورة كاملة. كما لا تنسوا أننا إذا وضعنا أقدامنا على بداية ذلك الطريق ونجحنا فيه .. فلا شكّ أن لعاب آلهة MIT سيسيل وسيمنحوننا كل الاعتمادات المالية اللازمة لتحقيق ما نُريد.

بان الانبهار في العيون، بينما ظلّت الوجوه مُحتفظة بحذرها وتشككُها. سَرح (توايكر) بعينيه خلف رؤوسنا حالمًا، نحو القارئ الرابض في الجهة الأخرى من المعمل، الأشبه بغسالة أوتوماتيكية ضخمة رمادية اللون. وقال بخفوت:

-إذا صحّت توقعاتك .. فإننا سنكون بصدد بحث سيجتذب ذباب الجيش .. سُيسيل لُعاب الجنرالات.

تلقائيًا، قُلتُ له بقلق:

-ولكننا لن نسمح لهم.

قالت (إميلي):

-كُل الأبحاث قابلة للنظر على الوجهين .. كل الأبحاث قابلة للتطبيق على الوجهين، المدني والعسكري.

فعاد ينظر لي بعينيه الزرقاوين، مُغيّرًا الموضوع:

-دعنا من ذلك الآن .. فمن الخطأ القفز إلى النتائج المُجردة بانطباعات شخصية مهما بدت منطقية.. فلننظر إلى موضع أقدامنا ونبدأ.

ثُم ابتسم بغموض:

-ثُم لنر موضوع نظريتك هذه.

٥

دارت عجلة (الغسَّالة) –كما نُحب تسمية جهازنا- أو الـPR آلاف المرات، لتغسل الذرات وتُنقيها وتستخلص منها ذبذباتها، أبجديتها وعُصارة وجودها. رصدت وسجلت. ونحن خلفها ندور لاهثين، نبحث ونُحلل. كما أدارت الغسالة أيضًا عجلة الأيام والشهور، لنجني ثمار غسيلها مع الوقت، وليتوطد وجودي أكثر في بيئتي الأمريكية الجديدة. حتى مع وقوع تفجيرات سبتمبر التي هزَّت العالم كله بقدومها وتوابعها، لم يهتز قلبي المعدني قيد أنملة، بينما توارد لذهني وجه أخي (أحمد) المُلتحي. كُنتُ قد تجنبتُ مهاتفته في تلك الأيام، وإن قُلتُ ساخرًا لوجهه الماثل في خيالي: لعلك الآن سعيد بجهاد إخوانك يا شيخ (أحمد)! لم تُعكر الأجواء الجديدة صفو علاقاتي بأساتذتي وزملائي،

فقد أدركوا أيّ آلة أكون. ميكنة لا تنتمي لعالم البشر وتعصّباتهم. بالطبع كانت هناك مُضايقات رسمية ملموسة ونظراتٍ مُرتابة محسوسة في حصولي على الجنسية. ولكنني لم أعبأ. بل كُنتُ مُتفهمًا العدوانية الحكومية والتحفظ الشعبي المتفاوت تجاه العرب. كان المصريون ليفعلوا ذلك وأكثر، إذا أصابهم ما أصاب الأمريكان. لم يكن لديّ ما أخشاه. فقد كان تركيزي الشديد في طريقي المرسوم يعيقني عن أي خوف أو قلق، ولا يمنحني إلا ثقةً بنظريتي تجاه البشر، ومزيدًا من التفاني في العمل والبحث.

وفي ديسمبر من عام ٢٠٠٣. تأكّدت للجميع صحّة نظريتي. فأخيرًا تمكّنا من الإثبات بما لا يدع مجالا للشك أن أنماط الذبذبات الصادرة ما هي إلا لُغة خاصة، وثيقة الصلة بالجُسيمات وبأنواعها وبطبيعتها ودورانها. هنّأني الجميع بمزيج الغبطة والانبهار والحسد المعروفين على كشفي المُذهل. أُضيف للمزيج نظرة فخر بلا حدود في عيني أستاذي (توايكر). ولمعة الحُب الأبدي، المسجون في عيني (ليز).

رفعنا تقريرنا إلى المشرف المسئول عنا بالمعهد مستر (هنري). فرُفعت سُمعتنا في المعهد إلى الآفاق، أتتني في نفس اليوم مُكالمة من (هشام مدحت) الزميل الباحث في الفيزياء الكميِّة، الذي حجز لي شقة (ووتربول)، وهنأني قائلا:

-سامع عنك كل خير يا دكتور .. عقبال نوبل بقى .. ربنا يوفقك.

فابتسمتُ مُفتخرًا، ولكن مُحاذرًا ألا أسقط في فخ الفرح الزائف بنجاح مؤقت:

-لسّه بدري عليها دي .. لما نعجّز شوية يا دكتور (هشام) زي ما إنت عارف..الله يبارك فيك. ربنا يوفقك إنت كمان.

وفي الليل، كُنتُ أستعد للخروج من المعمل، كآخر شخص يغادره مثل العادة. عندما وجدتُ (ليز) تقفز من العدم في وجهي قائلةً بمرحها المُعتاد: مُفاجأة!

أثارت قفزتها رجفة مُفاجئة، ضاعفت من رجفة الصقيع في بدني. تغلبتُ على المُفاجأة بابتسامة مُجاملة، قائلا بصوتٍ مُجهد:

-مفاجأة سارة بالتأكيد.

اتجهت إليّ، بينما أحاول قدر الإمكان تفادي نظرات العِشق التي تكاد تُغرق عينيها قائلةً:

-إلى أين أنت ذاهب؟ إلى شقتك الكئيبة؟! مقبرتك التي تدفن نفسك فيها حتى الصباح؟! لا يا سيد (شومان) أو (عمرو) أو أيًا كان اسمك. الليلة عليك أن تحتفل بإنجازك الذهبي!

جاءت ضحكتي هذه المرة تلقائية، فعلّقت (ليز) بينما تحشر ذراعها الدافئ لتتأبط ذراعي:

-يا إلهي! أخيرًا ضحكة حقيقية .. لا يُمكن! .. أنا لا أصدّق. لقد ضحك الرجُل الآلي أخيرًا!

أغلقتُ المعمل، قبل أن نسير في الصقيع الليلي، تتكاثف الأنفاس أمام أفواهنا والأرض مُوسدة بالجليد. بواسطة ذراعها المُتأبط ذراعي، قامت بجذبي بينما

نسير نحو حانة (إديجار).

-فلنحتفل!

هكذا قالت بحماس، وهكذا اتبعتُها مُجبرًا، أو ربما نصف مُجبر.

دخلنا فوجدنا كُل الرفاق مُنتظرين.

-انظروا من أتى إلى هُنا! إنه الرجل الآلي شخصيًا!

سخر مني الجميع تقريبًا، بينما يقدّمون لي الشراب. جاملتُ بزجاجة أولى. كانت مُرّة المذاق، دفعت نوعا غريبا من الحرارة في حلقي ثم إلى صدري، فأنا لم أُجرّب الجعة ولا الخمر قبلا. ولم تكن الحرمانية هي المانع الأكبر. ربما هي الهالة العجيبة التي نصنعها حول المحُرمات أو الأشياء البعيدة عن المتناول. ربما هي عدم الرغبة في التجربة. وعلى كُل حال فقد كُنتُ مُستكفيًا، فما ألذّ من خَمر الأحلام؟ ولكن لخمر الواقع نكهة مُختلفة، ربما أكثر قذارة لتناسب القذارة البشرية!

توالت الزجاجات، وكثُرت الصيحات المُشجعة والهمهمات المحمومة. تاهت بنية أفكاري الكريستالية، بوصلتي التي أضيع دونها. وهويت إلى أعماق الظلمات. إلى حضيض الحضيض. وتمخّض كياني كُله عن جنون لذيذ مُطبق. كما تمخّض عن عيني (ليز) المغرورقتين بالعِشق المُضني.

لهثت الحانة برفقائها خلفنا ..لهثت الشوارع البيضاء خلفنا..جرت الأسياخ المعدنية لسور وبوابة منزلي خلفي أنا و(ليز). تحاول النيل من أقدامنا الصاعدة .. تحاول عرقلة مسيرة الغرائب القادمة في الأفق.

بذات إيقاع اللهاث وضربات القلب، دلفنا إلى شقتي. نظرُت إلى عينيها العاشقتين وشفتيها ووجنتيها المُحتقنتين. فكشر الإنسان الحيواني داخلي عن أنيابه التي أخيرًا قد استطالت. بزغ قمر العِشق وصرتُ مذءوبا. تعرّينا والتحمنا في كل الأوضاع المُمكنة. نفختْ روحها في أنفاسي بينما ألسنتنا تتعانق. شربتُ من دمائها وشربت من دمائي. لعقنا بعضنا إلى آخر قطرة. داخ العالم فوق رأسينا المائلين على كتفينا وجسدينا المعشوقين على أرض حجرة النوم. قُلتُ لها قبل أن أدوخ مع دوار العالم:

-ماذا..ماذا تُريدين؟

قبلت شفتي طويلا، قبل أن تبتسم مُجيبة بنعاس:

-قلبك.

هكذا دخلت (ليز) إلى عالمي منذ تلك الليلة اللاهثة. عقدت الصفقة الرابحة لها. أخذت قلبي وأعطتني روحًا. لم تكُن تعلم أن قلبي وعقلي مُتصلان، وأن صفقتها قد جارت على حقي. في دفء كفيها وعينيها، وجدتُ العالم منطقيًا. كانت هي العنصر الناقص في المعادلة المُختلّة. ضُخت حيوية دمها في أوردة الكون، فتغيّرت صبغة الدنيا أمامي من الأزرق البارد الباهت إلى كُل ألوان الطيف الحيّة. صحبتني إلى مسكنها القريب من الجامعة، أقحمتني في حياتها وعالمها الصغير، ومُجددًا أعادت حكايتها على مسامعي بعدما طلبتُ منها ذلك، مُتحاشيًا إخبارها بأنني لم أنتبه لمعظم حديثها في لقائنا السابق. وعندما تذكرنا عدم استجابتي لها في تلك الليلة، ضحكنا كثيرًا فحاولتُ الدفاع عن نفسي مُبررًا بِحُب أنني لم أكن أعلم أي شخص أفوّته. وقُلتُ أمام

ابتسامتها الرائعة وعينيها شبه الدامعتين: «لم أكن أدري قيمتك يا (ليز)». حكت لي عن أبويها المنفصلين مُمزقين إياها منذُ كانت طفلة في السابعة. ولكن شخصيتها المُثابرة ومتانة معدنها جعلاها تتمسّك بطفولتها بكل ما أوتيت من قوة. سُلِبَت منها كثير من المشاعر، مثل حنان ودفء الأسرة وقيمتها. ولكنها أصرّت ألا تسمح لأحد بسلب طفولتها. قُلتُ لها مُبتسمًا إن ذلك واضح، إذ لم يستطع مخلوق سلب براءة ملامحها. فردت بصوت خشن في شراسة مرحة:

-يبدو أنك ما زلت لا تعلم الكثير عن صديقتك يا مستر (عمرو)!

لعبتْ دور المُرشد وقادتني في سويعات إجازاتنا المُختلسة بين أبحاثنا المُنهكة إلى معالم بوسطن. في عينيها رأيتُ روعة نهر تشارلز ليلا، وجمال مراكبه البيضاء صباحًا. أحسستُ بوداعة البجع في بحيرته. في شعرها الأشقر سُحرتُ بالنهر المستيكي. وقادتني روحها المَرِحة عبر طريق الحُرية إلى انعتاقي من برودتي القديمة. انبهرتُ لانبهارها بتمثال بنجامن فرانكلن. وتألمت لتألمها في مكان مذبحة بوسطن، والتي كانت بداية لحرب الاستقلال والانعتاق من نيّر الوطن الأم السابق، إنجلترا. ابتسمتُ لإعجابها الطفولي بفخر البحرية الأمريكية القديم، الكونستتيوشن. تُهنا في أروقة مُتحف الفنون وتوقفنا كثيرًا أمام لوحة ونسلو هومر: إنذار الضباب. ارتاحت رأسها على كتفي بينما نتألم للصياد الشاب الذي يقود مركبه على غير هُدى في بحر الشمال الهائج، بعيدًا عن السُفن، بينما يحمل في شبكته الأمل الأبيض البضّ، سمكة ضخمة. جائزته الكُبرى لخوض بحر الظلمات إذا غرق، والشهادة الحيّة

على جسارته إذا نجا. عِشنا الماضي الفرعوني في القسم المصري أمام تمثال (مانكارع). أعجبها الاسم فأطلقته عليّ بدلال لا يتحمّله بشر.

في أيامنا القصيرة بالعطلات الرسمية، أعدتُ اكتشاف حرّية تمثال نيويورك، ولهو الأطفال الذي افتقدته في ديزني لاند، وراحة الأعصاب بين ضواحي أورلاندو المُريحة، وشهدتُ إبهار ألعاب نيران الرابع من يوليو.

مرّت الأيام الساحرة علينا في قلب الشتاء، ثُم أيام الربيع، ثُم بدايات الصيف، نخوض لغات الذرّات نهارًا ونخوض بعضنا ليلا. أحيانًا، حينما كان يغلبني العِشق ويعجز لساني المُتلعثم عن التعبير، كُنتُ أسألها:

-ماذا فعلتِ بي؟!

فلم يكن منها إلا الابتسام بدلال يثير جنوني، قبل أن تجيب ضاحكة:

-قُلتُ لك سابقًا. أخذتُ قلبك وأهديتك روحي!

ومع كُل يوم يمرّ، كان ميلي لها ينقلب حُبًا، ثُم عِشقًا، ثُم أتت مرحلة الجنون المطبق. الجنون الذي بهت على بنيتي الكريستالية الواضحة ومنطقي العقلي. الجنون الذي صار كالسيف، قطع حركات عقلي وأقعده أسيرًا لها. ضبطتُ نفسي مرة أترك مُراجعة مهمة مع (إيملي) لأحد مفاتيح اللغة الجزيئية التي نقوم بتطويرها. وأقوم دون استئذان إلى (ليز) المندهشة الضاحكة. فأُمسكها من يديها وأسحبها خلفي. ونهرع إلى شقتي حيث نلفظ روحينا في بعضنا البعض! كان جوعي إليها لا يهمد، حتى وهي معي، أمامي، حولي. تُدحرجني الأيام لأفقد وزني الجسدي ووزني العقلي، مثل المُدمنين. بينما تطوف هي

حولي، بنفس تألقها وبسمتها وضحكتها ودلالها وروعتها التي لا تفنى. وبنفس عشقها الذي أسقطته قطراتٍ على حجر قلبي. قطرة بقطرة على مدار سبع سنوات، حتى تشقق الحجر وتفتت عن آخره. غرست عيناها البذور منذ اللقاء الأول، وغذّتها يوميًا حتى جنت التُربة الميتة وأخرجت جنة عِشقنا المجنون.

قُلتُ لها مُتهدجًا ذات صباح:

-أيمكن للحُب أن يفجر حُبًا؟

فداعبت شعري مُبتسمةً العينين والشفتين، وقالت بسعادة فائقة:

-كُل شيء مُمكن يا حُبي.

٦

يرتعد جسدي وكياني، بينما أستفيقُ من حُلم بوابة منزل (ووتربول). أضبط نفسي أُحملق في الأسياخ المعدنية السوداء، والتي تحمل طرفًا مُدببًا من أعلى كالسهم. أُحاول التشبث بارتعادتي من الذكريات وهولها، مني ومن عقلي الذي لم يرحمني. خُلق العقل ليكون وسيلة أو أداة ليكتشف الإنسان ذاته، ولكنه في حالتي صار هو السيد وأنا العبد. علاقة مُريحة ومنطقية على الأقل رغم شذوذها. ليست كعلاقة القلب التي لا تُكسبه إلا الوجع. تطلُب الموت فلا تُغاث إلا بمُهلٍ ناره حارقة.

أكوِّر قبضتيّ الساكنتين تحت إبطيّ الساخنين بقوة. مُحاولا التشبث بوعيي الضعيف، كي لا أسقط صريعًا لرجم الذكريات. ولكن هيهات، فقط ما أستطيع إليه السبيل هو تحريك رأسي إلى أعلى اليمين، حيثُ يربض شباك شقتي التي لم أُغيّرها رغم بدء تكدُس الأموال في أرصدتي. لترجمني بأشد ذكراي القليلة إيلامًا.

الشباك المفتوح المُطل على ظلام صيفية عام ٢٠٠٤، على عكس أبراج المدينة العملاقة المُنيرة والتي تعكس بهاءها كله على مرآة نهر تشارلز. فتزيد من رونق المدينة البارزة علميًا واقتصاديًا على مستوى الولايات والعالم أجمع. والذي مثلت (ليز) أمامه، واقفةً قبالتي وقد أتت لتوها من الخارج.

عندما جلستُ على أريكتي، ناظرًا لها، أربكني تحديقها مثلما يفعل دومًا. ولكن أُضيف لارتباكي ارتباكًا جديدًا زادني صمتًا ووجومًا. قالت بعصبية وهي تجلس جواري:

-اضطررتُ للمرور على والدتي. أنت تعلم .. هُراء العائلات الذي لا ينتهي!

هوت بجسدها جواري، فبادلتُ الوجه المتنهّد أمامي النظرات. وعندما احتك فخذها بفخذي وهي تُحاول الميل برأسها على كتفي كما اعتادت. باغتتها انتفاضة جسدي الخفيفة، والتي لم أستطع السيطرة عليها. مثلما لم أستطع السيطرة على الخواطر التي أغرقتني في تلك اللحظة. فجأة لم أعُد أعلم من أنا حقًا؟ ومن تلك الجالسة جواري؟ استغربتُها كُليةً. نظرتُ لها مُحاولا استيعاب كيف توغّلت في حياتي بهذا الشكل؟ وكيف عبثت بها إلى هذا الحد؟

نظرتْ لي بعينيها التي طالما كانتا كاشفتين لمخبوءات نفسي، مُتسائلة:

-ماذا هُناك؟

-أنا..إحم .. أنا..

ارتبكت خواطري وزاد تلعثمي، مما ضاعف من شعوري بغرابتها وغرابة عالمي الجديد، الذي استيقظتُ عليه فجأةً. تراجعت هي مُحاولة قراءة قلبي بنظراتها الصامتة. قُلتُ أخيرًا:

-لا..إحم .. لا أستطيع.

شاهدتُ الذهول وأشباح عدم الفِهم مع انكسار قادم في وجهها المضيء، وأضفتُ وقد حاولتُ التماسُك قدر الإمكان:

-(ليز) .. لا يمكنني الاستمرار في هذا..هذه العلاقة .. هذا الجنون .. أكبر من احتمالي.

التمعت المُقلتان بدموعٍ قادمة. وقالت بصدمة:

-ولكن .. إنه الحُب! .. لا بدّ أن يكون جنونًا.

قاطعتُها باضطراب:

-كلا.. إنه ليس حُبًا .. لا يُمكن أن يكون الحُب مجنونًا إلى هذا الحد. من المفترض أن يدفعني الحُب إلى الأمام. كان من المفترض أن يكون هذا ما تفعله علاقتنا .. ولكن ما يحدث هو دمار كاسح. عقلي شُل تمامًا عن التفكير.

فقدتُ القُدرة على الحُلم والخيال ..فجأة صار التركيز في أبسط مُهمة أمرًا بالغ الصعوبة! صرتُ محمومًا بِك يا (ليز). هذا رائع بالنسبة لكِ، ولكنه بالنسبة إلي هو ضياع تام. صرتُ أخاف مِنك مثلما أشتاقك!

مسحتُ جبهتي بأنامل مُهتزة، وخرجت تنهيدتي مرعوشة مثل صوتي الذي لم أعهده ضعيفًا إلى ذلك الحد:

-أنتِ تُدمرينني ببطء يا (ليز)!

صفعتها كلماتي، فما كان منها إلا ابتسامة. بارتباك زادها فِتنة، حاولت الاقتراب مني هاتفةً:

-ولكن..

رفعتُ ذراعي سدًا بيننا، وقاطعتُها صائحًا:

-أرجوكِ .. ابتعدي عني..هذا أفضل لي ولكِ!

فأومأت ببطء، بينما دموعها تنساب على خديها وعلى قلبي وعقلي، فتسلخ قلبي ألمًا ولا تُثير في عقلي سوى نوع شَبِق من الشماتة والتحرُر. وقفت بكيانها المُنهار أمام كياني المُتصارع ثُم فجأة صرخت في:

-أنت وغد مجنون!

وانفجر بُكاؤها أكثر، حاولتُ مُتلعثمًا إضافة استدراك أو مواساة. ولكنها هرعت من فورها إلى الخارج، صافقة الباب بعنف صعق قلبي وطرب له عقلي.

أنا الدكتور (عمرو شومان)، الباحث في الفيزياء الجزيئية، الذي لا يُجيد فن الاقتراب من البشر. بل إنه يحاول قدر الإمكان إبقاء المسافة ثابتة. وحتى إن حدث بعض الاقتراب يُحاول بكُل ما أوتي من فزع أن يُعيدها سيرتها الأولى. كيف وصل لذلك؟ ولِم؟ لا يريد أن يتذكر. ولكنه أكيد أنه جُبل على ذلك منذ ولادته تقريبًا. كانت الصفة محمولة في جيناته، فقط احتاجت المؤثر اللازم لتفعيلها.

وهكذا كان الأمر. خرجتِ من عالمي يا جميلتي، فبقيت آثار عينيك في عيني وشفتيك على شفتي، وروحك في قلبي. قُلتِ قبلا إنك ستُعطينني روحًا مُقابل قلبي، ثُم اتضح أنك حصلتِ على عقلي في تلك الصفقة الظالمة. وها قد حاولتُ على مدار الأيام التالية استرداد ما حصلتِ عليه. الغريب أنني تحسّنتُ بسرعة، بمُجرد انتهاء الليلة الأولى كُنتُ قد استرددتُ عقلي. وعادت منظومتي العقلية تعمل بانتظام. بينما بقيت آثار روحك في جسدي بضعة أسابيع، كان عليّ فيها ممارسة كل الطقوس العقلية والانغماس فيها، لطرد الروح التي اغتصبتني. وإشعال محرقتي الخاصة لكل ما مررتُ به على أنقاض ذكرياتنا. هي طقوس نسيان الإنسانة الوحيدة التي خطفت قلبي ولم تُعِده. وكان هذا عادلا ومُناسبًا لي. فقد شعرتُ أنني صرتُ شديد المناعة للبشر الذين طالما فقدتُ الإيمان بهم. انتابني شعور مُذهل أنني بلا قلب، وأنني أخيرًا تحرّرت. ولم تُفلح مُحاولات عينيكِ في الأيام والأسابيع التالية لأسري من جديد. تعلمتُ الدرس جيدًا وبالطريقة الصعبة. كان عليّ أن أدهسكِ في طريقي لبلوغ حلمي. عادت أفكاري وطموحاتي تزورني ليلا. نتضاجع في صمت إلى أن نُنهك وأغفو لأُنفّذ ما طمحتُ إليه ليلا. زاد ابتعادي عن الفريق اجتماعيًا بعدما كُنتِ قد نجحتِ في إسقاطي في فخ الاهتمام

بالبشر. وتجنّبتُ الأماكن التي خُضتُها خلفِك، بل تجنبتُ الأماكن وزيارتها وعِشقها. أغلقتُ عالمي عليّ، بين المعمل والمكتبة ومنزلي. كانت كُل زياراتي للولايات والبُلدان الأخرى زيارات عمل صارمة، يحفّها أحيانًا بعض التفقد للمعالم بصورة مُصادفة شاردة أو لاجتماع عمل في الغالب. أبقيتُ على شقة (ووتربول) رغم راتبي الذي تضخّم على مر السنوات، ليكون شاهدًا أبديًا على قوتي وسيطرتي المُطلقة على حاضري ومُستقبلي. كأنما أُحاول عبثًا أن أثبت لقلبي -الذي خرج ولم يعد- أن شيئًا لم يحدث هُنا يومًا. لم تشهد الجدران عِناقًا ولم يشهد الشِباك فِراقًا. قفزتُ لأصير المُشرف الأول على المشروع بعد أستاذي (تَوايكر). ولم يكد يمر العام الأول بعد فِراقنا حتى سألتُ ذات صباح بفتور عن غيابكِ، فقالت لي (إيملي) ببساطة تبدو فيها ملامح اتهام:

-استقالت .. رحلت إلى (نيويورك).

وعندما لم أشعر بأي انطباع لدى سماعي خبركِ، علمتُ أنني تحررتُ بالكامل منكِ. بلغتُ القوةَ عن ضعف سابق. فلم أعد أضعف أو أخشى شيئًا. خُضتُ أيامي وسنواتي التالية، مُتدثرًا بدفء أحلامي وطموحاتي التي لا تنتهي. نزلتُ إلى مصر مراتٍ قليلة طول رحلة بحثي. أهي ثلاث مرات؟ أهي أربعة؟ لم أعُد أذكر. فلقد فقدتُ اهتمامي بالبشر منذ أمدٍ بعيد. وقد جرّبتهُ مرة واحدة علمتني ألا أفعل تلك الحماقة مُجددًا، مهما كانت العواقب. كما أن مصر لم تعد لي أكثر من بيت يسكن فيه أهلي الذين لم أعُد أعرفهم أصلا. نكتفي بأحاديث مُتفرقة عن الأحوال والأشخاص والأخبار دون اهتمام حقيقي، على الأقل من ناحيتي. وينتهي الاتصال أو اللقاء اللعين دائمًا بسؤال أبي وأخي:

-مش ناوي تفرّحنا بقى؟

فلا أُجيب. لأنني أعلم أنها مُجرد أسئلة يفرضها عليهم واقعهم الجمعي. إذا كُنت عَزَبَا فلا بدّ أن تُسأل عن الزواج. وإذا كُنت مُتزوجًا حديثًا فلا بُدّ أن تُسأل عن الأطفال. وإذا تأخر الإنجاب يأتي السؤال الخافت اللعين: أهو مِنك أم منها؟

الزواج في هذا العصر بالذات، مُجرد منظومة فاشلة يتوقع الجميع ببلاهة نجاحها. هو الفخ المُغرق في الحماقة الذي يُصر الجميع على خوضه. كُل رجُل يدخله واثقًا، ظانًا منه أنه سينجو، سيخوض أحراشه ثُم يخرج سليمًا مُعافى، حُرًا لنفسه. ولكن هيهات أن يتعلّم البشر. لن يكونوا بشرًا إذا فعلوا.

تمر الأيام، وبحثنا يتطوّر، ولُغتنا الجديدة تنشأ، وفريقنا يتضخّم إلى عشرين عالمًا شابًا، ما زلتُ حتى الآن أنسى أسماءهم وأخطئهم. نُطلق على النظرية التي أسهمت في وضع لبناتها اسم نظرية الأنغام Melody Theory. ومع منتصف عام ٢٠١١ نكون على وشك إنهاء وضع الأبجدية الخاصة بمُخاطبة الجُسيمات. أزور (جنيف) غير ذات مرة، مُستنشقًا هواءها الصحو على ضفاف نهر الرون، ومُستمتعًا بليله الساحر الذي استوحاه فان جوخ في إحدى لوحاته. إذ تدعونا المنظّمة الأوروبية للأبحاث النووية CERN، أكثر من مرة لمتابعة أبحاثها المهمة في المجال، كما تزورنا وفودهم مرات عديدة لمُتابعة الإنجاز المُدهش. أقول في إحدى المؤتمرات التابعة لـMIT مُبتسمًا بفخر أمام جمهور الباحثين. سامعًا همهماتهم تتباحث في الرتوش النهائية:

-قريبًا جدًا. عندما ننتهي من إنهاء الأبجدية .. سنتمكن من فرض سيطرتنا التامة على الجُسيمات. ستفتح لنا اللُغة آفاقًا غير مسبوقة في التحكُم بالجسيمات سواء في الحركة أو التفاعُل. مما سيؤدي بالضرورة للتحكُم الكامل بالذرات من حيثُ المحتوى الكمي والكيفي، دون الحاجة لأية مُسرّعات جزيئية. بل ودون الحاجة لأية أدوات أو مجالات كهرومغناطيسية!

وأُضيف بلهجة أقوى أمام عيونهم المُنبهرة المتشوقة للعمل في المجال الجديد:

-فقط بمُخاطبة الذرات بلُغتها. سنتمكن من تخليق العناصر نفسها داخل المُختبرات. من الهيدروجين إلى الرصاص ومن اليورانيوم حتى الذهب!

رُشحنا لنيل جوائز عِدّة. حصدناها كُلها بلا رحمة. صارت أسماؤنا معروفةً في الأوساط العلمية. وأتت الثورة المصرية لتزيد من رواج اسمي، بعدما لعب الإعلام على مشاعر الشعب البائس، ودفعهم للبحث عن المصريين بالخارج. العباقرة المُنتظَرين، الذين سيحللون كُل المشاكل ويواجهونها بجرابهم السحري الذي لا ينضب من الحيل. بينما الحقيقة أن كثيرًا من مصريي الخارج قد انقطعت صلاتهم بالبلد وظروفها، بل وذويهم في بعض الأحيان. وحتى معلوماتهم عن البلد لا تتعدّى قراءة عناوين الصُحف المصرية أو مُتابعة مواقع التواصل الاجتماعي أو القنوات المصرية المُستقلة التي تأخرت كثيرًا في تحررها من أسر الأنظمة القمعية. والتي غالبًا لا تنقل الحقائق بصورة أمينة وإنما بشكل مُضخم مُبالغ فيه. ولكنني على كُل حال حرصتُ على الإدلاء بدلوي في مشكلة النهضة المصرية، إذ وجدتُ من المُمتع التعامل مع الثورة وتطبيقاتها كفكرة مُجرّدة من تصرفات البشر وأنانياتها وأطماعهم

ومؤامراتهم. كما وجدتُ في ذلك نوعًا من إشباع الرغبة في الشعور بالنجاح بين ذويّ، بعدما ظللتُ فترة طويلة في غياهب الظلام. شاركتُ بلدي ببعض من فِكري، مثلما شاركتُها ببعض من قلقي واهتمامي في أثناء وقوع الأحداث الدامية. تابعتُ -في فراغي القليل- الفضائيات المستقلة ومواقع التواصل الاجتماعي، مُطمئنًا على أهلي بصفة مُنتظمة قدر الإمكان. وعندما أُذيع بيان التنحّي، خالطتني حالة غريبة ما بين انعدام الشعور والانشراح. لم أستطع بالضبط فهم شعوري تجاه أول نجاح حقيقي تحقّقه بلادي منذ أمد بعيد. ولكنني حرصتُ على تهنئة أبي وأخي عبر المهاتفة والإنترنت. وأصاب قلبي قدرٌ غريب من الحماس لما هو قادم، قبل أن يحدث ما يحدث من عَبث.

في الحادي عشر من أكتوبر عام ٢٠١٢، أتاني اتصال هاتفي من دكتور (توايكر)، أستاذي الذي قال بصوته الذي زاد قوةً في الهاتف:

-أُريدك أن تمر بي في مكتبي يا (شومان)..لدينا موضوع مهم لنتحدث بشأنه.

دفع اتصاله تساؤلاتي العالقة في ممرات مخي، لتثور في محاولة بلوغ ما يرمي إليه. وهكذا قُدتُ سيارتي (فولكس جولف) الجديدة، عابرًا فم النهر إلى مكتبه في الجامعة. انطفأ الهامش المكاني وتضخّمت الأفكار بهامشها الزمني لتطغى على عقلي. وهكذا دون أن أنتبه، وجدتني أجلس أمامه في المكتب. رحّب بي سريعًا وبصورته العملية التي أُحبها. قبل أن يقول ببطء:

-هل تذكُر حديثنا الأول عندما طرحت علينا تصوّرك لنمط الذبذبات؟

فابتسمتُ بارتباكي التقليدي المعروف له:

-بالتأكيد سيدي .. هل طرأ جديد؟

نظر إليّ طويلاً، قبل أن يتناول من سطح مكتبه سيجارًا ضخمًا، يلتقمه قبل أن يُشعله بكَبريتٍ. وينفث دُخانه الكثير ذا الرائحة التي أُحبّها في استمتاع. ثُم قال ناظرًا إليّ كأنما يختبرني:

-اليوم تلقيت اتصالا من وكالة الأمن القومي. طلبوا مُقابلتي وأرسلوا بالفعل عميلا لهم إلى مكتبي. اجتمعنا سويًا مع مستر (هنري).

حدّثني الرجل عن طموحهم. يريدون التعاون معنا في مشروع تطوير الجهاز PR. كما قُلتُ لك يومئذ..الجهاز سيكون له قيمة إستراتيجية عسكرية هائلة. وهذا بالتأكيد الذي دفعهم لتقديم عرضهم المُغري جدًا لتمويل أبحاثنا في هذا الشأن. بحيثُ يصبح لهُم فيما بعد الحق الحصري في تملُك التطبيق العسكري للجهاز.

توقف عن إلقاء كلماته الدُخانية المعبقة بالتبغ. صمت مُختبرًا قسماتي وصمتي. قُلتُ له في حيرة حقيقية:

-ما رأيك في الأمر؟

كُنتُ أعلم أنه يملك من قوة الشخصية والرؤية الواضحة ما يمكنه من تحليل الخيارات المُناسبة، بعكس شخصي الذي يرتبك بمُجرد الخروج من الحيز العلمي إلى مُعاملات البشر ومفاوضاتهم. أحسست أن طلبه رأيي أو مشورتي بتلك اللهجة في ذلك الأمر لا يعني إلا أمرًا واحدًا، أنه قلقٌ، وربما غير مُقتنع بالعرض. وكان ذلك بالفعل ما قاله لدهشة نفسي التي قلّما تفهم البشر:

-العرض مُغرٍ بالفعل. ولكن التطبيقات العسكرية للجهاز تُثير فزعي. تخيل معي القوة التي يمنحها السلاح لمالكه. إنها قوة السيطرة الكاملة على الطبيعة. بل إن الجهاز يُمكن توجيهه كما تعلم لتطوير سلاح قادر على خلخلة البنية الخلوية للإنسان. تصور معي سلاحًا صامتًا قادرًا على تفكيك الإنسان جزيئيًا وتحويله في ثوانٍ إلى كتلة غير مُحددة المعالم من ركام ذري!

حركتُ شفتي لقول شيء، ولكنه أضاف مُبتلعًا ريقه ومطفئا السيجار بتوتر لم أره عليه من قبل:

-أنا مواطن أمريكي وطني طبعًا وأُحب أن يملك جيش بلادي أقوى عتاد في العالم. ولكن ذلك السلاح .. إنه شرٌ خالص. لا يُمكننا حتى مُقارنته بالقنابل الهيدروجينية .. فالقنابل النووية لا يُمكن استعمالها على مدى واسع في الحروب..أما ذلك السلاح فيمكن للجميع استعماله بدءًا من عصابات تهريب السلاح الصغيرة حتى الدول العظمى. لأنه انتقائي ولا يُسبب فوضى وإشعاعا كما تعلم.

وافقتهُ في قرار نفسي. وهرعتُ أسأله:

-ولكن ألا ترى سيدي أنه من الغريب أن تأخذ رأيي أنا العربي في الأمر؟ بعد كل ما جرى؟!

أطلق ضحكة قصيرة تبعها سُعال خفيف. قبل أن يُجيب:

-من خلال تعاملي الطويل معك يا (شومان) .. أنت لست عربيًا. بل إنك لست من نوعية البشر التي لا تنتمي لوطن بعينه. إنك أمريكي أكثر من الأمريكان

أنفسهم! وأنا أعلم المبالغات الإعلامية التي أُطلقت على العرب منذ الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها ..ومن خلال قراءاتي عنكم وعن الإسلام أعلم أنكم منقسمون تجاهنا وتجاه الغرب العلماني إلى مذاهب كثيرة. وما أوقن منه أنك لا تنتمي إلي أي منهم كذلك، أتظن أن وكالة الأمن القومي حمقاء لمحاولة عقد صفقة مع أطراف تجهلها؟ إنهم يعلمون عنا أكثر مما نعلم عن أنفسنا يا صديقي!

ابتسمتُ لكلماته. ثُم أضفتُ سريعًا، ملوحًا بيدي:

-هل يعني عرضهم ذلك أننا قادرون بالفعل على الرفض؟!

قال بجدية:

-أرى أن خلفيتك العربية بدأت تظهر مُجدّدًا! نحن لسنا في بلادكم حيثُ يستطيع الجيش الاستيلاء على أي شيء دون أن يُساءَل. ليس لأن بلادنا تعتمد الديمقراطية الحقّة النزيهة طبعًا! بل لأن كُل الأطراف هُنا تملك ما ندعوه أوراق ضغط.. وهو ما يجعل اللُعبة متوازنة في الغالب. وفي حالتنا بالذات وبعد الضجة التي أحدثتها نظريتنا الجديدة وانتشارها وسط الفيزيائيين، من الصعب أن تستولي أية جهة على المشروع وتفرض السرّية عليه. فالعديد من الدول الآن تعمل وتبحث في نفس المجال لعلّها تسبقنا بخطوة. فلم يعد الأمر يا صديقي كما كان قديمًا..انتهى عصر احتكار الفكرة وأتى عصر السبق إليها، وإن لم تسبق إليها فلتسبق إلى تطويرها، وإن لم تلحق تطويرها فلتسبق إلى تطبيقها! كُل شيء صار مُمكنًا!

بدا كلامه بالغ المنطقية، ولكنني أضفتُ بهدوء:

-ولكنني أرى ألا نتسرّع في القرار يا سيدي. أرى أن نُمهل أنفسنا فرصة للتفكير الجيد في العرض. ودعنا لا نغفل أن للعِلم وجهين دائمًا .. وكما سيعمل الجيش الأمريكي على بحث الفكرة عسكريًا .. ستعمل الجيوش الأخرى التي تملك الموارد على بحث نفس الفكرة.

ضحك (توايكر)، ولم يسعل هذه المرة بينما يستعيد صوته القوي:

-أعربي أنت؟! أنت شيطان يا (عمرو)! وأين كلماتك السابقة: لن نسمح لهم؟

ضحكتُ. قبل أن أُجيب مُداعبًا حاجبي بأناملي:

-كُنتُ ساذجًا على ما يبدو يا سيدي. وكما قُلتَ إنها لعبة أوراق ضغط.

وهكذا تمّ جمع الفريق، ووضعنا الأمر على أجندة البحث. فالمنطق يقول إنها فرصة لا تُعوّض. لا أعني الجانب المادي المُجزي لنا، ولكنني أعني الجانب المادي والتقني الذي سيوفّره لنا الجنرالات من أجل وضع النتائج أمامهم، بالتمويل الخُرافي سنتمكن من القفز بالمجال إلى مستوى جديد، قال (توايكر) إن العالم الآن يدور حول السبق إلى الفكرة وليس احتكارها. وهذا يعني أن علينا أن نكون أكثر كفاءة، أن نكون أكثر سرعة وأكثر خِفة من الجميع.

وعندما نامت رأسي على وسادة أفكاري المحمومة ليلا، تساءل ذلك الجانب البعيد المُظلم المُهمل في نفسي: ماذا سيقول عليك المصريون؟ أهلك الذين تحمّست لثورتهم وأحلام نهضتهم؟ لن تكون عميلا عاديًا للأمريكان، بل

ستكون الحاوي الذي يمدّهم بنيرانهم السحرية، مصدر قوتهم وجبروتهم، التي يستخدمونها لطعن أهلك في ظهورهم.

ولكن من يعلم حقيقةً أين الخير؟! من يعلم حقيقة الحقيقة على كُل حال؟! ربما يكون الخير كُله في دفع الفتوة إلى أقصى جبروته. أوليست تلك الفلسفة الإلهية المُتبعة أحيانًا؟ يُمدد للقوم الظالمين حتى يُهلكهم بأعمالهم؟ ما الضير في ذلك إذن؟ كما أنها لُعبة توازن قوى في النهاية، وسيظل السلاح مثله مثل غيره من الألعاب السحرية الأمريكية مخبوءًا في صندوقهم الأسود الذي لا يُخرج للعالم إلا الفُتات. هذا إن لم يصلوا إليه دون فريقنا من الأساس. فأكون أنا وفريقي الخاسرين الوحيدين في الأمر. ولكن على الجانب الآخر يُمكننا القول إن رفض العرض قد يؤدي لعدم سبق الأمريكان عسكريًا وبالتالي ربما يحدث اختلال في موازين القوى، وابتعاد الحلوى عن أيديهم. مما قد يُسهم على المدى الطويل في تخلي الشركات والمؤسسات الكُبرى عن جوادهم المريض. ولكن أي انهيار أسرع وأفضل؟ انهيار تملُك السلاح والإغداق الجنوني على تسليح لن يُستخدم إلا في أضيق الحدود؟ أم انهيار عدم تملُك السلاح وفقدان السبق؟ لا أدري. بل وربما كانت كل تساؤلاتي خاطئة وفهمي السياسي قاصرًا. فتلك هي المرة الأولى التي أشغل فيها بالي بتوازنات العالم التي أجهلها ولم أطمح يومًا لفهمها. هي توازنات غير علمية حتى وإن أجمع الاقتصاديون والسياسيون كلهم على علميتها. لا تعتمد على مُقدمات وأسباب واضحة، بل دائمًا ما تكون هُناك مُقدمات وأسباب خفية، وقد تظل مخفية عن صفحات التاريخ للأبد. فالتاريخ هو الملحمة البديعة التي يقرأها الجميع ويدرسها. وعندما يأتي الاختبار، يلقونها في أقرب سلة قِمامة. مالي أنا ومال التاريخ بدهاليزه وأُممه؟ أنا فقط عالم فيزياء جُزيئية

يضع الرتوش النهائية في كتابة لغة مُخاطبة الجزيئات، كهدف أول، يليه تركيب اللغة التراكمية لمُخاطبة الذرات كهدف ثانٍ، ثُم تركيب اللغة فوق التراكمية لمُخاطبة الأجسام المرئية والتحكُم بها كخطوة ثالثة وأخيرة.

هاذيًا، همستُ لنفسي بينما يصرعني النوم:

-أنا سُليمان الذي على وشك اتقان لغة الوجود .. ولكنني لستُ حكيمًا .. للأسف!

٧

يتجشأني مُستنقع الذكريات. يلفظني الوحل الذي لا قاع له إلى السطح. إلى العالم المشوَّه الذي خلقته، المزيج المسخ من مصر والولايات. من القاهرة وبوسطن. يختلطان ببعضهما بعضا في صراع أو عِناق غير مفهوم. بينما يقف الاستثناءان الوحيدان في عالمي بكل وضوحهما أمام بعضهما بعضا. مُتقابلين كأنما يستعدان لمُبارزة ضارية. وأنا وسط البيتين أُطحن بكُل منهما على حدة وبكليهما في آن واحد. سيوف الذكريات الباردة تنغرس في لحمي الحي مُنتظرةً موتي. غير عالمةً أنني أيضًا أنتظره. أحلُم به منذ الشباب ولا تنافس أي فكرة داخل عقلي فكرة النجاح سوى فكرة الموت. ليس أي موت بل الموت شابًا. كنجم بلغ أوجه ثُم انطفأ فجأة، ليؤول إلى ثقبٍ أسود، دون شيخوخة مؤلمة مُنهكة كعذاب ضمير لا ينخرس. متُ قلبيًا، مُنذُ أمدٍ بعيد، ربما منذ رحيل الأم أو منذُ خطفت قلبي (ليز) ولم تُعِده، أو ربما قبل ذلك بكثير. لا فارق، المُهم أن يأتيني الموت على جواده الأسود ليختطف جسدي

الخاوي. لقد أثبتُ وجهة نظري وحققتُ نجاحي الخاص في الحياة. وإن لم يأتِ سأنتظره بينما أدور في الساقية التي خُلقتُ من أجلها. سأعمل أكثر وأبحث أكثر وأطوِّر أكثر، وسأنجح أكثر وبالتالي سأموت أكثر! موتًا مؤلمًا بطيئًا أشبه بالسُم، ينتزع عصارة شبابي ببطء ويقلّني إلى الشيخوخة التي لن أحتملها.

إن كان ما أعيشه الآن هو هذيان احتضاري، فسأكون شاكرًا جدًا يا رب. أنا فقط أطمع في فهم ما أمرُ به. الشيطان العقلانيّ في جسدي لن يرضى بنهاية مُلغزة مثل هذه. منذ خُلقتُ وهو يصرخ داخلي طالبًا المزيد من العِلم. تحقق له ذلك ولكنه لا يشبع. نارٌ وقودها المعرفة.

لا ضير من مُحاولة الفهم. لا ضير من استكمال ما بدأته في الحياة. أترك غريزتي تُحركني من أمام منزل (ووتربول) القابع في برودة العالم الذي خلقتُ. وأستدير ناظرًا للجهة المُقابلة، حيثُ يقبع منزل (الفلكي) مُنتظرًا. يقف مُتربصًا نشوان كأنه ذنبٌ لا يُغتفر. أقاوم كثيرًا. في داخلي أتوسل، وأرفض، وأصرخ: لا. ولكنه يبدو أقوى، يجذبني بشباكه سحرية إليه، كالمغناطيس. بأقدامٍ فشلت في المقاومة، أتقدّم نحوه، أعبر الشارع النظيف المرصوف إليه. وأخيرًا أبكي. تنساب الدموع التي ظننتُها لن تأتي أبدًا. بينما أصعد الرصيف، وأقف على بابه في رهبة. هو صراعٌ غيرُ محسومٍ، إذن. ويبدو أن عليّ حسمه أو عليه هو حسمي!

٨

أمام بوابة البيت المُرحبة، الحديدية ذات اللون الصدئ، يعود (عمرو شومان) طفلا. إن كان له أن يجمع فُتات الذكرى، فهو موقن أنه كان طفلا استثنائيًا. يحيا عالمه الخاص في قوقعته الصغيرة. كان والده يقول مُبتسمًا:

-طول عمرك يا (عمرو) كده عايش في عالم لوحدك .. حتى وإنت صغير ماكنتش بتبكي كتير زي العيال الصغيرة. كنت بتقعد ساكت كده تلاعب نفسك وتزقطط لنفسك كأنك عايش في عالم تاني.

(صفي الدين)، الوالد القوي، والجامعيّ الفذّ، الذي قاد سفينة بيتكم بأمان، رغم كُل الهزات التي أثرت فيه، مثلما أثرت فيك وأخيك. تُحاول البحث في أعماقك عنه فلا تذكر منه سوى هالة تصنعها ملامحه في وجدانك. كانت تلك الهالة أشبه بجذوة نار لا تخمد، أهي نار العِلم أم النجاح أم الطموح؟ أم جميعهم؟ كُنتَ دائمًا لا ترى فيه الأب بقدر ما ترى فيه القدوة، التي جعلتك رغم القُرب منه بعيدًا. دائمًا ما كان هُنالك ذلك الحاجز الغريب الذي ينقل والدك من مقام الأب إلى مقام القدوة المُلهمة. ما أثار حماسك الطفولي ثُم اندفاعك المُراهق ثُم أحلام شبابك هو نجاح ذلك الرجل في بيئتكم المصرية التي لا تسمح بالنجاح، هي بيئة تُحب الفشل وتعشقه، وتحنو على الفاشل لتُجلسه في أقرب مقهى يُدمر حياته ببطء، وسط الدخان وأدوار الدومينو والطاولة والشطرنج التي لا تنتهي. بنيتَ عالمك وحدك، مُستنيرًا بقدوة الأب فقط. تبحث في أعماقك عن مزيد من الصور له فتعجز. هي ذاكرتك الضعيفة دومًا تجاه المواقف والأحداث المُرتبطة بالبشر. ذاكرة شديدة الانتقائية تجاه العِلم وشديدة الانتقامية من البشر. تبحث في وسط رؤيتك الكريستالية عن الدفء الإنساني المُفترض فلا تجد. أهو بسبب غياب الأم؟ ماتت أُمك وأنت

بعد في السادسة من عُمرك. قيل إنها نائمة وسوف تفيق لتلعب معكم. ثُم قيل إنها سافرت وستعود. ثُم قيل إنها لن تعود فهي عند اللّه. وبعدما بدأت مُراهقتك انتبهت فجأة أن معنى ما قيل قديمًا هو أنها ماتت. هكذا تبدّت لك فجأة حقيقة اختفائها، في ليلة شتوية لا تذكر منها إلا أنها شديدة البرودة ومُذكرتك المفتوحة على التركيب الذري اللعين! وهكذا في ذات الليلة المُسهدة، بينما تحلُم بكونك العالم الذي سيحصد نوبل حتمًا، تدفق غضبك من نفسك بسبب السيدة التي لا تذكر ملامحها، والتي تعلم أنها أُمك، والتي تصادف لسوء الحظ أنك أدرك أنها ماتت! في اليوم التالي، فتحتَ أدراجك القديمة بالصندرة، وعبثت بالصور وجروح الذكريات. ثُم التقطت إحدى صورها وأخذتها للاحتفاظ بها. كُلما تضطرب وتتقلقل روحك كُنت تُخرج الصورة من تحت زجاج المكتب، وتظل تنظُر إليها حتى تنام. تزورك السيدة الجميلة في أحلامك أحيانًا، فتُملس على شعرك الكثيف الأسود الناعم بحنان. وتبتسم شفتاها وعيناها. فترى في وجهها ملامحك التي ورثتها عنها. سمعتها ذات مرة تُغني لك في الحلم بينما تُمسّد شعرك وتمسح رأسك المُستقرة في حِجرها:

-نام يا حبيبي نام .. وأنا أجيب لك جوزين حمام..

فلا ينتابك إلا مزيدٌ من النُعاس رغم أنك نائم أصلا. وتزداد قدماك الباردتان في الشتاء دفئًا. في حِلم آخر تقول لك:

-اوعي تنسيني يا عمورتي..ده إنتي شبهي.

فتستيقظ دامعًا ومُتأكدًا أنها قد قالت لك ذلك ذات يوم. ولكنها ذاكرتك الحمقاء الفاشلة. غطَّت أحلامك بأُمك رسوماتك في الطفولة، وجدران سِجنك في المُراهقة المؤلمة. وعندما دَخلت كُلية العلوم بنجاح ساحق في الثانوية العامة. تبخّرت أحلامك بها، ولم يبق لك سوى الطموحات العلمية التي أقلقت مضجعك وأحلام بنيتك العلمية الكريستالية.

ولكنك الآن تتذكّر الحُلم الغريب الذي انمحت بعده ذكراها من خيالك، وضاعت صورتها التي كُنت تحتفظ بها في واقعك. حَلمت بها تبتسم لك بعينين دامعتين، رأيت فيهما لون الوداع، لم تملك أمامها إلا البُكاء. طبطبت على ظهرك بدفء وهي تقول:

-ماتخافش يا عُمري .. ماتخافش.

وجاست بأناملها خلال وجهك، ماسحةً دموعك. ثُم قامت من جلستها في الشمس الدافئة وتركتك تُقاوم البُكاء بصعوبة. ثُم سمعت صوتًا يهمس لك:

-ما تعيّطش يا (عمرو) .. أوعى.

كرر الصوت كلماته الهامسة، فاسترقت السمع ظانًا أنها أُمك. ولكنك مع كثير التركيز اندهشت من مصدر الصوت. كان الصوت قادمًا من الصخرة النائمة جوارك. كانت صخرة بُنّية اللون، في حجم البطيخة الكبيرة. وكُنتَ مُتأكدًا أنها هي التي تُحادثك .. أنها مصدر الصوت. وبينما تستعد للبدء في طرح أسئلتك المندهشة، استيقظتَ. وعندما انتبهتَ من استيقاظك انتابك شديد الخجل. فقد كُنتَ يا ابن التاسعة عشرة من العُمر غارقًا في بولك. انتابك القلق

مما حدث عِدّة أيام، وعندما لم يتكرر التبول الليلي ولا الحُلم، هدأت نفسك واستعدتُ كريستالتك العلمية التي لا تزال يانعة.

أكان حُلم الصخرة هو تأويل ما سأكتشف في مُستقبلي؟ أو ربما هو بداية البذرة التي نُسجت في خيالي؟

أُحاول ملء هول الفراغ الذي تركه موتها. أحاول تذكُر ماذا حدث وماذا قيل وقتئذ فلا أقدر. ولكنني أكاد أرى أشباح أشخاص حاولوا أن يكونوا بدائل في بعض الأحيان. مثل المُربية (سميرة) التي لازمتنا بضع سنوات، ولم تنجح إلا في طبخ طعامنا والعناية بي خاصة في البداية. وخالي (خالد) وزوجته (عفاف) اللذين حاولا قدر استطاعتهما، ولكن تيارات الدُنيا والأسرة الوليدة كانتا أقوى. ومثل جدي وجدتي –لأمي- واللذين حاولا قدر استطاعتهما تعويضي و(أحمد) عنها. ولكن لا عِوَض. كانت مُحاولتهما أشبه بمُسكّن موضعي ضعيف. رغم حُب (أحمد) الجمّ لجدّي (حمدي). وحُبي الأكبر لجدتي (جميلة) التي كانت تأخذني على راحتي تمامًا، ربما لأنني كُنتُ آخر العنقود. أو ربما لأنني أشبه ابنتها وهي تُشبه أُمي. كُنا نبيت عندهما في الإجازات، يستمتع (أحمد) كثيرًا بحكايات جدي التي لا تنتهي وأحيانًا أُحب سماعها. وأستمتع أنا بالجلوس الهادئ مع تيتة في البلكونة، تصقل إتقاني للصلاة وتحُفظني بضع سور من القرآن أحيانًا، ونلعب «الكوتشينة» أحيانًا، و»ملك وكتابة» أحيانًا. تحكي لي عن أمي، بنفس عينيها الشقيّتين الدافئتين والتي امتصّ الزمن كثيرًا من رحيقهما. تحكي وتضحك وتبتسم وتعبس وتدمع، أسألها عن دموعها فتُجيب أنها تذكرت واحدة تعرفها. أتلقى الحكايات

الكثيرة المُتشعّبة ثُم أنساها. وتضحك هي من نسياني للحكايات رغم تفوّقي في الدراسة.

-إنت بتجيب الدرجات الحلوة دي ازاي يا واد. دا إنت بتنسى أكتر مني!

فأضحك بلا جواب. وتظل تُناكف في أخي مُقارنةً شطارتي بدرجاته المتوسطة في الدراسة. قائلةً لجدي:

-كفاية حكاياتك وسرحانك بيه يا حاج .. الواد دماغه هتبوظ.

فنضحك أكثر. ويقول جدّي مُبتسمًا:

-أهي مامتك بقى زي جدتك بالضبط .. لمضة كده.

كان ذلك في أيام الطفولة السعيدة الأولى، عندما كانت الأم لا تزال (مُسافرة) ولم تعُد بعد. أما أبي فعلى حد ذاكرتي الضعيفة، لم أشعر مرة باهتزازه وتأثّره. ربما لأنني كُنتُ صغيرًا، أو لأن تحُيزي لأسطورة الأب القوي الذي يقهر كُل الصعاب قد محت الحقيقة من مخي. وعندما شببتُ أنا وأخي عن طوق الطفولة، كان الجدّان قد شبَّا عن طوق الكهولة إلى الشيخوخة بمشاكلها التي لا تنتهي. اندمج (أحمد) في صداقاته وعلاقاته التي سمعت عنها من زملائنا في المدرسة، واندمجتُ أنا في عالمي الخاص، من تفكيك اللعب لفهمها إلى مُطالعة كُتب ومجلات العلوم في المكتبة، إلى كتابة المُعادلات الكيميائية وحفظها في وقت الفراغ. وعندما بدأ تعرُفي إلى الفيزياء في الثانوية، أحببتُها أكثر. وطالعتُ مناهجها التي كُنتُ أعرف عناوينها من مطالعاتي السابقة. تعمقتُ فيها بعيدًا عن المنهج المُقرر. ولم يكن لدي مُعلم مُلهم مثلما

يحدث في كثير من سير العُلماء بمراحل المدرسة. كُنتُ أنا مُعلمي، ومُلهمي الوحيد هو والدي. هو النموذج، المثال الذي صُنع بالمُذاكرة على اللمبة الجاز وتعب السنين والصلب في غرف العمليات. ما زلتُ أذكر الانفجار الذي حدث بمخي في الثانوية عندما قرأتُ عن النسبية ونظرية الكم. إذ اختلفت رؤيتي للعالم تمامًا بعد القراءة المُتعمقة في هاتين النظرتين الثوريتين. عِندئذ علمت أنني خُلقت لأعمل في ذلك المجال. حتى إنني بدأتُ في وضع نظرياتي الخاصة الساذجة طبعًا، لضيق الوقت وعدم التركيز التام في الفيزياء بسبب المواد الأخرى. حصلت على شهادة تفوقي في الثانوية العامة، وكدتُ ألحق بركب الأوائل. وعِندما طرتُ بالنتيجة فرحًا رغم علمي بأنني سأحقق ما تمنّيته، هنأني أخي بابتسامة واسعة، تحمل كثيرًا من اللامبالاة وعدم التركيز. وسألني أبي فَرحًا:

-ها.. هتعمل إيه يابطل؟

قُلتُ له:

-كلية العلوم إن شاء الله.

بدا عليه نوع من الوجوم. ربما توقّع الأب أن يورّث المهنة لابنه، مثلما أورثه التفوق والنبوغ العلمي.

فأجبتُ مُرتبكًا مُستدركًا كأنما أدافع عن ذنب:

-حضرتك عارف أنا من زمان بحب العلوم قد إيه.

فاتجه إليّ، نظر بعينيه في عيني، وابتسم بكثير من الحنان والفخر البادي في نبرات صوته الوقور:

-ربنا يوفّقك يا ابني. شد حيلك.

وهكذا سلكتُ مسلكي في العلوم، ثُم نبغتُ فيها، واخترتُ الفيزياء، واستقرت بوصلتي على الفيزياء الجزيئية كفرع واعد بالغ الأهمية. أُخرجت من الجيش بالواسطة الأبوية، أسوة بأخي، وحصلتُ على الماجستير. علمتُ أن طموحي أكبر كثيرًا من مُجرد الأستاذية هُنا. طرحتُ على أبي مسألة السفر في بعثة بوسطن التي تقدمتُ بها إلى الكُلية، وحصلتُ عليها بتوصية خاصة من أساتذتي، كشهادة قوية على نبوغي، فلم يبد عليه الاندهاش. قال بقوة شكيمة اعتدتُها عليه:

-ربنا يوفقك يا ابني .. هو ده الصح.

استقرت الروليت على شخصي. فزاد يقيني بأن القدر يُعبّد لي الطريق الحتمي للنجاح. ودون تردد، أدرت عجلة الروليت مُجددًا، في بحثٍ نشوان عن مزيد من الأمارات على النجاح، وقد كان. اختارتني الروليت مرة تلو الثانية تلو الثالثة تلو الأخرى. هكذا حتى تشكلت جزيئات نجاح العالِم المصري النابغ (عمرو شومان)، والتي لا تحتاج لقارئ جُزيئي لفهمها.

هأنذا، واقفٌ أمام بوابة بيتك يا أبي. عُدتُ إليكَ مُجددًا. بعد سنوات الكرِّ والفرِّ، عُدتُ. أهي عودة حقّة؟ هل أنا في القاهرة أم في بوسطن؟ أين يقع جسدي الذي يهوي في هذا العالم الكابوسي الذي لا فَكاك منه؟ لم أعُد أذكر. حتى الحاضر صار تذكّرهُ هُنا صعبًا. ربما أصعب من الماضي القريب، لكنه ليس بالتأكيد أصعب من الماضي البعيد. ربما لأنني أقاوم. لا أريد التذكُر. انتهيتُ من البشر ولا أريد المزيد منهم. لذا تأتي ذكرياتي عنهم غامضة، مُتقطّعة، مُبعثرة.

ها أنا أعود يا أخي. أيها الشيخ الجليل، ومنبر الإسلام في الفضائيات، والمُدعم الأول للمشروع الإسلامي الذي يجهله الجميع بما فيهم ولاة الأمر الجُدد. قضى ضيق أُفقك وضيق أُفق رفاقك على الحُلم. اختطفتُم اللُقمة من منام الحالمين، وكنزتموها في كراسيكم وأموالكم. أعلم أنني لستُ أفضل من يتحدث عن الناس. فأنا شخصيًا لا أعُد نفسي منهم. ولكنني كُنتُ قد آمنتُ بالثورة كفكرة. أنا رجُل الأفكار. تلك هي وظيفتي ولُعبتي ومجالي. وإنني لقادر على تمييز الأفكار الجيدة من مثيلاتها الفاسدة. هي خبرات عقلية مُتراكمة لا تحتاج أكثر من مُخ مُجرّب مُستوعب وبصيرة مُستنيرة وفطنة سليمة. وما أنا أكيدٌ منه أنك وإخوانك لبعيدون جدًا عن ذلك. رغم آياتكم وأحاديثكم، رغم شفاهكم المُسبحة المُستغفرة، رغم لحِاكُم وزبيب صلواتكم التي لا تنقطع. ورغم انتصاركم الساحق على هزيمتنا النكراء باستغلال جِياع الشعب وجاهلِيه.

ما أثار دهشتي هو أنت بالذات يا (أحمد). مع تتبّعي لخط سيرنا في الحياة، منذ خرجنا من ظلمات أمّنا ووهنها. من كان ليُصدّق؟! (أحمد شومان) عربيد

المدرسة و»صايع» الكُلية، ينقلب ليصير المُحامي المُلتحي الذكي (أحمد شومان)، ثُم ينتهي إلى الشيخ (أحمد شومان)، الداعية السلفي الشهير؟! لطالما كُنا عالمين مُنفصلين قائمين بذاتهما، وقد أثار ذلك استغراب واندهاش كُل من نعرف. وأولهم أبونا، مصدرنا الأساسي الذي لم يفهم كيف لأخوين أن يكونا مُتباعدين إلى ذلك الحد. ليس الأمر كُرهًا، ولم يكُن أبدًا كذلك. هي مسألة أقطاب مُستحيلة التقارُب. وحتى إن تقاربت فقد تقاربت شكليًا، بالإجبار. أنا وأنت كالزيت والماء. لا يُمكن أن يلتحما أبدًا في شعور واحد. هي طبيعتنا التي فطرنا الله عليها. ربما الشيء الوحيد الذي أذكر أنه كان يجمعنا، هو جلوسنا أطفالا مقلوبين، ظهرانا لأرض الصالة وفخذانا مُستندان إلى حرف مقعد الكنبة، وأقدامنا في الهواء نحو السقف. نتخيل أننا نسير عليه، ونتعارك عليه مُتخيلين أيادينا كطائرات تقصف بعضها بالصواريخ. وكُنتُ دائمًا أحسدك على سبقك لي في العُمر، ومُعايشة أُمّنا فترة أطول مني. «إنت شبعت منها..وأنا مالحقتش أفتكر ملامحها» هكذا قُلتُ لكَ بحسد في عيد ميلادك السابع عشر. فرددتَ عليّ وقتئذ بتحدٍ: «ما إنت يا خويا خدت من باباك الشطارة كُلها»، وعندما كررتُ لك العبارة أمام قبرها في عامك السابع والعشرين، قُلت لي بألم ولحيتك تتحرك مع فمك: «يا ريتني ما عِشت معاها كُل ده».

اعذرني يا أخي. ولكن من «الصايع» أحمد شومان إلى الشيخ أحمد شومان؟ كيف؟ الغريب أنني لم أسألك أبدًا. وقفتُ داخل عالمي أنظر لك بينما تتسكع مع أصدقائك ليلا، وتختلس سيجارة ما بعد الاستمناء في الحمام، وتُصادق (سارة) وأخريات، ثُم تُحب (سُمية) بحرارة. وظللتُ أُراقبك بينما تتحرك من هذا النقيض إلى النقيض الآخر. تقطع علاقتك بـ(سُمية) لفاحشتك التي لم

أعلمها إلا بعد سنوات. وتتوقّف عن السجائر وتنتظم في الصلاة. تحفظ القرآن وتُرتله، وتُحضر الكُتُب والمراجع في علوم الدين والفقه. وسير المُجاهدين والصالحين. تُطلق لحيتك وتتشدد في السُنن والنوافل. ولكن نظرة عينيك لم تتغير. ربما أنا فاشل جدًا في فهم الناس. ولكنني أعلم أن (أحمد شومان) هو (أحمد شومان). ما تغيّر هو الطريقة التي يبدو عليها. كُل ذلك حَدَث وأنا مُتجمدٌ أُراقبك من داخل عالمي. أتوازن مع الناس شكليًا من الخارج، فأبدو الفتى الهادئ، الخجول، المُلتزم خُلقيًا، والمُعتدل دينيًا. ولكنني كُنتُ أتحوّر داخليًا، مع كُل شهر أنعزل فيه مع أفكاري، مع كُل حُلم من أحلامي، كُنتُ أزداد لا مُبالاة بالبشر. أيُعد ذلك كُرهًا؟ يقولون أن اللامُبالاة هي أعمق درجات الكُره. فالكُره رغم كُل شيء يعني وجود مشاعر، ووجود اهتمام خاص، حتى لو كان سلبيًا. ولكنني لا أدري. ولا يُمكنني نسيان نظرة الفزع في عينيك في ذلك المساء الشتوي، بعد عودتك إلى المنزل فجرًا. تلك النظرة التي حُفرت في كياني وكانت من الأشياء القليلة التي لم أنسها مع شبح ابتسامة (ليز) الماكرة. وعندما لمحتُ تلك النظرة وسمحتُ لها بأن تنغرس فيّ إلى الأبد، ورأيتُ ما طرأ عليك بعدها من تطورات شاملة، علمتُ أن ثقتي في البشر قد انتهت. وأن علاقتي معهم لا بدَّ أن تظل علاقة تعاقدية نفعية بحتة. علاقة اقتصادية لا مشاعر فيها. الأهم هي العلاقة الدائمة الدافئة بالأفكار وما تُطل عليه من بحور الخيال غير المُستكشفة. الأفكار تدوم والبشر دائمًا يفنون. وربما كانت تلك الأيام هي نهاية علاقتي بنفسي كبشريّ، حتى أيقظتني (ليز) مرَّة أخيرة قبل عودتي إلى قبري الخاص. صرتُ أتعامل مع الناس بمزيد من الآلية، احترفتُها أكثر فصارت سِمتي المُميزة. لم أكوِّن صداقاتٍ كثيرة في المدرسة، وحتى إن فعلت كانت صداقات طفولية تبدأ

كما انتهت، فجأة. ثُم عندما دخلتُ الكُلية وحدث ما حدث لك، زاد هجري للأحياء. وضعت الأفكار نصب أعيني فنلتُها كُلها. وتركت ما للناس للناس. سُخر مني كثيرًا. قالوا: «دحّيح». قالوا: مش بيسيب الكتاب. قالوا: بتاع الصف الأول! قالوا: آلة! قالوا: بيكره نفسه. وأنا أعلم أن كُل اتهاماتهم صحيحة وبالغة الدقة. شكرًا على إفراغ شحنة حقدكم اليومية على الشخص الذي يفعل ما لا تطيقون فعله وتطمعون في إنجازه رغم ذلك!

مثلما اعتزلتُ البشر بحافز من تحوُّلك يا أخي، اعتزلتُ اللّٰه. وانكسرت طبقة الورع الضميري الهشة بداخلي. لم أعد أهتم بصلواتي التي تعلّمتها من أبي وصقلتها جدتي. احترفتُ الاستمناء الذي كان يمنحني شعورًا رائعًا بالخدر. كأنما كُنتُ أتناول مُخدرًا يُساعد على تفكيك مفاصل عقلي، ويُساعدني على الانطلاق والتحرُر من جسدي في أثير الأفكار. حتى إنني كُنتُ أصوم رمضان بصعوبة. ولكن سلبيتي تجاه العالم وإيجابيتي الشديدة تجاه أفكاري قد حمتني من الغرق في مُستنقع كبائر أخرى، على الأقل في مصر. بينما خُضتُ ذنوبي الخاصة وانسلختُ عن نفسي وعن طقوس العبادة والصوم بمُجرد ملامستي أرض الأحلام المُحققة. وإن حاولتُ دومًا استثناء (ليز) من كبائري، وسعيتُ للبحث عن أعذاري، مثل تفريغ كُل طاقات الحُب بكياني حتى آخر قطرة، أو جنوني الشديد بها. فكما تعلم، ليس على المجنون حرجٌ يا شيخ أحمد!

لم يعُد هُنالك بُدّ يا شيخ (أحمد). أفرغتُ كُل ما تمكنت ذاكرتي الخاوية الضعيفة من تفريغه. اعترفتُ بذنوبي وخطاياي أمام البيت الذي جمع عالمينا المُتباعدين تحت سقف واحد. وانتظرتُ أن ينتهي الحُلم والكابوس وأستيقظ أو حتى أموت! ولكن لم يحدث شيء. فقط ما زال البيت يجذبني بشباكه الخفية إلى فمه. يُريد أن يهزمني تمامًا هذه المرة. انتصر عليّ أولا بإضعاف هِمتي، دفع الذكريات دفعًا في كياني. وراقبني بينما تبكي عيناي وتهزمني خطاي وتتوتر عضلات رجلي وينشر البرد عظامي ولحمي. أبعد كُل الانتصارات السابقة على الأفكار وتحدّياتها، تأتي فِكرة لتهزمني؟ ولكن هل عليّ أن أنتصر؟ أم أنه يجدر بي الهزيمة؟ أي باب سيؤدي إلى الحياة التي ألفتها، أو الموت الذي تمنيته؟ بل هل أنا في ترف الخيار أصلا؟!

بوجود الوعي أو دونه، تتحرك قدماي نحو فَم البيت المعدني، فأشُم تلك الرائحة المُميزة. التي لا يُمكن أبدًا فهم طبيعتها. على كُل حال الوطن دومًا ما يحمل رائحته المُميزة في قلوبنا. مهما ماتت نخوتنا تجاهه، ومهما كرهناه ومهما تناسيناه. وإن كان عليّ الحديث من مُنطلق خبرتي كرُجل أفكار. أقول إن الوطن هو منظومة فِكرية ووجدانية لا يُمكن محوها، مهما ضمرت من الجفاء والغضب.

ألقي الخطوة تلو الأخرى على السلالم الشاحبة، فترنّ خطواتي في البدروم بإيقاع حفظته غريزتي جيدًا. أمُر على بابي شقتي الدور الأول، شقة مُدرس اللغة الفرنسية، تقريبًا كان اسمه (فكري). والشقة المُقابلة للسلالم الصاعدة الخاصة بمدام (فوزية) الأرملة الخمسينية. ثُم يعلو نبض قلبي أكثر وأكثر لأكاد أسمعه يدوّي بين جُدران السُلم، وتتعرق يداي المُتشبثتان بالدرابزين

الخشبيّ الكئيب القديم. لِم كُل ذلك الانفعال؟ ألم آتي منذ فترة قريبة إلى البيت ولم أتأثر على الإطلاق؟ فقط مارستُ مُهمتي بقدر ما استطعتُ، حاولتُ أن أبدو طبيعيًا قدر الإمكان، التحمتُ مع أبي وأخي في أكثر من نِقاش ساخن. داعبتُهم بالتحمُس التقليدي للثورة رغم يقيني من الداخل بدقة كلمات (أحمد). أن الثورة قد انتهت. حلم جميل تحوّل إلى كابوس. فكرة جيدة كما أقول عنها دومًا ولكن أُسيء استخدامها وتسويقها. ولكن ذلك لا يهُم، لا أحد يهتم. أولسنا في عصر السبق الفكري على كُل حال؟!

طُفنا على الأقارب والأهل في زيارات مُتتالية سريعة. وكما أفعل في كل الزيارات. ادعيتُ الحماس لأوهمهم بأنني على ما يُرام. رغم جهلي التام بمعنى تلك الجملة. الكُل يدعيها في أحاديث الصباح والمساء دون فِهم. الكُل يُرددها حتى باتت لا تعني أي شيء بالتحديد.

زُرنا جدي وجدتي اللذين قد أُهملا مني ومن (أحمد) ومن والدي حسبما سمعتُ من الشرخ في ثرثرة جدي. وحسبما رأيتُ من الألم في عينيّ جدتي. كانا يبدوان أكثر شيخوخة وأكثر انهزامًا. بدا مخذولين متروكين مع زيارات اطمئنان خالي غير المُنتظمة، أو على الرغم منها. أضافت جدتي العبارة الكلاسيكية التي تُقال لي في كل بيت:

-اتجدعن يا واد وفرّحنا بقى. مش كفاية السُكر والضغط والدنيا كلها علينا.

بدت في صوتها رعشة البؤس، وفي عينيها دموع لا تتراجع ولا تسقط، تخيلتُ هيئتها الشبيهة بأمي، فعلمتُ أن ذلك كان مصير أمي، لولا قضاء اللّٰه الذي أتى في سِنها المُبكّرة. زادني ذلك كُرهًا لنفسي، وكُرهًا للشيخوخة.

أحببتُ الموت أكثر. وزادت رغبتي المحمومة فيه. الموت شابًا يا رب. أُمنية بسيطة أرجو أن تُحقق لي، رغم كُل آثامي وحقاراتي.

في آخر مرة، قالت جدتي بينما نودّعها على السُلم إذ نُغادر:

-ماتنساش يا واد يا عمّور وصيتي .. عايزين عيلين حلوين زي ولاد أخوك كده.

قهقهتُ دافعًا نفسي للضحك:

-حاضر يا تيتة من عينيا.

-بطّل بكش يا واد. كل مرة تقول لي كده وتخلع على برّه.

أبعد كُل ما أصابني يا تيتة تُريدين أطفالا؟ تُريدين منظومة زوجية بيروقراطية فاشلة أخرى؟ لا أستطيع بكُل صِدق. أنا آلي ولم أُخلق لأشياء مثل هذه ولا لإنجاب كائنات مثل التي أراها عند أخي. أولاد أخي الذين لم أستطع فهم كيف يُمكن التواصل معهم، لا أعرفهم ولا هم يعرفونني، ولا أفهمهم ولا هُم يفهمونني. الوحيد الذي شعرتُ بأُلفة معه هو الابن الأكبر (عمرو). ربما لتماثل اسمينا، أو ربما للمعة عينيه التي تُذكرني بنفسي. والتي دفعت نوعًا من الرُعب في أعماقي. خفتُ عليه من المُقبِل إن سلك مسلكي، وخفتُ منه مثلما يخاف أي شخص من أي شبيه له. كل ذلك أمام الضحكات الخافتة لـ(دُرة) زوجة أخي المُنتقبة، والتي لم أستوعب حتى الآن وجودها بيننا. ولا يزيدني ذلك إلا دهشة من النسخة الجديدة من الصايع السابق (أحمد شومان) .. يا للزمن!

ينتهي عدو الذكريات المحموم، وقد وصلتُ الدور الثاني الذي تقع فيه شقتنا. تنتبه عيناي، ويضرب قلبي المزيد من الدماء، فأرى باب المنزل مفتوحًا على مصراعيه. مما يُضاعف من قلقي الذي بدأت تكسوه طبقة لزجة من الرُعب.

مُسرعًا أدلف عبر الباب المفتوح، تجوس عيناي المكان بسرعة، ولا يملك عقلي ترف الذكريات هذه المرة. أرى نافذة الصالة مفتوحة، يطُل من خلفها شارعي المُختلق البارد في هذا الكابوس الذي لا ينتهي. ومن خلف الشارع يقبع منزل (ووتربول)، إذ تبدو شقتي من هذه الزاوية ماثلةً في ارتفاع أعلى قليلا من شقة (الفلكي). يُثير ذلك التقابُل الخيالي المزيد من حيرتي وارتباكي. ألتفتُ يسارًا حيثُ السرداب الطويل المؤدي لغرف النوم، فأرى نور النهار مُشرقًا بقوة من حجرتي، ليسقط على جدار السرداب المُقابل. أنادي:

-بابا..

ثُم بتوتر أكثر:

-بابا ..

وأهرع إلى الحجرة المفتوحة المُنيرة. بينما يُحاصرني شعور قوي بوجود كيانين في الشقة. أدلف السرداب وقلبي يصرخ في صدري، مُناديًا مُجددًا:

-بابا..أحمد..

أقترب من الحُجرة وما زلتُ أنادي، فيتردّد صوتي كالصراخ وتتردد خطواتي كالرنين. أندفعُ نحو الغُرفة وأقتحمها سريعًا، بينما يتوقف قلبي مُنتظرًا، وتتوقف الكلمات في حلقي مُتحفزةً. فلا يُجيبني سوى ثبات الضياء الشديد

في عيني. يظل الوضعُ والحال مُعلّقًا، حتى أرى شبحًا قادمًا من أعماق الضياء. يقترب مني بسرعة، حتى ليبدو أنه يقفز المسافات.

وعندما اقترب، تعود الظلال والأضواء وتعملان لتشكيل ملامحه. كما يعود قلبي ليضخ دماءه بقوة المُفاجأة، وتعود الأنفاس لتتردد في صدري، خارجةً عبر أحبالي الصوتية، مُحررةً الكلمة التي تبدو مُدهشة عجيبة في هذا الكابوس:

-أحمد؟!!

1الكوارك Quark هو جسيم أولي، وأحد المكونين الأساسيين للمادة في نظرية النموذج القياسي، وقد أطلق موري جيلمان هذا الاسم على الكوارك. ومنها ستة أنواع.

2اللبتون Lepton هو جسيم أولي ومكون أساسي للمادة مع الكوارك. وأشهر اللبتونات المعروفة هو الإلكترون، الذي يكاد يحكم عمليات الكيمياء كلها، لأنه موجود في الذرات ومرتبط مباشرة بالخصائص الكيميائية كلها. وتوجد فئتان أساسيتان للبتونات: المشحونة منها (وتعرف أيضا بلبتونات شبيه-الإلكترون)، ومحايدة (المشهورة باسم نيترينو). ويمكن للبتونات المشحونة أن تندمج مع جسيمات أخرى لتكوين جسيمات مركبة مثل الذراتوبوزيترونيوم، بينما النيترينو نادرا ما يتفاعل مع أي شيء آخر، وبالتالي فهو نادر الرصد. كما أن هناك ستة أنواع (أو ما يسميه الفيزيائيون: نكهات) من اللبتونات.

3 نظرية الأوتار الفائقة Super-string Theory

هي أفكار جديدة حول تركيب الكون من إبداع الفيزياء النظرية، تستند في صلبها إلى معادلات رياضية معقدة، تحاول تفسير أمور مجربة. تقول هذه النظرية أن الأشياء مكونة من أوتار حلقية أو مفتوحة متناهية في الصغر لا سُمك لها. هذه الأوتار تتذبذب فتصدر نغمات يتحدد بناء عليها طبيعة وخصائص الجسيمات الأكبر منها مثل البروتون والنيوترون والالكترون وغيرها. وتكمن ميزة هذه النظرية في أنها تأخذ في الحسبان كافة قوى الطبيعة: الجاذبية والكهرومغناطيسية والقوى النووية، فتوحدها في نظرية واحدة، تسمى النظرية الأم. الكون في تصور هذه النظرية هو عالم ذو عشرة أبعاد (إحدى عشر بعد في النظرية الأحدث (M-theory) ، على خلاف الأبعاد الأربعة التي نحس بها. ويقول أصحاب هذه النظرية بأن الأبعاد الأخرى متكورة على نفسها فهي غير محسوسة لنا.

4 ميكانيكا الكم Quantum Mehanics نظريّة فيزيائية أساسية، جاءت كتعميم وتصحيح لنظريات نيوتن الكلاسيكية ودمجها بالحركة الموجية وخاصة على المستوى الذري ودون الذري. تسميتها بميكانيكا الكم يعود إلى أهميّة (الكمّ) في بنائها (وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف أصغر كمّية يمكن تقسيم الإشياء إليها، ويستخدم في للإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع، وليس بشكل مستمر). كثيرا ما يستخدم مصطلحي فيزياء الكم والنظرية الكمية كمرادفات لميكانيكا الكم. وبعض الكتّاب يستخدمون مصطلح ميكانيكا الكم للإشارة إلى ميكانيكا الكم غير النسبية.

5 عدم اليقين Uncertainty Principle من أهم المبادئ في نظرية الكمّ بعد أن صاغه العالم الألماني هايزنبرج عام ١٩٢٥. وينص هذا المبدأ على أنه لا يمكن

تحديد خاصيتين مُقاستين من خواص جملة كمومية إلا ضمن حدود معينة من الدقة، أي أن تحديد أحد الخاصيتين بدقة متناهية (ذات عدم تأكد ضئيل) يستتبع عدم تأكد كبير في قياس الخاصية الأخرى، ويشيع تطبيق هذا المبدأ بكثرة على خاصيتي تحديد الموضع والسرعة للجسيم الأوليّ.
فهذا المبدأ معناه أن الإنسان ليس قادرًا على معرفة كل شيء بدقة ١٠٠٪. ولا يمكنه قياس كل شيء بدقة ١٠٠٪ ، إنما هناك قدرٌ لا يعرفه ولا يستطيع قياسه. وهذه الحقيقة الطبيعية تخضع لمعادلة شهيرة ، يتحكم فيها (ثابت بلانك).

*مُعجل الجسيمات Particle Accelerator

هو جهاز يستخدم المجالات الكهرومغناطيسية ؛ لتعجيل جسيمات الشحنات الكهربائية إلى سرعات عالية ولتحديدها في أشعة موجهة. أجهزة التلفاز المبنية على أنبوب الأشعة المهبطية تستخدم معجل سرعة بسيط. يُستفاد من حزم الجسيمات عالية الطاقة في كلا من بحوث العلوم الأساسية والتطبيقية. ويقوم العلماء بإجراء التفاعلات بين الجسيمات في أعلى مستويات الطاقة الممكنة وذلك بغرض أكتشاف جسيمات أولية جديدة ، وفهم بنية المادة و الكون والزمن.

حارِس

١

في مهرجانِ النورِ المُبهرِ، المؤذي للبصر والشاحذ للبصيرة، أُراقبكُما. مثلما كُنتُ أفعل من البداية. الأخوان المُتباعدان يلتقيان. القطبان المُتنافران يقتربان. العالمَان المُنفصلان المتوازيان يميلان نحو بعضهما بعضا، يقتربان من نقطة تماس. الأوَّلُ يوقن أنه على وِشك الاستيقاظ، بينما الثاني يشعُر الموت، راجيًا أن يأتيه.

أخيرًا، وضعكُما القدرُ على نفس القضبان، يهرع كُل منُكما نحو الآخر دون أن يشعر، مُقيدَ الجسد، معصوبَ العقلِ نحو نقطة الضوء. تجُره النفس المكبوتة والضمير المُعذب وأحلام الذكريات نحو نهاية الكابوس. ولكن من قال إنها النهاية؟ ربما هي بدايةٌ أخرى قريبة. مستوى جديد من الحياة.

الأوَّلُ سجنته الشجون في بيت الطفولة والصِبا، بعدما غادر البيتُ قلبه، ولم يعد هناك سوى الفزع والادعاء ومُحاولة تذكر وتحليل كُل همسة وكل نظرة وكل لمسة وكل حدث. والثاني يسبح كالطفل في عالمه الخاص المشوَّه. يتنفس الأفكار ويشربها ويأكلها، حتى احتلت كل ذرة من كيانه ولم يبق سواها داخله. مات الحُبُ والكُرهُ والحَسَدُ والسعادةُ والحزنُ داخل قلبه. بل ماتت ذاكرتُه نفسها منذ أمدٍ بعيد. يسكُن كُلٌ منهما متاهته، ويخوض في دهاليزها الخانقة على أمل الوصول لمخرجه إلى الساحة الرحبة. يأمل كلاهما

سلامًا لن يأتي أبدًا. وكيف يأتي وكُل منهما يعدو في ممرات التيه مُتخبطًا مُتسرّعًا دون تأنٍ؟ دون تفكيرٍ مُتزنٍ ونقدٍ وتقييمٍ سليمٍ لمواقفه في الحياة؟ وحتى عندما أتى التقييمُ، جاء الآن، بعد كل ما جرى وما سوف يجري. صَدَقَ العالِمُ عندما قال إن البشرَ لا يتعلمون أبدًا. بل الأدهى أنهم نادرًا ما يعترفون أنهم لا يتعلّمون. يرتكبون الحماقات تلو الأخرى؟ ليس هنالك مشكلة في ذلك. ولكنَّهم قلَّما يبحثون مواقفهم وقلَّما يراجعونها، وإنْ فعلوا نادرًا ما يتغيّرون. وحتى الكتلة العاقلة التي تتغيّر لا تُغيّر. لا تملك المقدرة والمثابرة. وإن ملكت ذلك فهي لا تملك الوزن القادر على إثقال موازين العالم نحو الأفضل.

أراكُما الآن تتلاقيان في عتمة النور، تكتشفان ملامح بعضكما، فتعرفانها. يُصدم الشيخ فلا يرد. ويأتي رد فعل أخيه أسرع:

-أحمد؟!

تظل الصدمة هي ربَّةَ الموقف. أخيرًا يتحرّر الشيخ قائلا بصوتٍ مكتومٍ:

-عمرو؟!

-ازاى؟!

يرد (أحمد):

-علمي علمك .. أنا فاكرني بحلم .. أكيد أنا لسّه بحلم.

فيستدرك أخوه بارتباك:

-ما أعتقدش. أنا حاسس إن بقى لي سنين هنا. وبعدين اللّي حصل لي قبل ما أقابلك وبكل التفاصيل اللي حاسسها وشايفها الوقتي بيأكد إن ده مستحيل يكون حلم.

يتحرك (أحمد) في المساحة البيضاء حوله قائلا:

-أمال هيكون إيه يعني؟!

يتطلعان إلى الامتداد شديد البياض، والذي يحمل بياضه دفقًا شديدًا من النور. ويدور (عمرو) مثله في المساحة المُحيطة بهم. يدبدب في الأرض بقدميه لعله يسمع الصدى. ولكن لا تُردد الأرض تحته أدنى صوت. فيقول:

-عمر ما فيه حلم يبقى بالقوة دي..

فيرد (أحمد) بتوتر:

-والحل إيه طيب؟! هنفضل محبوسين هنا كتير؟!

يتجاهله (عمرو) مُجددًا، ويقول بملامح مُتجهمة:

-تقدر تفتكر آخر مرة كنت صاحي وطبيعي كانت فين وإمتى؟

فيتعصّب (أحمد) بلا مُبرر:

-هتحلّها دي برضه بنظرياتك العبقرية!

ولكن (عمرو) يمتصه، مُصرًّا بحدة:

-فين وإمتى يا (أحمد)؟!

فيُمّسد (أحمد) لحيته الكثة الطويلة بتوتر، هاتفًا بنوع من الغضب:

-أعتقد آخر يوم كنت فاكر إني واعي فيه كان قبل العيد بيومين. بابا زي ما إنت عارف طلع الحج. وإنت كنت لسّه ماشي من أسبوع تقريبًا.

يصمت لحظات يبدو وكأنه يغالب ما يعتمل بنفسه:

-فاكر إني رجعت من حلقة برنامجي الساعة واحدة بالليل .. دخلت أنام على طول وكان فيّا اللي مكفيني .. وآخر حاجة فاكرها إني حلمت حلم غريب.

كان (عمرو) لا يزال يدور في المكان مُتأملا، كأنما يبحث فيه عن ثغرة ما، مثلما فعل أمام ظُلمته الأولى قبل أن يكسرها ليبني عالمه الكابوسيّ. ثُم يقول بنوع من الاهتمام:

-حِلم إيه؟!

يصمت (أحمد) هذه المرة، كاتمًا أمره وكاظمًا الغيظ الفائض في أعماقه. فيعود (عمرو) لينتبه له . قائلا:

-حِلم غريب ازّاي؟

يبدو نوع خاص من الصراع يدور في عضلات وجه الشيخ. قبل أن يُجيب:

-هو أنا هخاف مِنك يعني؟! في اليوم ده أنا قرأت حوارك في الجرنال عن الثورة وعن نظريتك وأبحاثك اللي شغّالة عليها. الكلام اللي إنت قلته واللي

أنا فهمته كان هيجنني .. خاصة كلامك عن الأبحاث .. نظريتك دي كُفر صريح. التحكُم بالمادة وتشكيلها زي ما إنت عايز؟! .. التحكم بالمناخ؟! إنت عايز تهدّ المُعجزات كلها ونظرة الناس ليها؟! أبحاثك مش هتنفع بحاجة أكتر ما هتضر .. كلامك هيضرب المعجزات في مقتل .. هيهز ثقة الناس في إيمانهم. ده غير الخراب اللي بتسلّمه للكفرة على الجاهز. يصنعوا بأفكارك أسلحة جديدة يهدّونا بيها أكتر ما إحنا مهدودين. أنا ماسكتش.. طلعت على البرنامج قلت كده وأكتر. وقلتها فيه وبقولها لك صريحة: اللي عملته ده كُفر يخرجك من المِلة.

كان (عمرو) يستمع لكلماته المحمومة في مزيج غريب من الصدمة والاستنكار والسخرية وعدم التصديق. وعندما انتهى، يعود ليُبدي أول ردة فعل صوتية لاتهامات أخيه، بضحكة صاخبة، شديدة القوة، تحمل بين نبراتها توترًا محسوسًا وغضبًا عميقًا. فتبدو بتناقضاتها مثل ضحكة شيطان عتيد. يقول (عمرو) بعصبية شديدة:

-أنا الوقتي عرفت قد إيه مخك اتلحس! مش ممكن! أنا مش مصدق اللي إنت وصلت له يا (أحمد)! .. للدرجة دي دمّرك اللي حصل مع (سُمية)؟ حادثة زِنا واحدة لحست مخك وخليتك تتغطى بالدقن بتاعتك دي؟! كُفر إيه؟! إنت مين أنت وتعرف إيه عن العِلم علشان تتكلم عن الكُفر؟!

ما سألتش نفسك ازاي يقدر علم دنيوي يهزّ إيمان الناس؟ إنت كده اللي بتهين الإيمان وبتحوّله لمجرد رغبة في جمود فكري. عايز تبعد عن الناس فكرة حقيقة الكون النسبية وطبيعته المتغيرة اللي بيكتشفها العِلم، علشان خايف على نفسك وعليهم من اهتزاز الإيمان؟ يبقى إيمان ازاي لو اتهزت

الثقة فيه بمسألة عقلية زي دي؟ الأمر وما فيه إنك وكل اللي زيك مرعوبين من جوّه .. والرعب والإيمان عمرهم ما يجتمعوا يا شيخ (أحمد).

ترتد الصدمة إلى وجه (أحمد) الذي اكفهرّ، ثُم يعود ليقول بعد ثوانٍ من استعادة جأشه:

-غروركم ده هو اللي ودّى العالم في داهية .. الدين أصلا خُلق علشان يرشّد أفعال الإنسان في الدنيا ومنها العِلم.. ويوجّهها لما فيه الخير له ولإخوانه. العِلم من غير الدين يبقى عبث ورغبة محمومة في التغيير. التغيير لمُجرد التغيير مش أكتر! العِلم من غير الدين يا عم العالِم العظيم يبقى معناه إنه عِلم بلا هدف حقيقي إلا تكريس لغرور الإنسان وحبه لنفسه. ولا إنت فاكر إن الدين نزل علشان نقرأ عنه في البيت ونسمع لنا خطبتين ونصلي بيه وخلاص. ربنا قال: «إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين» الآية واضحة وصريحة.

يبتسم (عمرو)، قائلا بلهجة أهدأ مُلوحًا بيديه:

-كم من جرائم ارتكبتموها باسم الدين يا شيخ يا (أحمد). المشكلة إنكم فاهمين الدين بصورة معيّنة .. تصور ثابت قديم فاكرينه أزلي .. شكل بلا روح حقيقية. الدليل إن كل اللي إنتوا بتقولوه ده هو نفس اللي قلتوه قبل كده لعلماء مستنيرين كتير. من جاليليو وكوبرنكيوس حتى ابن رُشد وداروين. كل مرة نفس الكلام بالظبط .. نفس اللهجة ونفس الحزق ونفس الحُجج الواهية. عايزين تحيوا عصر انتهى ولن يعود .. ويا ريتكم بتحيوه بأسلوب يرقى بالدين العظيم. لا ده بأسلوب لا يختلف كثيرًا على أسلوب الكفرة

العلمانيين زي ما بتقولوا عليهم .. غايتكم بتبرر كل الوسائل الحقيرة لاستغلال الدين والجهل. هقول إيه ولا إيه .. الكلام عمره ما كان له فايدة مع اللي زيكم أصلا ..

- الكلام ده بالظبط هو نفس كلامكم في كل عصر .. عايزين الجوهر وليس المظهر .. وإنتم أصلا سايبين الجوهر اللي بتتكلموا عليه ده .. واخدينها نوع من التسويف والخوف من تطبيق حُكم اللّٰه في الأرض .. أما مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فللأسف مضطرين نعمل بيه.. مش علشان حلاوته يعني، لكن علشان ده أسلوب السياسيين العلمانيين في اللعب. لو تمسّكت بالقواعد الأخلاقية في العمل السياسي يبقى لازم هتفشل.. لازم نلعب بطريقتكم لغاية ما نعرف نغيّر القواعد. الضرورات تُبيح المحظورات.

يتهكم سريعًا (عمرو):

-عادي .. يبقى الضرورات تُبيح المحظورات في المجال اللي أنا شغال فيه برضه. تخيّل مقدار النفع اللي هيجلبه تسخير الطبيعة التام للإنسان بالشكل ده .. مش هو ده الهدف الأصلي من وجود الإنسان على الأرض؟ تعبيد الطبيعة لإعمار الأرض وتحسين الحياة؟ مش دي عبادة برضه؟

-واضح إنها عِبادة بدليل كمّ التلوث والفساد في بيئة الأرض!

-لكل عِلم جوانبه .. وكل واحد وضميره.

-مفيش حاكم للضمير سوى اللّٰه طبعًا، بس فيه أُسس شرعية ممكن تُدير بيها الحياة لمُعاقبة من يُفسد في الأرض!

-طيب مش إخوانك مسكوا البلد؟ ليه مش بيطبقوا الحُكم الرشيد المُنتظر؟!

-يا سيدي دول بقى لهم كام شهر. عايزهم يمحوا كل الفساد ده في شهور قليلة ازاي؟!

يصمت (عمرو) بينما يبدو عليه نوع من الارتباك وآثار غضبٍ عالقة في شفته السُفلى المقلوبة. قبل أن يقول:

-مفيش فايدة فعلا.. التفاهم مع مهاويس الدين اللي زيك مستحيل..

يضحك (أحمد) مُضيفًا بانتصار:

-أيوه اهرب زي ما بتعمل كل مرة، وطلّع حجج فارغة .. مش إنت اللي هتغلبني بعد الخبرة دي في المجال الدعوي.. وبعدين نتفاهم إيه، إنت جاي الوقتي تتفاهم. ما إنت عارف إننا عمرنا ما فهمنا ولا هنفهم بعض.

يظل (عمرو) صامتًا واجمًا، تبدو عليه ملامح هزيمة غير عادلة. إنني أعلم ما يعتمل بنفسه الآن. هو يُدرك جيدًا أنه عندما يتحدّث يكون مُتلعثمًا ضعيف الحُجة. لذا دومًا ما يُفضل الصمت تاركًا أفعاله هي التي تدل على قوته. يُضيف بنفس الوجوم:

-طيب ممكن نتزفت نشوف هنعمل إيه الوقتي في الكابوس اللي إحنا فيه ده؟! .. بعديها لا إنت أخويا ولا عايز أعرفك.

يبتسم الشيخ كأنما يداعب طفلا ساذجا:

-ماشي.

-ابقى خلي بالك من أبوك بقى .. ربنا يستر عليه لما يعرف اللي إنت هبّبته على الفضائيات.

-مالكش دعوة إنت أنا هتفاهم معاه..أنا بتاع كلام .. سيبنا لك الأفعال يا دكتور (عمرو)!

يعضّ (عمرو) على شفتيه بغضب، قبل أن يتطلع حوله مُجددًا ويقول:

-عن نفسي مش فاكر حاجة. أظن كنت في المعمل .. هو نهار مُجهد كالعادة.

يُضيف (أحمد) بتوتّر بينما يشيح بوجهه بعيدًا عن أخيه:

-ممكن نكون بنحلم..أو في أزمة صحية جت في نفس الوقت فحصل النوع الغريب ده من التواصل.

ولكن ملامح (عمرو) تومض ومضة ما، فيُضيف:

-ما أعتقدش. ممكن تكون تجربة؟! ربما يكون شخص ما هو اللي جايبنا هنا؟

يضطرب الشيخ أكثر، قائلا باستنكار وخوف:

-شخص؟! زي مين؟!

هُنا، يأتى دوري.

على الفور، أتدخّل بصوتي من خلف حِجاب:

-أنا.

يُصعق كلاهما من الصوت المُنبعث من كياني الذي لا يريانه. ثُم ببطء أخرج من خلف الغطاء النوراني لعالمهما. هابطًا، أتقدّم منهما بتؤدة. فيرتعد كياناهما بخفقات القلوب المنتظرة المُتحفزة والعيون الجاحظة والشِفاه المرتعشة، عندما يدخل جسدي في حيز أبصارهما المبهوتة بضياء العالم. أقترب كثيرًا من كيانيهما المُتجمدين، فتنحل عقدتا لسانيهما بكلمة مصدومة من (عمرو):

-إنت مين؟!

أبتسم بهدوء، مُقدرًا الجهل الأصم الذي تنطق به خلجاتهما، وبريق أعينهما المُتطلعة إلى المعرفة. أقول بكلماتي التي تلفح آذانهما، وأنفاسي التي تُداعب جسديهما:

-أنا حارس. مَضيفكُما هُنا.

يسألني سريعًا (أحمد) وبحذر:

-وعايز إيه؟

أجيبه بنفس السُرعة ونفس البسمة:

-ستعرفان في الوقت المُناسب. فما زال أمامنا بعض الوقت. ستعلمان بعد أن تسمعا قصتي. سيكون لكُما السبق في ذلك.

بعصبية يقول (أحمد):

-وقت؟ وقت على إيه؟ وبعدين افرض مش عايزين. أنا عايز أخرج من المكان اللي إنت حابسني فيه ده.

أبتسم مُجددًا. وأقول:

-الأمر ليس بيدي.

فيتحرك نحوي، صائحًا:

-ما هو هيبقى غصب عنك الوقتي.

لا أتراجع أمامه. أظل مُنتصبًا بنفس الثبات، قائلا:

-حاول أن تفعل يا أستاذ (أحمد) ولكنني أقول لك إنه لا نتيجة ستجنيها من ذلك. وبالمناسبة لن يحدث لك مكروه جرّاء ما ستُقدم عليه .. ولن يحدث لي كذلك!

يتدخّل (عمرو) الذي اعتمدتُ كثيرًا على فضوله العِلمي لاستكشاف المجهول. وقد كان عند حسن ظني. يضع يده على كتف (أحمد) المُتحفّزة. قبل أن يقول بهدوء قد استعاده:

-اصبر يا شيخ (أحمد) .. لمّا نشوف هو عايز إيه بالضبط. إن اللّه مع الصابرين.

يقول العبارة الأخيرة بنوع من التهكُم على عدوانية (أحمد) وعصبيته ونفاد صبره. فيتراخى جسده بعض الشيء، وتلين ملامحه، ناظرًا بعينين كاظمتين للغضب إلى (عمرو) الساخر، ونافضًا كتفه عن يد الأخ المُعلقة به.

أصمت قليلا في انتظار هدوئهما. مُتطلعًا إلى صورتي الصغيرة المُنعكسة في مرايا العيون. آخذ نفسًا عميقًا، وأتطلع فيهما. ثُم أقول بجدّية:

-حسنًا .. لنبدأ على الفور.

٢

أتطلع إلى صورتي المُترقرقة في عيون الأخوين. أنظُر إلى الكهل ذي العدد الوفير من الأعوام. وأتساءل كم فصلا يملك في تلك الأعوام؟ كم أملك من ربيع العُمر ومن خريفه ومن صيفه ومن شتائه؟ إذ لا بدّ من إجمالِ كُل الفصول في عُمري. فقد عشتها بكل مراحلها وتقبّلتُ جميع تقلُباتها. أنظُر إلى مرايا العيون فأرى الرجل الأسمر ذا الملامح القوية، نبّوت الوجه المنحوت في منتصف الوجه وبئريّ الحُزن الأسود على جانبيه، وشق وادي الفم المحجوز بين هضبتيّ الشفتين، الذقن الحليق ذا الأشواك الصغيرة البيضاء، والشعر الأسود المُحترق بالرمادي.

حارس..أيُها الكهل. كيف أتيت إلى هُنا؟ كيف صرتَ ما صرتَ عليه؟ أسأُلك عن عُمرك فيما أفنيته. وعن جسدك فيما أبليته. أما مالك وحالك فلا سبيل للسؤال عنهما، فقد كُنتَ مُعدمًا ولم تبلغ إلا حدّ الكفاف. تجري وراء كِسرة الخُبز منذُ وعيتَ الدُنيا. وتُسابق أقرانك من أجل حِفنة ماء رائقة قادمةً من خارج قرية القحط. لم تكن تعلم على الإطلاق متى وُلدت. وكيف لفظك مهبل الوجود إلى ذلك القيظ اللانهائي. في إحدى تلك الليالي القائظة، تنتبه إلى أنك أنت (حارس). الطفل الأخير لأمٍّ أنهكها زوجها بالمضاجعة والحَمل والفقر الذي سرى عليها مثلما سرى قانونًا على أهل القرية المنسيّة. لستَ آخر العنقود، فالقرية لا تطرح عِنبًا. أنت حَملٌ جديدٌ لا بدَّ أن يأتي وحِملٌ جديدٌ لا بدَّ أن تتخفّف عنه الأسرة في أسرع وقت. ولكنك عَلِمت فيما بعد التاريخ

التقريبي لميلادك. على كُل حال ليس الميلاد حدثًا يستحق كُل ذلك البحث والاهتمام. المهم أنك أتيت. تلك حقيقة لا بدَّ أن تتعايش معها.

يسألونك عن موقع القرية من العالم فتقول لا يهُم. هي قرية تنتمي لبيئة ساحقة البدائية، حيثُ معنى كلمة حياة غير مفهوم. الأفعال تتم دون تساؤلات، ودون أفكار مُسبقة وتخطيطات لا طائل منها. فأنت لم تُدرك المعاني سوى فيما بعد. ولكن دعنا من ذلك الآن. نشأت بدايات طفولتك في كنف أب غائب طوال الأيام ولا يظهر إلا بالأكل للأكل والمضاجعة. شيّال، هكذا يقول أحيانًا. تلقيط رزق. هكذا يقول كثيرًا. لم تكن مِهنته غريبة أو عجيبة. فتلك هي قرية الشيَّالين أو قرية الشحاذين، كما سمعت أحد الغُرباء يقول عليها ذات مرة. هكذا كان الأب الناسي المنسي. ولكنك رغم ذلك تذكُره جيدًا. إنها أحداث. وقائع لا يمكن تغييرها ولا يصُح الارتعاب منها أو البُكاء بشأنها. تبدو ملامحه قريبة جدًا من ملامحك. إنه أنت بصورة مُكبّرة. دومًا ما يأتي الرجُل في نهاية كل يوم بخُبز وجُبن للغداء والعشاء، لا يكفي كنصف «طقّة» لك حتى. كان يأتي غالبًا بحبّة حشيش صغيرة، يمضغها بعناية مع امرأته العائدة من عملها مع أختيك الكبيرتين ليلا. قبل أن يُمارس واجبه المُقدس في العِشة الصغيرة التي تتكومون فيها أنت وأبوك وأمك وأختاك. جوارك يا ابن الخامسة كُنت تسمع عِراكهما فوق بعضهما بعضا، خواره، وغنجها الشهواني. تُثير أصواتهما رُعبك، تبحث في الظلام الحالِك عن أي شخص تستنجد به، فتكاد تشعر بأنفاس أختيك غير العميقتين المتوتّرين، دلالة على استمرار اليقظة ومُتابعة ما يحدث، بل ورُبما الاستمتاع به، تتشنّج في صمت، بينما تسمع أصوات الممارسات الشيطانية، ويبتل جانباك بالعرق، فتحرق رائحته أنفك. تنسدل الدموع من مُقلتيك في عجز. وعندما ينتهيان

ويسود الصمت، تهدأ عيناك، بينما يرتجف جسدك وتظل تعض على لِسانك حتى تنام. لم تسألهما ولو مرة ماذا يفعلان بالضبط، رغم رغبتك في ذلك، ربما لأن السؤال يحمل الكثير من الرفاهية، أو ربما لأن الرجُل الرابض في أعماقك -مُنتظرًا البلوغ- كان يفهم ما يحدث.

قُبَيْل الشروق، تستيقظ أنت قبل الجميع، وتنظر على هُدى أشباح الضياء إلى وجه أُمك الغافي بإنهاك. الأم الممصوصة من طاقة زوجها التي لا تهمد، ومن اقتياتها على فُتات الفُتات الذي يأتي به عمل أبيكم قبل أن تعمل معه، وعملها وعمل الأختين. كان يأتي الرجُل بالطعام دائمًا. وجبتان كلاهما من ثلاثة أرغفة خشنة قوية كالحجر، يأكل واحدًا بأكمله –فهو الزوج- وتأكل هي نصف رغيف، بينما يأكُل كُل منكم نصف رغيف. مع قطعة الجُبن الأشبه بقطعة من الجير الحيّ. تحرق القلب والبطن. ولكن الأهم أنها كانت تُخمد الجوع، تستبدل خواء البطن بشبعٍ مؤلمٍ. قليلة الكلام مثل زوجها ومثلكم. بل ومثل أهل القرية الصغيرة. لا عزاء للكلام هُنا. الأهم هو العمل ولُقمة العيش. تنظر إلى ملامحها الدقيقة السمراء وعينيها الواسعتين الجاحظتين. واللاتي بدتا في نومهما مثل الكُرة المُتضخمة في ظهر أختك الكبيرة. أو أشبه بكرتي لحم بارزتين من المحجرين. يبدو في ملامحها المالحة وهن شديد. وعندما تراها نائمة تجزع. فتظل تُراقب صدرها بغريزة لا تفهمها لتتأكد أنها لا تزال قيد الحياة. كيف علمت أن استمرار التنفس يعني البقاء حيًا؟ لا تدري. كاسيةً شعرها بطرحة مُتسخة لم تعد تعلم لونها. ولم تعلم اسم ذلك اللون إلا بعد ذلك. هو الأسود ولكنه كان مغبّرًا بالطين والتراب.

تظل تُحدق بها يوميًا، مُتذكرًا ماضيًا يصعب على من هو مثلك تذكره. ترى وجهها من أسفل كأنما أنت تحتها، بينما كُنت فعليًا على حجرها، أحد نهديها مدسوس في فمك الرضيع، تمتص منه ما تمتص من رحيق مغشوش أصلا. تمتص الرحيق مثلما يمتص أبوك الرحيق الآخر. وهي صامدة كالجبل، واهنة دومًا، وباقية كالأبد. عامود العِشّة. التي تحملت ضعفك رغم قسوتها. ولم تكترث لتأخرك في الكلام بكل تأكيد، فتلك أفكار بالغة الترف، بل غير منطقية ومُضحكة في بيت أسرته شبه غائبة دومًا، وعندما تحضر فهي تصمت معظم الوقت. ولكنك على كُل حال نجحت في امتصاص كسور الكلام من هذا وذاك. لتكوّن بناءً سليمًا للغتك المُهشّمة قدر الإمكان. مع ثاني أنوار الغَسق، يستيقظ الرجُل، ويُوقظكم بطريقته المُعتادة، الشتم واللعن والسبّ بأقذع الألفاظ. والرطن بكلمات أخرى غريبة لم تفهمها دومًا. مع كثيرٍ من الركل الخشن. تنتبهون على الفور. ينال كُلٌ منكم جرعته الصباحية الدقيقة من ماء القُلة البارد. والذي تتعبون بشدة للحصول عليه، وتقطعون الأميال وتقتطعون السحاتيت من أجله. لتحصلوا على القُلتين المملوءتين من بئر قرية (صباهين) المُجاورة. الكنز الثمين الذي عليكم المُحافظة عليه والسعي من أجله يوميًا. ذات مرة أُرسلتَ إلى البئر، وعُدت بالقُلة المملوءة، ولكنك تعثّرت وأنت تدخُل العشة. اندلق الماء كُله فاندلق عليك سيل الشتائم من أمك وأبيك وأختيك. سحلك الرجُل ليلا، فعلمت منذئذ قيمة القطرة وقيمة النِعمة. ورُكلت صباحًا لتذهب إلى عملك الذي بدأته في سن السابعة. كما أُمرت أن تذهب بعد ذلك إلى العشّة لتحمل القُلتين لملئهما ثُم تعود، هارسًا قدميك المتورمتين الخشنتين المجروحتين دومًا.

تُساق كالناقة مثلك مثل عشيرتك ومثل كُل قريتك. القرية القاحلة ساحقة الفقر، التي لا ينبت فيها زرع ولا يمُرّ بها ماء. وعندما يأتي الشتاء القارص تتدثرون بأغطية قليلة، شحذها أبوك مع بعض الدِثار الثقيل من أهل الخير في القرى البعيدة. ودفعتُم ثمن تلك الشِحاذة يومين من البطالة، وبالتالي من البطون الخاوية. تخلو القرية نهارًا على عروشها فيما عدا طاعني السن والمُرضعات ورُضعهم في أغلب الأحيان. الكُل يسعى خارجًا منها زرافاتٍ إلى أكل العيش وتلقيط الرزق، لسد رمق لا يُسدّ أبدًا. ثُم يعودون قبائل في الليلِ الحالِك حيثُ يأكلون ويتضاجعون، ويسكنون بعض الوقت، ثمُ تبدأ الدورة الأبدية مُجددًا بالشتائم والركلات الصباحية. لتقوم إلى المحجر البعيد، حيثُ العمل الجديد الذي بدأته في سنك التاسعة، وساعدتك على ذلك قوّتك وضخامة بُنيانك المُدهشان واللذان ورثتهما من أبيك. الذي يعمل بمحجر آخر أنأى. بعد أن عملتما قبلا في «شيل» أي شيء لأي شخص قادر على منحكما السحاتيت في المقابل، أو حتى دون مُقابل، شحاذة. وتعمل أمك وأختاك أي عمل يُعمل -مثلما تقلن بنظراتٍ خاوية- من إعداد الشاي للمهندسين في محجر آخر غير الذي تعمل فيه وغير الذي يعمل فيه أبوك، وحَمل كُل ما ثقُل وزنه، أو حتى نقل بعض الحاجيات بين القُرى المُجاورة.

هرستكم الأيام بينما تتحرّكون جيئةً وذهابًا، من وإلى القرية، في إيقاع غريزي تلقائي. لم يُدرك أحدكم معنى الهِجرة. تتعجب عندما تذكُر الآن. ولكنكم لم تكونوا يومًا قوم معانٍ. لم يُفكر أحدكم في الهرب من ضنك القرية. فقد كانت هي وطنكم الأكبر. لا يتصور أيكم أن يبيت ليلته خارجها. الرحيل إلى مكانٍ آخر ليس من قَسَماتِكم. فلا يوجد مكان تبيتون فيه إلا القرية. وأي مكان آخر هو للعمل وليس للسكن. ولكن ذلك لا يمنع من رحيل بعضكم تاركًا

عِشّا خاوية مهجورة. جبن كُلٌ منكم أن يطأها بعده. إذ يخشى أن يُصاب بلعنة الاختفاء غير المفهوم والرحيل والبهدلة في السفر إلى المدينة. إذ يتحدثون عن البِساط الذي يسحر الناس ويجذبهم إلى البلاد البعيدة حيثُ التهلكة. أرواحكم المُتكلّسة داخل أجسادكم الرثة لم يلمسها معنى أن تُغامر. هو فِعل وشعور لم يكن موجودًا لديكم. وإن وُجد فهو يقتصر على ممارسة عمل خطر يُدرّ سحاتيت أكثر ليس إلا.

في التاسعة، عندما ازداد إدراكك للحياة وقسوتها. سمعتَ الأقوال الواهنة من الشفاه المُتشققة والحناجر المشروخة. عن نحس هذه القرية. وعن الضنك الشديد المعروفة به بين القُرى التي ليست بأحسن حالا بكثير. أنت تذكُر الآن مُحاولة أمك العديدة لتربية بضعة كتاكيت. ولكنها كانت لا تلبث أن تموت. كُنت تنظر لها في رُكن العِشة بينما تدور دائخة حول نفسها، ثُم تسقط بجانبها على الأرض الترابية وصدرها يعلو ويهبط بإيقاعٍ بالغ البطء. قبل أن تتوقف أنفاسها وتتجمّد نظراتها. ربما أتاك فهم نظرية الموت التي طبقتُها أحيانًا على جسد أمك النائم من ذلك، مما حدث للكتاكيت التي اشترتها أُمك بطلوع الروح. وعِندما أخبرتَ (علي) جارك في العِشة المُجاورة، أكّد لك وقوع الحادثة عِندهم. تكررت حوادث موت الكتاكيت وفشل تدجينها حتى أقلع الجميع عن ذلك، بل أقلع أغلبهم حتى عن فكرة تربية أي شيء، ومن فعل لاقت عزوته مصير الكتاكيت.

ورغم النحس. لم تشتعل نار المُقارنات في أحلامكم. لم يطمح أحدكم فيما هو أفضل. ولم تهب رياح المُغامرة لدى الأغلبية العظمى. فمعنى الوطن الأكثر شمولا كان خيالا لا يُمكن أن يُفكر به أيّكم. الدولة أو الحكومة لا تعني لكُم

سوى كلمة تتردد أحيانًا بين المتعلمين والبهوات الذين يُسَخّرونكم. قليلُ القليلِ منكُم من كان يُفاخر بعينين مُصفرتين وابتسامة ممصوصة سوداء بعلمه أين تقع المدينة، مُشيرًا بيديه إلى الأمام ومُجيبًا أنها في عين الشمس.

كيف كان ذاك الزمن يومًا؟ ومُجددًا، كيف صرتَ مَن صرت عليه؟

تتساءل أعينكم قبل ألسنتكم، وما عليّ إلا أن أُجيب.

٣

في نهاية عامي الحادي عشر، كانت حياة الشقاء قد ضعضعت عظامي، وقددت لحمي وجلدي. أدور مع أبي في المحاجر صباحًا، فتنحت الأثقال هياكلنا، وتشوينا الشمس، وتدُق المعاول على رؤوسنا وقلوبنا. أسمع صيحات العُمال مع ضربات المعاول، وأهازيجهم التي لم أفهم منها شيئًا. في البداية استغربتُها رغم حُبي للإيقاع. ولكنني مع الوقت أدمنتُها. حتى صارت هي الشيء الوحيد الجميل في دُنياي. لم تكُن دُنياي بالتعاسة التي تبدو عليها عندما أقصّ عليكما سيرتها الآن. فقد جُبلتُ على ذلك العالم ونُحتُ في تلك البيئة، حتى صارت جزءًا مني وصرتُ جزءًا منها. لذا لم يكُن يؤثر فيّ غضب المُلاحظين من بُطئي في العمل أو شتائمهم بالأب أو بالأم. بل كُنتُ أعتبرها مثل اللكزة التي توجهها لبطن الفرس –أو قُل الحِمار إن شئت- لدفعه للإسراع. أما أبي فكان يعمل في قطاع بعيد نسبيًا عني. المُهم أننا نتلاقى بعد الحصول على اليومية الحقيرة في المساء، نضع السحاتيت على بعضها ونُضيف عليها سحاتيت الأم والأُختين التي نتحصّل عليها في آخر الليل

السابق، لنأتي بغدائنا وعشائنا من بقالة (عيسى) الفقيرة جدًا. الأرغفة الحجرية الثلاثة والجُبن الجيري في كل وجبة. أحيانًا حينما تتقاطع المصادفات مع بعضها ويتوفر لدينا مزيدٌ من السحاتيت ويكون لدى (عيسى) بضعة أقفاص من الطماطم أو الخيار، كُنا نأخذ حبتين من كُل نوع، نقتسمها بعدلٍ ظاهرٍ وجشعٍ باطنٍ. في اللحظات القصيرة التي كُنا نمضيها عند (عيسى)، ذي العينين المُرمدتين الغشيمتين، كان دومًا يشكو لنا الحال. كأنما قد عاش أيامًا أفضل في ماضٍ لا يعرفه هو، ولا أحد يعرفه. يحكي عن زمنٍ كانت فيه القرية مُزدهرة، معشوشبة بالخُضرة والنماء، تطرح صحراؤها فواكه فوّاحةً شهيّة لم نسمع عنها قبلا، وتربو أرضها بأنواع الخُضروات اللذيذة. يحكي عن مطر رحيم غير السجّيل الذي يصيب صحراءنا فلا يُزيدها إلا طينًا. ويحكي عن أُناس غير الناس، وجوههم مُتوّردة من الصحة ويضحكون دائمًا ويلبسون ثيابًا بيضاء. فلا يسعني أنا وأبي إلا الضحك من تخاريفه التي لا تنتهي. يُخبرنا بغضبٍ عن اللعنة التي حاقت بقريتنا لأسباب يعلمها الجميع ولكنهم ينسونها أو يتناسونها. وعندما أسأله ما هي، يُخفض رأسه بذُل صامتًا، بينما يجذبني أبي آخذًا منه بضاعتنا وأحيانًا حبّة الحشيش المُباركة، وهو يصفعني على قفاي ويشتُمني كعادته، فأتبعه صامتًا كعادتي. مُحاولا فهم تخاريف العجوز ومُستغربًا ما يدور في أعماقي من تفاعُلات. هي تفاعُلات تحدُث عندما تبدأ نفسك في التساؤل. وإن طرح الأسئلة التي لا تُجاب لهو آفة العقول والنفوس، مثلما علِمت فيما بعد.

في أوقاتٍ مُقتطعة كُنتُ أطوف على عِشش القرية القليلة، باحثًا فيها عن عجوزٍ يدلني على السر، فلم أجد من العجائز من يملكون الصحة والمقدرة على تذكُر وسرد ما أشاعه الشيخ. زرتُ (عيسى) سرًا في بقالته مُحاولا

استنطاقه، ولكنه ظل صامدًا أمامي. وعندما أصررتُ شتمني صارخًا بصوته العميق المُرعب ومُهددًا بأنه سيُخبر أبي ليقطّعني إربا. ولكن هيهات، كانت تخاريفه الهاذية قد زُرعت في داخلي بتتابعٍ مُتتالٍ، فلم أعُد قادرًا على نزعها. مثلما فعلت نظرات حُب عشيقتك أيها العالِم. ظلت البذور تنمو في الأعماق إلى أن أطلت على السطح وأتى موسم الحصاد.

بدأ موسم الحصاد في بداية عامي الثاني عشر. كان القيظ مُستمرًا في ذاك اليوم المشهود، ودقات المعاول تسير كما الأبد، والحِمل الصخري على ظهري الصامت الصامد، يكادُ يقسمه نصفين. والعرق يغمرني كما يفعل، مثلما يدق النبض في صدري وعنقي وأطراف أصابعي المُتشنّجة بالصخرة. عندما خارت قواي فجأة، تركتُ الكُتلة الصخرية تهوي جواري عن جسدي الطفل الضخم، بينما تتعالى الشتائم من حولي لضعفي وتقاعُسي. تركتُ قدمي الذائبتين تنهاران من تحتي، فانجذبتُ لدوامة الدوار إلى أسفل. وبينما أدوخ وتهوي الشمس الحارقة فوقي، تقاطعت الأحلام والرؤى أمام عيني التائهتين، كأنها الواقع. سبحت أمامي كُل المشاهد التي سردها لي الشيخ (عيسى)، الجِنان والحدائق والخُضرة اليانعة النابتة في عين الصحراء تحت لمعان سيوف الشمس. والعِشش الظليلة المُزدهرة التي تطل على الجنة الخضراء. يرعاها سُكانٌ في ثياب بيضاء بعكس بشرتهم السمراء مثلنا. تخطف عقلي المحموم صورَ الماضي خطفًا، فدار هُنا وهُناك .. في الحدائق وبين الأشجار وفي العِشش. وقد كان ما رأيتُه في مشهد العِشش الليلي مُذهلا، بدا لي بالغ الصدمة.

على رقص النيران المُشتعلة في القناديل، كان الجميع داخل العِشش يدورون عرايا ويدوخون حول بعضهم البعض كالسُكارى. تتخبطهم النشوة وتبدو عليهم ملامح الاشتهاء. يتلاحمون في بعضهم البعض. يُنهي الرجُل تلاحمه مع امرأة ليلتحم في جنون مع أخرى. وتُنهي المرأة تلاحمها مع رجُلٍ لتُعاود الكرة مع آخر. يعبثون بأعضاءِ بعضهم بعضا في مجونٍ مجنون. وكان ما صدمني هو الشبه الواضح بين المرأة ورفيقتها التي تبدو أصغر. كأنما هُما أُختان أو أم وابنتها. والشبه الواضح بين الرجُل ورفيقيه الأصغر نسبيًا. كالأخوات أو كالأب وأولاده. لا فارق، الجميع يتناكحون بشهوة ما بعدها شهوة. وأنا أرى كُل ذلك ببصيرتي المُنفصلة عن العينين، اللتين لا تزالان تُحدقان في نار الشمس الموقدة. ونفسي تُصدم من المشهد الشاذ الغريب، بينما جسدي يرتعد كالمصروع، غارقًا في عرقه. واستيقظتُ مُجددًا عندما لامست لساني المكشوف قطرات ماء هاطلة عليّ. فوسعت فرجة فمي لأستطعم الماء الراوي، مثلما كُنا نفعل حينما تُمطر السماء، كُنا نفتح أفواهنا وقُللنا للسيل المجاني المُنهمر ذي النكهة التُرابية. ركلتْ قدمٌ جانبي بخشونة كما ركلت الشتائم أذني. فارتد لي الحِس كاملا هذه المرة. تأوهتُ بصوتٍ مكتوم، وهببتُ واقفًا، فرأيتُ الجميع في أماكنهم يعملون، بينما يقف المُلاحظ حاملا قُلة الماء، ويقف أحد العُمال الغليظين يُكمل رضّ شتائمه.

على الفور، عدتُ لأحمل أسفاري الأبدية. وكانت تلك هي الإشارة الأولى.

٤

تُقاطعني يا شيخ (أحمد) بعصبية أمام صمت أخيك:

-وإحنا فين من ده كله؟! .. يهمّني في ده إيه يا أستاذ (حارس)؟!

فأبتسم لاستعجالك، قائلا:

-لا بدَّ أن تسمعني إلى النهاية. كما قُلتُ لك ستفهم في الوقت المُناسب. وعلى كُل حال فقد اقترب.

وأعود مع رؤاي المُتفجّرة أمامنا إلى الحكي من جديد. إلى الإشارة الثانية، التي لم تتأخر عن الأولى. فقد لحقتها في اليوم التالي. كُنَّا في الليل الشتويّ، حيثُ البرد الحامل لآثار عالقة من الحرارة، التي تُغلِّف أجواء أغلب أيامنا الساكنة، بخلاف ثوراتها وفوراتها وعواصفها وزعابيبها القليلة. القمرُ البازغُ في الأفق يُعطي بعض النور ويفرش الظلال داخل العِشة المُظلمة بعد العَشاء في نهاية يوم آخر. جواري تتردد الأنفاس في الصدور، مُختلطةً بخوارها وغنجها المُعتاد. يُراقب عقلي كُل ذلك على شفا حُفرة النوم، بينما أتأرجح بين اليقظة والنوم مُتدثّرًا بالغطاء الرقيق الذي يُزيد من شعوري بالعُري. وتُراودني بعض التخاريف الهاذية عن عقلي. من أكثر تلك التخاريف مداومةً على زيارتي كانت حُلمي بالحدائق التي وصفها (عيسى) البقّال. يأتيني ذلك الهذيان في تلك الليلة فأكاد أراني أقضم ثمرة التفاح التي يقول عنها. يسيل لعابي ويكاد يخرج من فمي. فأُحرّك لساني لألحسه من على وجهي المُتسخ وأبتلعهُ.

ينتهي الهذيان بانتباهي للُعاب. فيتوقف اللعاب عن السيلان ويُستبدل بعرق كثيف ينفثه جسدي نفثًا، رغم البرد القارض للعظام. لتبدأ الحُمّى، فأشعر بدقات قلبي العنيفة، بينما تتجسّد أمامي على أصوات الغنج صور مُقتطعة.

أمي وأختي تخرجان مع جمع من إناث القرية إلى طرفها الخلفي، يسرن طويلا بأردافٍ مُمتلئة رغم الهِزال، حتى يصلن إلى أكواخٍ بعيدة نُصبت في قلب الصحراء، حيثُ لا عمار على الإطلاق. تدخل أمي وأختي في إحدى الخيم الرثّة ثُم تذوي اللقطة لتأتي ومضة أخرى، حيثُ تأتي طوائف من الرجال الأغراب، والذين تبدو هيئتهم أفضل حالا منا نوعًا، يدخلون الخيام خلف النساء. في الداخل تتعالى التنهيدات الحارة والغنج الشَبِق والخوار الغاضب، وتتكرر مشاهد قريبة مما رأيته في إشارتي الأولى. يُنهي الرجُل مِنهم دورته عليهن ليضع أمامهن السحاتيت ليقتسموها. أحيانًا كان الخِناق يشتعل بسبب قِلة الأجر المُعطى، وهو ما رأيت أمي وأختي يُشاجران رجُلا بسببه، فيدفعهُن الرجل أرضًا باصقًا عليهن، شاتما وصائحًا أن تلك قيمتهما لا أكثر. هكذا يتوالى ويتناوب على الخيام الأغراب إلى أن يحلك الليل. فتخرج النساء غالقات الأستار خلفهن، ومُرتحلاتٍ بأجسادِ مُفككة الأوصال مُشخللة بالسحاتيت إلى ديارهن تحت القمر المستحي وظلام الدُنيا. الذي امتد ليشمل رؤياي. انتهى الحُلم مع صيحة شَبِقة غير مكبوتة، تبعتها ضحكة مكتومة بترها نومي من المنتصف. لأظل مُتيقّظًا حتى يأتي الغسق بالركلات والشتائم المُعتادة.

وعلى مدار الأيام التالية، أشعل الحُلم جمر الكلمات التي زرعها (عيسى) فيّ قبلا. فتخبطني الأسئلة اللاهثة لتجد مكانًا بين شقائنا المُعتاد. دفع ذلك نوعًا خاصًا من سأم الحياة لدي. وهو ما أدركتُ فيما بعد، أنه بالغ الغرابة لطفل في سني. ولكن من قال إننا وُلِدنا أطفالا؟ لا يُمكن لتلك البيئة الرهيبة أن تُنجب أطفالا. هُم فقط عجائز مهمومون في أجساد صغيرة. وإن كان عليّ استثناء نفسي من ذلك أيضًا. فقد كان جسدي فائرًا. خُلق جسدي عملاقًا ليحمل أسفار

الصخر. ويبدو أن قلبي أيضًا قد خُلق عملاقًا ليحمل أسفار التساؤلات التي لا تنتهي. مع كُل لُقيمة خبز تجرح معدتي، كانت الألغاز الحادة تجرح عقلي، ومع كُل قطعة جُبن تحرق قلبي، كانت التساؤلات تحرق كياني. لِمَ أرى ما أرى؟ طوال حياتي القصيرة لم أمُرّ في نومي سوى بأضغاث أحلام لا تأويل لها. إذ كيف يُمكن تأويل تخاريف أحلام الطفولة التي تُنسى مع أول لمحة غسق؟ وأين هي رفاهية تأويل تلك الأحلام على كُل حال؟ في تلك الرُقعة من الأرض؟ حيثُ لا معنى للعقل سوى لتدبير اللُقمة ولا معنى للحُلم سوى تخاريف نوم قليل يتبعه تيقّظ لاستكمال دائرة الشقاء. لم أحظ سوى بقليل القليل من لمحات الطفولة في بداية بدايتها. حينما كان جسدي لم يفُر بعد وأقدامي لم تتثبت بعد، وفهمي للأوامر لم يكتمل بعد. أهو تخريف نوم؟ أم شيء له علاقة بواقع حادث؟ كيف أثار في كياني تلك الأسئلة كلها؟

ظلّت الأسئلة عالقة على الشبكة العقلية الصدئة دون إجابة، ودون اتخاذ أي خطوة تالية. فأنا لم أكُن أعلم بالأصل أنها خُطوة. لذا لم أفترض أن هُنالك ما سيتلوها. كما لم ينجح كياني البشري في نفضها عن جسدي المشغول دومًا. ولم ينجح قلبي في طردها مع خفقاته المدوية على فراش النوم، الذي غاب عني بالضرورة. وعندما يأتي لا بدَّ أن تأتي معه أي الرؤيتين أو كلاهما.

كم استمرّت الحُمى المُتكررة التي لا تُصرَف؟ بضعة أيام؟ أسبوعا؟ اثنين؟ هو وقت يتراوح بين ذلك. حتى أتت الإشارة الثالثة.

كُنتَ يا (عيسى) الإشارة الثالثة. هل كُنت تعلم ذلك؟ أكُنت تدري أنني سآتيك في ذلك المساء الشتوي المُعتدل على عكس العادة، وحيدًا بعكس العادة. بعدما تخلّى عني أبي للمرة الأولى وأمرني أن أذهب وحدي إليكَ مُحضرًا الطعام في المساء المولود؟ حدق فيّ أبي طويلا بنظرة لم أنسها يومًا، ولم أفهم مغزاها وقتئذ. ولكنني فهمتُ فيما بعد أنها نظرة اندهاش غريب من عُمري الذي كاد يبلُغ الشباب، وبُنياني القوي القريب منه، كأنه ينظر إليّ للمرة الأولى. ثُم أمرني بلهجة أدركتُ لاحقًا ما بها من فُخار، لم يحدثني بها قبل ذلك ولا بعده. وهكذا سابقتُ الزمن عبر العِشش إلى بقالتك الضحلة. كُنت على وشك إغلاق بقالتك في موعدك، عندما أتيت إليك لاهثًا، سمعتك تشتُمني صائحًا بصوتك الحاد المُزعج في مقدمي. إذ كُنتُ هارعًا إليك. لهثتُ طويلا ودق قلبي كثيرًا، ولم أُجبك، فقط أعطيتُك سحاتيتي وطلبتُ طلبنا المُعتاد منك. وبينما تتبادل أيادينا الخشنة المُشترى والمبيع، أخبرتُك سريعًا بكُل ما مرّ بي دون استئذان أو انتظار لحظة. فالشتائم والركلات هُناك في العِشة تنتظرني، وكُلما تأخرتُ، زادت الجُرعة. فقط تمنيت ألا تصل إلى السحل، خاصة بعد تلك النظرة والنبرة التي لاقيتُها من أبي وهزّت عواطفي. لم أمنحك مجالا للذهول أو الاندهاش أو الصدمة، رغم ما بدا عليك منهم. سألتُك عن معنى ما رأيتُ وهل له علاقة بالواقع؟ حاولتَ التملص مني في البداية، ولكنك لسبب غامض، قررتَ البوح فجأة، بعدما خُيل لي أنني لمحتُ بريقًا في عينيك المُرمدتين. قُلت لي إن ما رأيتُه صحيحٌ وهو واقعٌ. فاستعجلتُك بأنفاسٍ لاهثة، باستباق الكلمات، وبكُل ما أُتيح لي من حيل. فأخبرتني أن تلك هي اللعنة التي حلَّت على القرية. والتي بسببها صار الحال ضنكًا بعد يسر. التي بسببها لا يدخل نفرٌ قريتنا لأنه يعلم. حتى الحشرات

والعقارب تعلم، كم القرية ملعونة بأهلها. كم هي فقيرة جدباء لا أمل فيها. لا حياة فيها ولا بركة. لا تعِيش لها دواجن ولا ماشية. أهلها يعملون في القرى المُجاورة بطلوع الروح تحت نظرات احتقار لا حد لها. وحينما يُحسنون العُمل لا يُجزون سوى أقله أجرًا. سحاتيت قليلة حقيرة تزيد من ضنكهم، لا هي تُميتهم ولا تُحيهم. إن أهالي القُرى ليستعبدونهم بتلك السحاتيت وليُحقروهم بِها أكثر. بل إن رواد نسائها أنفسهم لا يرضون أن يدخلوها ليُعاشروهن في عِششها. يُفضلون اللقاء في الخيام التي نصبوها لهُن خارج القرية، بعيدًا عنها بمسافة كبيرة. وأضفتَ بحلق جاف مبهوت من اللهاث أن كُل رجال القرية يعلمون بأمر نسائهم وبناتهم، بل هُم من ساعدوا أغراب القُرى المُجاورة على بناء خيام العِشق منذُ أمدٍ بعيد. ثُم قلت بانكسار واجم إن الرجال أنفسهم يأتون بناتهم، واستدركتَ مؤكدًا لي أنك لم تفعلها أبدًا مع ابنتك الوحيدة رغم وفاة أُمها. هُنا لم أعد أستطع منع نفسي من السؤال، ومن كُل الأسئلة المكتومة. وما المُشكل في أن يفعلوا ذلك؟ لتجيبني بغضبٍ ظهر فجأة: حرام. ماذا تعني حرام يا عيسى؟ يعني لا يصح يا حِمار. لِماذا يا عيسى؟ لأن الله نهى عن هذا. أسألُك بعدم فِهم تام عن الله، من هو يا عيسى؟ فتقول بنبرة أقل انفعالا وبنوعٍ من الرويّة إنه هو ربّنا الذي خلقنا. أولم تخلُقنا أُمهاتنا بعد أن يفعلها معها آباؤنا يا عيسى؟ أليست الأم هي التي تحمل الجنين وتُخرجه بعد ذلك؟ يا حِمار إن ربنا هو الذي ينفخ فينا الروح ونحن في بطون أمهاتنا. ما الروح يا عيسى؟ هي الحاجة التي تدفع قلوبنا للدق وأجسادنا للحركة. ماذا تعني يا عيسى؟ أعني الحياة يا أحمق. إذن لِم حلمتُ أنا بكل ذلك يا عيسى؟ اللهُ أعلم. ولكن ربما تكون من الصالحين يا (حارس). فتطلعتُ إلى الظلام حولنا، بينما أنتَ واقفٌ في دكانتك، مُختبئًا مثل أفكارك

وتساؤلاتي خلف الظلام. سألتُك بينما أبدأ في التحرُك أن تخبرني بسرعة من هُم الصالحون. جريتُ إلى سحلي المُنتظر، بينما أسمعك تُجيبني أنهم الذين يطهّرون النجاسة يا ولدي.

قطعتُ الطريق القصير بقلبٍ مُضطرب بين ما تعنيه كلمات (عيسى) الهاذية ورُعبي من أبي بعدما خيبتُ رجاءه وعُدتُ مُتأخرًا. دلفتُ العشة على ضياء القمر، فرأيتُ ظلال عشيرتي مُتربّعة في المكان. بغريزة صارت طبيعة، وضعتُ الأكل في منتصف الدائرة على الحصير في مقدّمة العِشة نحو الخارج، فسقطت النسمات المُحملة بضي القمر على الأكل. نظرتُ للمعان عيني أبي في الظلال وقُلتُ بقلبٍ مخطوفٍ ونحنُ نبدأ أن (عيسى) قد أعاقني بتخاريفه المُعتادة. فكان الغريب أن تمرّ الليلة بسلام. اكتفى الرجل بنظرة طويلة أخرى لم أفهمها وقتئذ أيضًا، ولم أفعل إلى الآن. تمر الليلة الغريبة وسط صمتنا الغالب وكلامنا الفارغ. لتجمع أُمي كِسرات الخُبز كُلها في حفنة صغيرة ثم تلقُفها في فمها، تمضغها كما تفعل دومًا باستمتاع غريب. لم يعطني (عيسى) الحشيش الليلة، مما ترتّب عليه أن مرّت الليلة هادئة دون صخب وغنج. وهو ليس ما يحدث في الغالب. سَكَنَ الليل بالأنفاس النائمة المُنتظمة، وبقيتُ مُتيقظًا أنظم نغم خواطري الجياشة على نول أنفاس النيام. حاولتُ جاهدًا ألا أفقد كلمات (عيسى). بعد أن أعدتُ ترتيبها. ماذا الذي كان يعنيه العجوز؟ من هو الرب ذلك؟ وإن كان هو الخالق لِم لا يتدخل في إنهاء شقائنا. لِم لا يأخذ أرواحنا مثلما أعطانا إياها؟ بالتأكيد لأننا ملعونون ولا بدّ من تعذيبنا حسبما تعني كلمات العجوز. ولكن لِم الرب يكره إتيان الرجل لابنته والأم لابنها مثلما رأيتُ في الحُلم ويجعله حرامًا؟ أهو أمر يضر الجسد؟ أمن الممكن أن يكون مُضرًّا للروح؟ ثُم أين هذه الروح بالضبط؟ أهي في

رأسي أم قلبي أم عيني؟ تُحيطني الأسئلة، فتُصفد العرق البارد على جسدي وتُخدر أطرافي بنوم قادم. أو هو أمرٌ أقربُ للنوم. فعندما سرَّع قلبي دقاته في أذنّي، شعرتُ فجأة أنني أعلو فوق الحصير، تركتْ شقوقه جلد يدي وقدمي، لأطفو مع دِثاري المتهرئ فوق الأرض المُتربة. علوتُ فكدتُ أصل سقف العِشة، ثُم اخترقته دون أن أُزيحه. طفوتُ فوق العِشش المُتراصة مثل كُتل طينية كبيرة على الأرض الفضّية في ضوء القمر. اشتعلت رأسي بسخونة حارقة، فكادت تلمس النيران عيوني من الداخل. ومع ذروة النيران داخل رأسي. أُنيرت بصيرتي، أُزيح الغطاء ورأيتُ كُل شيء. في لحظة واحِدة علمتُ ما يدور في نفس كل نائم في عِشته. رأيتُ خطرفة الحالمين وآلام المؤرقين ولهاث وغنج وتحشيش الساهرين. بشعور الخِدر والغرابة والجنون، وبغريزتي المُستحدثة، انطلق كياني الطافي نحو عِشة (عيسى) المُتاخمة لدكانه الصغيرة. رأيتُ عينيه المُضطربتين الساهرتين وأنفاسه المُتقطعة وتنهُداته المُتكررة، غُصتُ بكُل ما بي من فضول وكل ما ينهشني من تساؤلات في أعماقه. لم أدرِ كيف فعلتها، وكيف اقتنعتُ أنني قادر على ذلك، ولكنني فعلتُ. رأيتُ وبلغتْ دهشتي أقصاها، ثُم هدأت الدهشة وأتي الفهم التام بسكينته.

رأيتُ الحدائق والجنان السابقة في أراضينا، وأجدادنا السُعداء، هنيئين بما صنعوه في أرضهم. يزرعون ويحرثون نهارًا ويتمتّعون بزوجاتهم ليلا. يأكلون من ثمار صنيعتهم. تزدهر مواشيهم ودواجنهم فيأكلون اللحم الطري المطهو على نيرانهم بشهية طيبة. يستهلون الأفعال باسم اللّٰه الرحمن الرحيم. يُمارسون طقوسًا غريبة بأجسادهم. خاشعين مُغمضي أعينهم. علمتُ أنها تُسمى صلاة. فيها يذكرون ربّهم كثيرًا. إنه اللّٰه الذي حدثني عنه (عيسى).

عندئذ تذكرتُ الأسماء والأقوال التي كان يتلوها العُمال، بينما تهم عزيمتهم بتكسير الحِجارة. ينادون: يا اللّه. ويا قوي. ويا عزيز. ويا رحيم. ويسألون ربهم أن يُصلي على سيدهم مُحمد. رأيتُ أجدادنا يتحدّثون عن أخلاقه وعطفه وكراماته هو والأنبياء والصالحين. ففهمتُ معنى الصالحين التي حدثني بها العجوز. إنهم الذين يأمُرون الناسَ بالمعروفِ وينهون عن المُنكرِ والبغي، مثل الخِضر، واستوعبتُ قصته. غُصتُ أكثر في أعماق العجوز باحثًا عن النبي. فعلمتُ أنه الرجُل الذي يُكلفه اللّه تكليفًا مُباشرًا بمهمة إصلاح أحوال العِباد وإرشاد قلوبهم لله رب العالمين. مثل سيدهُم مُحمد. واستوعبتُ أن صلاة الناس المُتكررة لله هي لطلب الرحمة والمغفرة. بينما صلاتهم على النبي إنما تعني الاستجداء به ليشفع لهم عند ربهم. كي يرحمهم ولا يُعذبهم. وصلاةُ اللّه على عباده تعني رحمةً منه عليهم. سمعتهُم يتلون كِتابًا بصوتٍ خاشع مُنظّم كالغناء، فاستوعبتُ أنه كلام اللّه. يدعونه قُرآنًا. يتحدث فيه ربُنا عن حياة كل نفس ومسارها المكتوب المعلوم لديه في لوحٍ محفوظ، يُسميه قَدَرًا. كما يُقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة. لا أفتأ أتساءل عن معنى يوم القيامة، حتى تتداعى المعاني في دماغي المشتعل. يوم يُحاسب فيه المرء على كُل ما فعل في دنياه، إن فعل خيرًا ثقُلت موازينه، ودخل جنات أفضل من جنات أجدادنا الجميلة. وإن خفت موازينه فمصيره النار الحامية إلى أبد الآبدين. لِماذا يحدث ذلك؟ لأنهُ مكتوبٌ في لوح كُل امرئ وكِتابه. لأن الاختبار والاختيار هو هدف الدُنيا منذ أُخرج أبونا آدم مع زوجه حوّاء من السماء وجناتها، بسبب الكائن الخفي المُلقب بالشيطان، والذي نزغهما مثلما لا يزال ينزع أبناءهما بإتيان السيئات. جرى عقلي خلف التحريمات والأوامر

والنواهي. وحُفر كُل ما أدركتُ داخل أعمق أعماقي. ولتتواصل الرؤى داخلي بلا انقطاع. تنساب بسُرعة شديدة ومفهومة تمامًا رغم ذلك.

كانت حياة الأجداد الهادئة الطيبة الرغدة تسير على أفضل ما يكون. ثُم بهدوء الثعابين وخبثهم، يبدأ الشيطان في التسللُ إلى قلوبهم. بعدما دق عليها الكِبر. يبدأ بعضهم الهمس أنما حصدنا ما حصدناه من خيرات لهو من عِلمٍ عندنا. وإذ ارتددنا لقيامتنا لنجدنَّ عند الله أفضل لنا منها. ينقسمون فيما بينهم. وتبدأ القلوب في الاضطراب. دقة إيمان ودقة شك. نصف ونصف. تزداد فرص الشيطان للضعف. يُغذي غرورهم ويتغذّون به. يقولون إنما نحن لآتينا الحياة الكاملة، أنزلنا الجنة من سَماها للأرض. نكادُ لا نمرض بسبب حياتنا الصحيحة. الماء وفير من بئر (صباهين). والأمطار رحيمة. والثمار موجودة. لِم القلق؟ تنقطع حلقات الذِكر، تتكاسل الأبدان وتُنسى الصلوات فتزيغُ النفسُ إلى هواها. تحلو البنت في عين أبيها ويحلو في عينيها. يحلو الولد في عيني أمه وتحلو في عينيه. تتحاب الأخوات. تبدأ الخطيئة في الظلام. ثُم تتوارى. بينما الرخاءُ ممدودٌ. يتهامسون بالفاحشة في تقزز أولا، ثُم غضب، ثُم استنكار، ثُم برود. ثُم يبدأ كُلٌ منهم في خوض تجربته الخاصة. فجنة الدُنيا موجودة وجنة الآخرة محجوزة، سيتوبون في أي وقت ليحصدوا كُل شيء في الوقت المُناسب. يُكرّرون الأمر فيشتهونه بشِدة. تجري الخطيئة في دمائهم وتُزفر مع أنفاسهم. يقولون: لِم حرّمه الله على كُل حال؟ كان ذلك في زمنٍ سابقٍ، وقد ولّى ذلك العهد. ثُم إن أبناء آدم قد تزاوجوا قبلا. بالتأكيد ليس حرامًا. ثُم فجأة يبدأ القحط. تعقُم الأرض والماشية. فيتضورون جوعًا. تشيع فاحشتهم بين القُرى المُجاورة فتُقاطعهم وتُغير عليهم وتسلُب منهم البئر. فتجف حلوقهم وتتشقق شِفاههم. يموت

منهم الجوعان والعطشان. ولا تقبلهم القُرى المُجاورة. ورغم ذلك يستمر أغلبهم في غيّه. فقد اعتادوه. تهزل أجسادهم من قِلة الأكل والشُرب والشحاذة بين القُرى. ولكن شبقهم لا يتوقف. ورغم ذلك يكادون يعقمون فلا تُنجب الأُم أكثر من طفلين عليلين بمشقة، ويمرض الشيوخُ ولا يموتون، ويشقى الأبناءُ ولا يلعبون.

كُل ذلك و(عيسى) يُراقبهم. منذُ كان صبيًا بريئًا شاهِدًا على نهاية الإيمان، وشابًا صالحًا يرى بداية سقوطهم في الشبق الذي لا يهمد. ثُم كهلا وعجوزًا يرى عاقبة جُرمهم. لم يكُن يقف ساكنًا. انعزل عنهم بفطرته السليمة، وما لقنوه إياه من إيمان قبل شرورهم. وعافهم عندما هوَّسهم العِشق والمجون، رافضًا مراودة أقرب أقربائه له عن نفسه. ومُحذرًا ثُم صائحًا ثُم صارخًا بالجُرم الذي سقطوا فيه. ذكّرهم بما حكوه له قديمًا، عن الجَد الأكبر. الرجُل الحكيم الذي نوَّر اللّه قلبه بالإيمان قبل أن تَمس عقله معرفة الإسلام. أبصر اللّهَ في كل ما يرى ويحُس، في خارجه وداخله، قبل أنْ يمتصَ عقله من شفاه قوافل التُجَّار الرُحَّل تعاليمه، وينهلُ رحيقَ القرآنِ من روح شيخهم المُبارك، الشيخ (مجاور)، ليهدي قومه ويبشّرهم بالنور الإلهيّ الذي يُجلي ظلماتِ البرِّ والبحرِ، فيؤمن بعضُهم مُسلّمين، ويرفض الآخرون مُستغنين، فيعيشون جميعهم رغم ذلك مُسالمين.

كرّر (عيسى) عليهم تاريخَهم الذي أنساهم الشيطانُ إياه. كرر عليهم حكاية الجَدِ الأكبر مع عشيرته المهديّة، عندما تركوا مكوثهم القديم في حُضن الجبل وعلى حدود النجوع الشرقية. وعندما هبوا من رقدتهم، الراضية بحكم اللّه وأمره وطاعة أولي الأمر وعَيش الدِعة الهانئ، الذي سكنوا إليه مع

جيرانهم إلى جِهاد الهجرة. إذ رأى الجد الأكبر في منامه الشيخ (مجاور)، شيخ القوافل الصالح المُبارك الذي تردّدت كراماته -والتي رأى الكثيرَ منها بأُمِّ عينيه- على الألسنة البطيئة الرخيمة بالليل وفي الحلوق المحترقة بالنهار في الفلاحة. رأى الشيخ متين البنيان قادمًا إليه بينما يقف بأرضه الخصيبة، لا تهرس خطواته الزرع. بينما عصاه الشهيرة تكاد تكون طافية بالفعل. تنساب خطوات الشيخ إليه حتى يبلغه. ينظر الجد في عينيّ الشيخ العجوزتين المُحتقنتين، واللتين تحملان رغم ذلك قوةً بالغة وطمأنينة مُدهشة. ولا يلبث أن يأمره بصوت قوي أن يتبعه. فيسير الجد خلفه بجسدٍ مبهوتٍ مسلوب الحِس والإرادة. يخرج من حدود القرية المتاخمة للجبل ومتاهاته، والجد يتبعه. يطفو على رمال الصحراء المُتّقدة بجمرات الشمس، والجد في إثره بذات الحال المبهوتة، والتي أضيف إليها الحلق المُتحجّر العطشان مع الزمن، والتوغل في أعماق المتاهات الجبلية. يُحاول أن يُحرّك لسانه كي يسأل الشيخ الذي يقود المسير بلا هوادة أو انتظار، ولكن لا كلمة تخرج من فمه المشلول. يقول له الشيخ بذات الصوت القوي ودون أن يلتفت أن صبرًا آل ياسر. يحاول أن يخبره أنه لم يعد يحتمل، جسده الغارق في عرقه قد أُنهك وقدماه قد قدّدتا من الرمال الساخنة، وحلقه قد احترق. أين النهاية يا شيخ (مجاور)؟! أين الخلاص؟! ولكن لا مُجيب. يسيران أميالا أو أيامًا أو شهورًا .. لا يحسب الجد الأكبر. ولكنه أكيدٌ أنَّ قلبه قد دقَّ بسعادة كُبرى وخلاص نهائي عندما توقّف الشيخ الصامت. وأدار جسده تجاهه مُبتسمًا بانشراح، وقبل أن يسأله الجد حرّك الشيخ عصاه وضرب بطرفها الأرض تحت قدميهما. فتفجر منها الماء تفجيرًا. أثار الماء المتفجر لهفة ريق الجدّ، فأقبل عليه يحفن ما يقدر أن يحفنه ليُلين به جمود حلقه وسخونة جسده. ويُغرق رأسه وصدره

بالماء في فرح. وعندما ينتهي يقف مُتطلعًا إلى الشيخ الذي ابتسم بذات الصمت، قبل أن يذوي مع رؤياه من منام الجد. يستيقظ الجد فيخبر قومه الذين يحترمونه أبلغ الاحترام، ويهابونه أجلّ المهابة، أنه قد رأى الشيخ (مجاور) في منامه يأمرهم بالرحيل. فيطيع أغلبهم أمر الحكيم النافذ بلا نقاش رغم العيون المتسائلة والنفوس المهتزة في استنكار مكتوم. بينما رفض الأقلية أن يتركوا أرضهم الراضية المرضية إلى ربوع الصحراء الموحشة ومتاهات الجبل الدودية. حذّرهم الجَد وأتباعه المخلصون من مغبَّة ذلك. وأنه لا بدَّ من مغزى ربّاني للرسالة التي حملها الرجل الصالح. ولكن هيهات، تراكم كِبرهم مع أحلامهم بوراثة أرض أهلهم التي ستُهجر، وزادتهم المحايلة عنادًا فوق عناد، بلغ حد تسفيه الجدّ المُخرف، المُنقاد خلف أحلامه، قائدًا قومه نحو الهلاك المحتوم. فيأمر الجد أتباعه ألا يعيروا للأغيار اهتمامًا. وأن يحزموا كل أمتعتهم وأغذيتهم تاركين المُتكاسلين في النعيم الزائل. ينطلقون في رحلة المجهول، ولكن الجد يقودهم باقتدار، مُهتديًا بآثار منامه التي حُفرت في روحه. ينفد غذاء الرحلة أو يكاد، بينما يحتفظون بمخزون غذائهم الضروري لبدايات مكوثهم، كما يشح الماء أو يكاد. تتطوح الأجساد من العطش القائم والهزال القادم، ولكنه يُصر على التقدم ويأمرهم بالصبر والمُثابرة. يقول لهم أن رابطوا يا قوم فإننا مهتدون بكرامات الشيخ (مجاور). لا تيأسوا من رَوح اللّه. فيُكرر معهم سيرة الشيخ معه. إلى أن يقف في الموضع الذي أضاء قلبه بنور اليقين. ويأمرهم بالتوقُف. ويشير للرجال بالحفر في الموضع الذي حدّده بعصاه. فيحفرون ويحفرون حتى يسمعوا خرير الماء تحت الأرض، فيزدادون شوقًا للجائزة الكبرى وعطشًا للخلاص. حتى يتفجّر الماء من بين أيديهم فيروون ظمأهم ويغتسلون في الماء

الثجاج. ويصعدون بأحبالهم من البئر المحفور إلى سطح الأرض، التي تصبح تحت أيديهم التي لم تكل جنةً صغيرةً، بينما تقفر أرض وطنهم السابق فيهجرها القاعدون إلى القرى المُجاورة ويهلك بعضهم. ويموت الجد الأكبر راضيًا بصنيعه وبالبركة الإلهية التي سُحبت من أرضهم القديمة لتحل على الأرض الجديدة القفر عن طريق العبد الصالح الشيخ (مجاور).

يعود (عيسى) ليصرخ في قومه بالويلات والعِقاب الإلهي الذي سيحلّ عليهم جرّاء ضعفهم أمام الفتنة، مثلما حلّ بأهاليهم قديمًا. ولكنه كان يُراقب ويحدث ويُنذر ويُراقب حجرًا. لا يسمع ولا يلين. انحشر غضبه وألمه وتقززه ويأسه في صدره، وقد قرر الرحيل عنهم. حاول قد استطاعته، ارتحل بين القُرى المُجاورة التي لفظته الواحدة تلو الأخرى. ولم يملك من الزاد المعدوم والمال الشحيح للقيام برحلة بعيدة عنهم. عاد مُجددًا إلى قريته. ولكنه قرر اعتزالهم. ثُم لانت نفسه مع الوقت ومع الجوع واضطر للتعامل معهم مُجددًا. دحرجته الأيام بين البرد والحر والجوع والعطش. يعمل أية مهنة وكُل مهنة إلى أن وفقه الله إلى تكوين دكانته الصغيرة، والتي يحمد الله عليها على كُل حال. شاخ جسده وتقدّم به العُمر، فتزوّج من سيدة مُعدمة لقيها في قرية (صباهين). ولم يُنجبا إلا (هنا)، ثُم ماتت الأُم مع عام الفتاة الخامس. فطهّرها أبوها وأَبَى أن تسلُك الفتاة مسلك نساء قريتها، بل لم يسمح لها وهي لا تزال صغيرة باللعب مع صغارهم.

وهأنتذا يا (عيسى). هلك منهم من هلك، وبقيتَ أنت مُثابرًا في الدُنيا التي اشتدت قسوتها. صامدًا أمام فتنة أقرب الناس إليك. مُتعففًا قدر الإمكان رغم تخلُقك ببعض خلائقهم. والتي كانت قشورًا على كُل حال لا تساوي الفُحش

الذي بلغوه، والذي هُم فيه مُغرقون. تراهُم رغم القحط جاهلين، ويزيدهم القحط جهلا، فلا قيمة تعلو فوق قيمة الخبر والجُبن. يصير تعفُفك عنهم ومراقبتك المُستمرة لسقوطهم أشبه بانتقام صامت. شامتًا، تتطلع إلى جُهَّالهم وأنت تُقايض سحاتيتهم بخبزك وجُبنك وحشيشك الذي تحصل عليه سِرًا من تاجر صديق بقرية (إزبهان) المجاورة. تجارة معقولة جرَّاء إنقاذك لحياته -بينما كان غافيًا- من عقربٍ قاتل، في أثناء ترحالك الفاشل بين القُرى. ترى نساءهم رائحات مُهتزات وعائدات مُنهكات، فتشتمهم وتصُبّ عليهم لعناتك. وتدعو اللّٰه في صلواتك السرّية ومع كُل ختامِ سورةٍ أن يُهلكهم أكثر، وأن يُعينك على الثبات، ويرزُقك مخرجًا من نجاستهم. تحلُم بالرحيل فتعلم أنك لن تناله مثلما حدث في السابق، وعندما تُفكر فيه عازمًا على معاودة الكرَّة، تفشل وتضعف. فلقد رُبطْتَ بالموضع الملعون، ولم يعد جسدك العجوز يتحمل وعثاء المغامرات، كما لا تستطيع إرهاق ابنتك وقُرَّة عينيك اللتين ترمدتا. تخاف عليها من الهواء الطائر وتمنحها أكثر قدر من الحُرية التي لا تضرُها ولا تُعرّضها لسفالتهم. كما أنك لا تستطيع منع نفسك من التخلي عن مُتعة الشماتة فيهم، بينما يتركون نساءهم تضاجع الأغراب ويُضاجعون بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم كالبهائم. جاهلين أن اللّٰه يرى. بل جاهلين بوجوده أصلا. وعندما تُحاول إخبار شبابهم وصغارهم عما يجيش بصدرك، علك تُنقذهم. لا يُساعدونك ولا يفهمونك. يسخرون مِنك ومن ترّهاتك، فأنت مُجرد عجوز مُخرف، لا عِوز لك.

إذن. فهي المُثابرة يا (عيسى) والانتظار الأبديّ للفرج. لا تخشى الموت ولكنك تدعو اللّٰه يوميًا ألا تموت قبل أن تطمئن على ابنتك مع زوجٍ يكون حلالها، ولا يُحللها لغيره.

أراك تبكي أيها العجوز، تشعُر الآن أن الفرج قد اقترب. بعدما حكيتُ لك ما حكيت سابقًا. وبعدما شعرتَ بدخولي المُدهش في كيانك ونبش قبور الذكريات المطمورة. أُطمئنك وأُطمئن نفسي يا (عيسى).

أليس الصُبح بقريب؟

٦

تهاوى ضجيج الأصوات والتساؤلات، وأظلمت الرؤى والمشاهد. هدأت الحُمى ولم يبق سوى غزير العرق. ساد الصمت والظلام داخلي لفترة لا أعلمها. ثُم أخيرًا تيقظتُ على صدى نداءات أبي وبُكاء أمي وأختي. ساد داخلي خواء مُستفز مما أثار غضبًا غريبًا في أعماقي. كأنما قد اعتاد كياني تساؤلاته ورؤياه الجديدة حتى بات لا يتصوّر الحياة دونها. كيف حُفر كُل ذلك داخلي بتلك السُرعة والعُمق؟

فتحتُ عيني على الصورة البصرية لما سمعته من أصوات. فأتاني ظلام الليل ولكن ذلك لم يمنعني من استشفاف صمت الأب المُتجهم القلق والأُم الباكية والأختين المُتشنجتين بقلقِ البُكاء. لم تبد تلك المشاهد مألوفة لدي. وإن كُنتُ قد رأيتُها قبلئذ. عِندما كان يُشيع أحد العجائز أو المرضى وسط جمع أهاليهم. يولولون ويبكون بأصوات مُزعجة كنعيق الغربان، ثُم تنطلق الزفة إلى الحدود الغربية لقريتنا حيثُ يوارون ميتتهم. قُلتُ لنفسي بينما أُحاول التشبث بحافة اليقظة، إنهم على الأقل يعرفون معنى الدفن. رغم أنهم لم يكونوا يخجلون من سوآتهم. ولم يُحاولوا دفنها أبدًا. بل تباهوا بها واعتبروها

عادة لا تستحق الترك، كالأكل. مثلما ينعقون في الأتراح، كذا كانوا يفعلون في الأفراح، مُستبدلين قِبلة الزفة من لحدهم التُرابي إلى عِشتهم المُتهالكة.

استغربتُ تساؤلاتي الدخيلة على يقظتي. كأنما قد استبدلتني الحُمي بشخصٍ آخر، يحمل فقط ذات ملامح الجسد ونفس الصوت. حاولتُ التركيز مُبتلعًا ريقي الجاف، وحركتُ يدي أمامي في الظلام، كأنما أُحاول التأكُد من أن بصري ما زال موجودًا ولم تحرقه نار بصيرتي الجديدة. سألتُ أين أنا؟

فسكن البُكاء وبقي التشنُج وشعرتُ بتراخي ملامح الأب بعض الشيء. وأجاب أنني في العِشة، إذ مرضتُ ولبثتُ في الحُمى بضعة أيام. اندهشتُ من هوة الزمن التي سقطتُ فيها وخرجتُ منها شخصًا آخر. قال إنهم أتوا بـ(عيسى) علّه يحاول تطبيبي. فأتى مُسرعًا وفحصني ووضع كفه على رأسي الساخن قبل أن يقول إن الحُمى ستخف خلال أيام قليلة. نصحهم بالمواظبة على ريِّ حلقي الجاف بالماء قدر استطاعتهم، ففعلوا. وهأنذا أعود إليهم.

شعرتُ بغرقي في عرق الحُمى ومرق جسدي، عندما قبّلتني أمي واحتضنت أختي كفي. وأكمل أبي بخشونة أن عليّ استرداد عافيتي بأسرع وقت. وعلي أن أحاول الوقوف على قدمي من الآن كي أعود غدًا إلى العمل. قال ستساعدك الحركة والنشاط على استرداد عافيتك. قال عباراته بقسوة مُتعمدة آلمتني وردّتني للواقع. مما جعلني أتساءل في صمت عن كُل ما مررتُ به. أهو مرض ما؟ أهي أوهام الحُمّى وخيالاتها؟ ولكنها شكوك بدت بالغة السطحية، لم تستطع جرح القناعات الجديدة التي غُرست في. أنا أعلم عِلم اليقين أنني على الهُدى. أنني كُنتُ أعمى وقد أتاني النور. خرجتُ من الظلمات للأبد ولا يُمكن إليها أن أعود.

كان الوقت ليلا عندما انتهت الحُمّى. لذا استغللتُ تشجيع أبي وقُمتُ من الفِراش بجسدٍ بالغ الثِقل. ضربت المطارق رأسي وخانتني مفاصلي لكنني قاومتُ ونجحتُ في الوقوف. في الصقيع الشتوي، تيقظتُ بينما هُم يضطجعون للنوم. أخبرتهم أنني سأقوم وأُحرك جسدي في الخارج كي أسترد قوتي بسرعة. فحذّرتني أمي من وهني. ولكنني استمسكتُ برأيي وتحصّنتُ بإصرار أبي على نزولي العمل في الصباح. قُلتُ مللتُ الفِراش والرقاد. فأمرتني ألا أبتعد وألا أغيب، فأنا لم أخرج من الحُمى إلا منذ قليل القليل. طمأنتُها وخرجتُ إلى ليل القرية الدامس في غياب القمر خلف السُحب الكثيفة. والذي اعتدنا عليه واعتاد علينا. فلم نعُد نخشاه وصرنا نكادُ نرى في سواده. بأقدامي الثقيلة وجسدي المُثخن، تحركتُ حول العِشة حتى بدأت عقدة جسدي تنحل. دفعت برودة الجو لكمات الجوع في بطني ولكن رغبتي في الأكل كانت منعدمة. سرتُ عبر طُرقات القرية الطينية من أثر شتاءٍ قريب مُتأملا ومُقارنًا مشهدها السُفلي بمشهدها العلوي الذي أتاني في بداية الحُمى. وعندما أتى ذِكر الحُمّى، ذهب طنين الخواء وعادت التساؤلات مع ابتلاع ريقي الشحيح. لم تكُن التساؤلات مُضطربة هذه المرة. بل أتت عن ثقة وثبات. أنا مُتيقن مما حدث لي ومما فعلتْ الحُمّى. لقد قرأتُ الناس خلالها بوضوح. وغُصتُ في أعماق (عيسى) ناهلا منه كُل ما يُمكن نهله من خبرات مؤلمة وتاريخ ملعون. نظرتُ للسماء الرمادية فتنبهتُ لبرودة الليل، والتي لم أشعُر بها بصورة أو بأخرى. تلذع جسدي الذي كان محمومًا بهدوء فلم أعد أشعُر بتلك القسوة. فقط شعرتُ بدغدغة الهواء البارد لجسدي المُرتجف، بينما أعماقي لا تشعُر بالارتجاف، وإنما حلّت عل سكينة استثنائية خدّرت كل أحاسيسي الأخرى. ألأنني أُفكر هكذا أول مرة؟ أم لأن الله قد أنار طريقي؟

ربّي الذي اختارني، ليهديني، ليُحملني رسالة. يقينًا صرتُ أعلم فحوى الرسالة التي عليّ تقديمها. أشعر بالسُحُب الكثيفة والطين البارد والحيوانات البعيدة والهواء القاسي اللذيذ يؤازراني فيما سأفعل. لأنني لم أختر طريقي. فالله هو الذي رمى. أنا من الصالحين كما قال (عيسى)، وإن لعلي مُهمة أؤديها. زفرتُ أنفاسي الساخنة فخرجت بيضاء كثيفة لِما يُحيطها من برودة. زَفَرَ قلبي دماءه سريعًا. وقد هداني اللّٰه إلى القرارات الحاسمة.

قُدتُ قدميّ وذهبتُ إلى عِشّة (عيسى). لم أرفع صوتي بالنداء. وإنما أغمضتُ عيني وبثقة غريبة تركتُ كياني يطرق كيانه. افتح يا (عيسى) أنا على بابك. أعلم أنك ساهدٌ لم تنم بعد. ولن تنام لأن الوقت قد أزف، وستضطر للقيام بعد قليل لشراء بضاعتك من صديقك في القرية المُجاورة. وجدتُه يُزيح باب العِشة ليقف على عتبتها. بدا نوع من الفرح في عينيه المُرمدتين، وفي خلجاته المُترهلة العميقة. أخبرني أنه انتظرني كثيرًا واقترب مني مُبتسمًا، وضع ذراعه على كتفي ودلفنا إلى ظُلمة سكنه. رأيتُ حركة مُنتظمة في زاوية المكان، فهمس أنها (هنا) ابنته ذات الربيع العاشر، نائمة. فهززتُ رأسي مُتفهمًا، ثُم همستُ له أنني فهمت كُل شيء. وقد عَلِمت ما عليّ فعله. فأكد بحماس على كلامي مُجيبًا أنه يعلم أنني تواصلتُ معه في حُمّتي. وذلك يؤكد أنني من الصالحين إن فعلت الصواب. قُلت له إن اللّٰه قد هداني إلى الصواب. وإنني أعلم تمامًا ما عليّ فعله. وسيكون ذلك في الليلة التالية. فلقد أتى الأمر الإلهي وقُضي الأمر. رأيت ظلاله تهتز بتأثر، بينما يهمس بصوت مرعوش بالبُكاء أنه حَلُم بتلك اللحظة طويلا، حَلُم بالخلاص وها قد أتى. قُلتُ له إنني أعلم. وسألتُه ماذا سيفعل هو وابنته. فأجابني أنه أيضًا يعلم ما عليه فعله. وطلب مني معروفًا. ماذا يا (عيسى)؟ أُريدك أن تأخذ ابنتي يا

(حارس). فلترحل معك. وسأُدبر لكما مأكلكما في رحلتكما. بضاعتي كُلها مِلك يمينك. فلم أتردد لحظة في رد طلب من كان إشارتي ونور طريقي إلى معرفة اللّٰه. وقبل أن أقوم سألتُه أن يؤمّني في الصلاة. لنُصلي ركعتين نحمد بهما اللّٰه على نِعمته وفضله. ولنستعذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونرجوه أن يُعيننا على ما كُتب علينا فعله. ويمنحنا السداد. علمني التيمُم شارحًا آدابه وآداب الوضوء عندما يتوفّر الماء. ثُم انخرطنا في ركعتين. تهادت في فمي الكلمات المُنيرة التي استخرجتها روحي من أعماق (عيسى). فابتلت عيناي بالدمع وخفق قلبي الخفيف بفرح مُدهش. شعرتُ بنفسي في قلب ضياءٍ مُبهر، تحُفني الملائكة، واستحضرتُ اللّٰه قِبالتي. أقف بين يديه، يرى شقائي السابق وسوآت أهلي وأجدادي وعملي التالي الذي قد حُملت عليه. اهْدِنا الصراط المُستقيم الذي أنعمت به على المُتقين لا الضالين. اللهم لا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا بِه. وأهلِك القوم الظالمين بعد أن مددت لهم. أنهينا الصلاة الهامسة في الظلام، الذي اكتسب في عيني نورًا ما بعده نور. تصافحنا وتعاهدنا على إتمام ما قد كُتب علينا وعليهم وما قد كتبناه على أنفسنا. وخرجتُ من عِنده بعد السلامُ عليكمُ ورحمة اللّٰه وبركاته. مُتخففًا من كُل ثِقل الحُمي السابقة وهموم الأسئلة.

عُدتُ إلى عِشتي. كُنا في النزع الأخير من الليل، عندما اقتربتُ من الخيمة فسمعتُ التنهُدات الحارة والغنج الشِبِق. ولأول مرة أنتبه هذه المرة إلى شباب الأصوات الماجنة. ورأيتُ ببصيرتي أختي تلهث وتتنهّد تحت حركات أبي المُنتظمة وخواره القوي بينما تنتظر أمي وأختي الأخرى انتهاءهما في شبق. أبصرتُ وسمعتُ كُل شيء، فلم أتأثر قيد شعرة. وإن زاد يقيني في

رؤياي، وأدركتُ مدى حبكة التخطيط الإلهي المُنتظر، ومدى حِكمة الأمر الصادر من السماء لقلبي المُستكين.

جاوزتُ الخيمة وهِمتُ قليلًا في الطُرقات. قبل أن أتجه بنور قلبي عبر المسالك المُلتوية المُقفرة إلى محاجِر الجبل. سرتُ بُخطى واثقة، لم أخش ذئبًا ولا ثعبانًا ولا عقربًا. فسكينتي تطمئنني أن رحلتي لن تنتهي الآن. فهي لم تبدأ بعد. في البرد الذي لا أشعُر به، وصلتُ للمحاجر. رقدتُ أرضًا أمام مدخلها. وفردتُ ظهري وجسدي على الرمال المعجونة بماء المطر. ناظرًا للسماء بسكينة وحِلم. همس الشيطان مُحاولًا النفاذ لقلبي: كيف أتى الأمر الإلهي؟ كيف عَلمت ما عليك فعله وكيف ستفعله ومتى؟ فلم أجد إجابة سوى أنني أعلم. قلبي يوقن مثلما يؤمن المؤمن بوجود الله ويعبده دون أن يراه. أخمدت الإجابة المُفحمة الشيطان عن محاولاته الفاشلة. بينما يهبط السلام على عيني الناظرتين للسماء، فأنام بهناءٍ لم أشعر به قبلاً. أحلُم بالنور وكائنات بيضاء لا أُميّزها وإن أطلقتُ عليها في المنام اسم الملائكة. تزفّني إلى فتاة سمراء مليحة في ثوب أبيض جميل. عَلمت يقينًا أنها (هنا). لم أكُن قد رأيتُها قبلًا. هفت روحي إليها. طارت روحي في الفضاء الشتوي فوق الصحراء الموحشة والقُرى الخربة لتهبط في عِشة (عيسى) على قلبها الطاهر.

هكذا التقيتُكِ قبل أن ألقاكِ يا (هنا). أنتِ الطفلة الهادئة الطيبة، والتي وُلدتِ لأب كبير السن وسيدة تصغره بعشرين عامًا. عِشتِ طفولة غريبة، معزولة عن أقرانك الأشقياء وأهاليهم الأنجاس. تلعبين في عالمِك الخاص الذي تخلقينه خلقًا. وتحلُمين بفارسك المُنقذ الذي يُشبه أباك ولكن في عُمر الشباب، ليأخذك بعيدًا حيث الحدائق والجنات. تشبين قليلًا فتموت أُمك فجأة. في الليل

كانت دومًا تحكي لكِ عن مغامرات تاجر الصحراء، المغوار، طيب القلب. وحكايته مع حبيبته المُعدمة، والتي التقاها بين الأزقة ذات يوم بعدما مات أبواها وتركتها أسرتها التي رأت أنها عبء عليها. عالة تُثقل حركتهم وتأكل من رِزقهم. قالوا لها عملي. فعملت. لقطت رزقها لتأكل من عرق جبينها. رغم أنها عرقت كثيرًا ولم تأكل إلا الفُتات. لم يعطف عليها أحد من ذويها فيُعطيها من أكله القليل. الكُل يأكل فقط مما كسبه. لم يأتِ لها العِرسان. إذ يبدو أنهم تيقنوا من نحسها بعدما مات أبواها في سنتين مُتتاليتين، ثُم عندما انضمت لأسرة أبيها مات عمّها في السنة التالية. ظلت تُصارع العدم والشقاء إلى أن أنزل الله لها الفارس التاجر المغوار. الذي انتشلها من ضنكها، ليخوضا معًا المغامرات في الصحاري والوديان، وتُحقق تجارتهما ربحًا كبيرًا. ويعيشان في قصر فخيم تحُفه الحدائق الغناء. تهمس لكِ بينما يُغالب صوتها النوم أنها ستُكمل القصة لكِ، كما تفعل دائمًا، في الغد. ولكنها لم تُتمها أبدًا، ففي الصباح يُحاول أبوكِ إيقاظها فلا تستيقظ، تقومين على صياحه المصدوم وبُكائه المخطوف أمام جسدها البارد وعينيها المُغلقتين للأبد. تبكين لبكاء أبيك ولا تفهمين ما يجري. بأناملك الدقيقة تُحاولين فتح جفنها بالقوة، علّ الضوء يدخل إلى عينيها فيوقظها. فتُقابلك العينان البُنّيتان الجامدتان. يقول أبوكِ إنها رحلت إلى الله، وإنّا لله وإنا إليه راجعون. ستذهب للجنة وسنلحق بها إن شاء الله. تسألينه متى؟ فيقول مُغالبًا دموعه إن ربنا هو الذي يعلم. تواورنها الثُراب خارج القرية. وتقرآن الفاتحة على روحها. وتسألان الله أن يرحمها مع كُل صلاة يؤمكِ فيها أبوكِ. يزيد موتها من رزانتك وحِكمتك. ويُلقنك والِدك دروس الدين الغائبة عن القرية والدُنيا التي لم تعيشينها بينما تنامان. كأنما كان يعُدكِ لليوم المشهود.

تتهاوى أحلامي بكِ مع ذِكر اليوم المشهود، الليلة سيُتم الله قضاءه على هذه القرية. وأنا سأكون الوسيط. العبد الصالح الذي يرجو من الله أن يظل كذلك إلى آخر نفس يتردد في صدره. يندفع حلمي نحو النيران، التي تعارفتُ عليها صغيرًا وأنا أسعى مع أبي في الدنيا الواسعة تلقيطًا للرزق بإحدى القُرى، إذ رأيتُ كيانها الأصفر الساخن -لأول مرة- ذات ليلة، يتراقص داخل قناديل موضوعة في البيوت، كانت تظهر عبر فُرجات شبابيكها. انبهرتُ بنورها، وكانت من الأشياء النادرة التي أذكر أنها أثارت تساؤلاتي في تلك السِن المُبكرة. قبل أن تبدأ سلسلة التساؤلات منذ موت الكتاكيت حتى أنوار الله التي هداني إليها (عيسى). أذكُر وقتئذ أنني سألتُ أبي عنها. فأجابني إنها نارٌ. سألته ما هي. فقال إنها شيء يتم جلبه للتدفئة والإضاءة. سألته وكيف نجلبها. فأجاب أنها تأتي بضرب حجرين ببعضهما بعضا، ثُم عليك إطعامها بالقش أو الخوص أو الخشب أو الجاز أو أي شيء وإلا ستنطفئ. فهي مثلنا تجوع وتحتاج للطعام، وإن لم تطعمها تموت وتختفي. سألته ماذا يعني أن تموت. فقال بنفاد صبر إنه يعني ألا تصحو يا حارس وألا تتحرك ثانيةً. تُصبح مثلها مثل هذا الحجر وهذا الطين. سألته هل يُمكن أن نتيقّظ ثانية بعد أن نموت مثلما نستطيع إيقاظ النار؟ فنفى ذلك بعصبية متزايدة، وعندما سألته بعد بُرهة لِم لا نأتي بالنار في بيتنا فالجو بارد جدًا والدنيا ظلام؟ لكزني بعنف قائلًا إننا نملك بصعوبة طعامنا فما بالك بطعامها يا حِمار.

يندفع حلمي نحو النيران، فأرى الهلاك الساحق المُنتظر، وأنا وأنتِ نقف بعيدًا في البرد، نرى النيران تُطهّر الشرور. نحتضن بعضنا بعضا، بينما رائحة الشواء تُطهر رائحة النجاسة. يحترق أبي أمامي مُستصرخًا. فلا أهتز. أراقبه بينما

تُسوي النار بقايا جسده بعدما أزهقت روحه ثُم أقول لكِ بينما نرحل تاركين النار خلفنا: خلاص.

توقظني الركلات والشتائم الزاجرة. إلى العمل. إلى الشقاء تحت حمل الأسفار. أعمل بينما عقلي يترقب، وروحي تطفو خارج جسدي إليكِ. تُمطر السماء غيثًا شديدًا، لكنه بدا إشارة بالغة الرحمة على الوعد الصادق. وبينما أضع آخر أحمالي على الصف الحجري الطويل. تسمع روحي أباك يقول بينما يُقبّل جبهتك الواسعة أن تستعدي الليلة يا أميرتي. فارِسك قد جاء لأخذكِ، ستقضيان على أشرار القرية وستخوضان المُغامرات اللاهثة الشيقة، وستُكافحان حتى تبنيان القصور الواسعة والحدائق الغنّاء، ستتركان هذه القرية الفقر. فتبتسمين بحُلم وتسأليه أن يأتي معنا. فيقول ليس بعد. لديه بعض الشغل ليُنهيه. ثُم سيلحق بنا في أقرب وقت. تدمع عيناكِ بخوف وحُزن. فيحتضنكِ ويقول إن الأمر ليس بيده. لا تخافي يا بنيتي. إنه فتى طيب شُجاع مثل التاجر التي حكت لكِ عنه أمكِ يومًا. سيُحافظ عليكِ مثلي من الهواء الطائر. يُمسّد شعرك الناعم المُتسخ من الضنك ويربت كتفك اللينة الرقيقة، ويقوم إلى عمله، يلتفت إليكِ ببسمة مُنيرة على محياه. ثُم يُدير ظهره إليكِ خارجًا إلى دُكانته وفي عينيه دموع صامتة.

أُسير يومي كما يسير، رغم الأمطار التي لم تتوقف، واصطكاك السماوات ببعضها. ألقى أبي فنضع سحاتيتنا فوق بعضها بعضا لنأتي بالطعام من (عيسى) الذي يدُس في يد أبي قطعة الحشيش، بينما ينظر له بشماتة لم يشعر بها، ويُلقي عليّ نظرة مملوءة بالمعاني. المعاني التي أنار هو طريقها في داخلي، وثبّتتها الحُمى في روحي. نأكل فتسألني أمي عن حالي فأقول

أفضل كثيرًا. دون أن تشعُر أنظر لها في الظلام بمشاعر مُتضاربة. أهو حُب؟ أم كُره؟ أم احتقار؟ لا بل كُل ذلك. ثُم أنظر إلى أبي الصامت وأختيّ. فأُضيف على مشاعري نوعًا من الرِضا عليها وعليهم جميعًا. فهُم مثلهم مثل (عيسى)، قد أتموا ما عليهم في الدنيا، ساروا على تضاريس لوحهم المحفوظ إلى النهاية. لا شكوى في ذلك ولا ندم. إنها أقدار مرسومة محتومة، وأنا الذي سيرسم خط نهاية أقدارهم بعد قليل. في سكينتي يتضاجعون، ثُم ينامون. فأقوم مُتسللًا خارج العِشة إلى السماء الرائقة المُقمرة والطرقات الطينية الغارقة بماء الأمطار التي ملأنا بها قُللنا، وبللنا شفاهنا وحلوقنا برحمتها النادرة. أهرع إلى (عيسى)، في الظلام ندلُف، ألمح ابتسامته الممتنة، فلا أملك إلا الابتسام. يُعرفني إلى الشبح الواقف جواره، (هنا). فأشعُر بخجلها وهي تُرحب بي. وصوتها العَذب وهي تسألني عن موعد الرحيل. فأقول لها الآن. يسير (عيسى) في الظلام إلى رُكن العِشة، حيثُ يُحضر كيسًا قُماشيًا كبيرًا، به ألواح الخُبز، وكيسًا آخر أصغر به قطع الجُبن. نخرج إلى نور القوس القمري الرفيع، حيثُ تتّضح أكثر ملامح (هنا) التي عرفتها من منامي المحموم، فتُحبها عيناي أكثر. بعدما زرعتُ جزءًا من نفسي فيها في أثناء الحُمى الأخيرة. فلم تجزع من الغريب الذي يقف أمامها وسيأخذها بعيدًا. تم التعارُف الروحي قبل التعارُف الجسدي. يُقبلنا (عيسى) ويُعانقنا دامعًا بحرارة. وقبل أن أستدير مُبتعدًا يسألني الانتظار، ثُم يدخُل إلى العِشة، وسرعان ما يخرُج مُحضرًا ورقًا سميكًا مُرتبًا باستطالة ومُزخرفًا برسومات غريبة. يأمرني أن آخذ ما أسماه وقتئذ بالكتاب. يقول إنه القرآن. كلام اللّه الذي أنزله على عبده مُحمد عليه الصلوات والسلام. سألني أن أُقسم بالذي خلقني أن أُحافظ على القرآن وأن أتعلم القراءة لتلاوته. أقول له إن كثيرًا من

سوره قد غُرست فيّ منه في أثناء الحُمى. فيقول بل عليك تعلّم كيف تقرأ كلماته. حفظ الآيات ليس كقراءتها. لقراءة كتاب الله مذاق خاص لا يتذوقه إلا المؤمنون أحباب الله. يقول بينما يبكي إن كلمات الله المقروءة ستُنير طريقنا، أنا و(هنا). يأخذ العجوز عليّ موثقًا. احفظ (هنا) .. احفظ ابنتي بحياتك وروحك يا حارس. بالتأكيد سأفعل يا (عيسى) والله على ما أقول شهيد.

تتشابك يدي مع يدكِ الرقيقة، ونهرع بأجسادنا المُثقلة بالدثار المتهرئ والأكياس الممتلئة على ظهورنا والقرآن المحفوظ في حافظته المزوّدة بحبل أرخيته على كتفي. نُسرع عبر الطُرقات الطينية الزلقة، فتنغرز فيها أقدامنا الحافية المُتجمّدة. نمر عبر العِشش الهشة القذرة ونيّامها حتى نخرج من القرية. نتوقف لاهثين أمامها فأقول لكِ أن تنتظري. تومئين لي تحت ضوء الهِلال بتفهُم. أنظُر للعِشش فأرى مُجدّدًا أحلام نيّامها وأنات نسائها وغنج بناتها وهياج أخواتها وبُكاء رُضّعها وأرق حواملها وتعب رجالها. أغمض عيني قبل أن أُطلق عليهم نيراني. لم تكُن نيراني مُجسدة مثل النيران التي رأيتُها في حُلمي السابق. وإنما هي نيران تضطلع على أرواحهِم مُباشرةً، تصليها بلهيبها فتحرقها. أرى (عيسى) يقف أمام عِشته، ينتظر سماع عذابهم الذي أقرّته السماء. أسمع صراخهم الصامت وأنّاتهم المُتألمة وبُكائهم المُستنجد. وأرى العجوز يبتسم إذ يسمع ما أسمع. بينما عيناه تفيضان بالدمع، ووجهه يتشنج بمزيج من الألم والشماتة والشعور بالخلاص. بتحقق الحُلم، وبنزول العِقاب الإلهي عليهم، ينهار على الأرض بينما أنفه تضطرب، كان يشتم ما اشتممتهُ، رائحة شواء الأرواح. عِطرها المُقرف ذا عفونة الآثام التامة. أرى بكاءه يعلو بمزيج من الفرح بالخلاص والحُزن والغضب للارتباط بالقرية

الملعونة. وعندما أسلمتْ روحه الطاهرة لبارئها. لم يبق على ملامح وجهه سوى ارتياح الخلاص والرِضا بالقضاء النافذ ونهاية القدر. وعندما انتهى كُل شيء، التفتُ لـ(هنا) ببسمة مرعوشة ووجه مُحتقن بالحُمى وسط البرودة الظاهرة، وقُلتُ بعينين تسيلان بالدمع لعينيها المُجيبتين بنفس الدمع: خلاص.

٧

هُنا يأتي دورك لتُقاطعني يا دكتور (عمرو) من جديد، فتقول بصوتٍ مُرتعش:

-إيه التخاريف دي؟!

أنظُر إلى وجهك الشاحب ووجه أخيك المُترقب. ثُم أقول مُستنكرًا:

-تخاريف؟!

تُردد مُلوحًا بيدك:

-أيوه هي تخاريف. مثلًا فين القرية المعزولة عن العالم دي؟! وبالنسبة للهلاوس الغريبة اللي بتقولها من الحُمى وإبادة القرية الظالمة؟ إنت من الصالحين؟ مهدي منتظر؟! ليه وازاي وإيه علاقة ده بينا؟!

أُجيب شكك المُتوقع والمُعتاد:

-بالنسبة للمكان .. أوليس هُناك الكثير من البقاع في جميع أنحاء العالم تُعاني مما عانته قريتي من جهل تام بالدُنيا حتى هذه اللحظة؟! خاصةً قريتي التي

كانت دومًا مع مجموعة القُرى المحيطة بها ذات طبيعة خاصة.. إذا كانت تكمن خلف متاهات الجبل التي لا يعلمها سوانا .. بالإضافة إلى الطبيعة القبلية لتلك القرى ..كما أن هناك بالفعل الكثير من الأماكن المنسية في هذا العالم .. أماكن تكاد تكون مُنعدمة الصلة بالمدنية، ولم تبلغها الحكومات بخدماتها التقليدية .. على الرغم من قُربها من المُدُن أحيانًا.

أتوقف لأرى تأثير كلماتي عليكما، ثُم أُضيف:

-أما بالنسبة لاتهامك لي بالهلوسة .. أرجو أن تتأمل فيما حولك أولًا وتقول لي إن كانت تلك هلاوس أيضًا أم ماذا؟ وإن كانت هلاوس فلِم لا تخرجان منها ببساطة؟!

أتوقف. فأراكما تلتفتان حولهما، باحثين عن ثغرة، عن مهرب. يُصارع كيانكما الخوف والعجز القاهرين دون جدوى. تلتفتا إليّ مُجددًا، فأُدرك شعور الهزيمة على قسماتكما. وأقول:

-ثُم إنني لا أُخبركما بقصتي لفرز صدقها من زيفها. ما أحكيه هو لسبب سأُخبركما به في الوقت المُناسب.

فتُكرر سؤالك المُترقب على طرف لسانك:

-هتقتلنا؟

أرد مُبتسمًا:

-دع هذا لوقته المُناسب..

فتُكرر السؤال:

-هتقتل (أحمد) علشان ماكانش الداعية القدوة؟!

فأقول بصرامة:

-قُلتُ دع هذا للوقت المُناسب. لِم لا تصبران حتى أُتمم حكايتي؟!

تُحاول مُحاصرتي:

-وهتقتلني علشان نظريتي خطر على الدين زي ما أخويا بيقول؟!

أصيح فيكما:

-إن لم تسمعاني للنهاية سأفعل .. وعندئذ ستموتان دون أن تعلما سببًا!

وأضيف عائدًا بنظري لك أيها العالِم:

-أنت تُريد الموت شابًا يا (عمرو). أتُحب أن تموت دون أن تروي فضولك لمعرفة ما هو قادم؟ خاصة عندما يرتبط ذلك بمصيركما؟

فترتجف شفتاك. وأكاد أرى الصراع داخلك. بين غريزة حُب الحياة ورغبتك العميقة في الموت. يؤازر الأولى فضولك لمعرفة نهاية اللغز.

أُضيف:

-أولا ترون أنني أعلم كُل شيء عنكُما؟ أنا الذي جئت بكما إلى هُنا وتركتكما تبوحان بكُل دواخلكما. تحملتُ بصبر كُل ما رويتموه، وكُل الآثام التي

خُضتموها. حان وقت رد الدين. الآن جاء دوري لإتمام حكايتي التي ترتبط بكما. وأعلما جيدًا أنني أعني تمامًا ما أقول بالوقت المُناسب.

تنخرسان هذه المرة تمامًا. وتُطل عيونكم المُترقبة الحذرة، والتي يحمل ماؤها خوفًا لا بدّ منه. أُشير بيدي في فراغ عالم الضياء. لا تتعلّمان، ومُجددًا تجزعان وتتراجعان للخلف، قبل أن تتفجر الرؤى الحيّة تفجيرًا.

أُرفق الرؤى بالكلمات، لأعود راويًا قصتي. تلك القصة التي لم تكُن قد انتهت. بل كانت بداية مهمة. حجر أساس وُضع عليه بيت غريب التصميم، مُخالفًا تمامًا للمخطوطة الأصلية، والتي يفترض أن يُبنى البيت على هُداها.

انفجر الضياء عن وِحدتنا –أنا و(هنا)- في تلك الليلة، بعدما قُضي الأمر. إذ وضعنا القرية المُنتهية خلفنا، وتعانقت ذراعانا بهدوء صامت. بكت هي بصمت على بداية سفرها بعيدًا عن والِدها رحمه الله. بينما نسير في العراء الشتويّ القارص، تحت الهلال الرقيق، شرقًا إلى القُرى المُجاورة. مهديين ببوصلة قلبي، التي تعلم متى نسير ومتى نتوقف. أشعُر أنني أستطيع قراءة السطر التالي في لوحي المحفوظ، في الوقت المثالي، والذي يُدبره القدر. ننزل إلى القُرى الشرقية، إذ نقضي بكُلٍ منها سنة أو أكثر. ثُم نرحل عنها تِباعًا إلى الشرق. حيثُ نحُط رِحالنا في القرية الجديدة، دومًا مع أنوار الغسق، وهكذا. و(هنا) معي، تُرافقني بدفئها في خُطاي. تفهمني من قبل أن أشرح. تعلم الحِمل الذي يُثقل ظهري. والتاريخ الذي يُنهك صدري، فتبتسم ابتسامتها الرائعة وتلتمع عيناها في تقدير وإشفاق. عاوننا الزاد الذي منحه لنا والِدها في تدبير أقواتنا في الأيام الأولى الصعبة. وضعنا السحاتيت فوق بعضها البعض، حتى توفر لنا المال الذي مكّننا من بناء عِشة صغيرة تؤوينا. وأشعنا

في القُرى التي لبثنا فيها أننا إخوة يتامى. رفضنا بإباء بعض دعوات أهل الخير لإيوائنا. بينما نسمع الأخبار التي تُرددها الألسُن عن قرية الشحاذين الفاسقة التي طلع عليهم الصباح موتى. أخذهُم اللّٰه أخذة عزيزٍ مُقتدر. هكذا قال أحد شيوخ القُرى التي تنقلنا بينها، بينما يُصلي بنا الجُمعة. مرت الأيام سريعًا علينا، نكدح بين أشغالٍ شتى. عملتُ مُجددًا في المحاجر القريبة من القُرى الأولى التي مكثنا فيها. مما دفع في كياني خواطر شتى. رأيتُ نظرة الفخر والإكبار التي حفرها والدي في كياني على صخرة الجبل قبل أن أهوي عليها بمِعولي. ورأيتُ في أشعة الشمس -المُتسللة بين رموشي- بسمة أُمي النادرة، والتي منحتها لي ذات يوم لا أذكر تفاصيله. فسرت في جسدي رعدة الذكرى. وكادت عيناي تدمعان على هلاكهما بأيديهم قبل يدي. الماضي قد ولَّى، بحلوه القليل ومُرّه الكثير، ودون الماضي لم أكن لأحيا الحاضر. لا تأس على ما فات يا (حارس). تقولها لي (هنا) عندما ترى نظرة الحُزن الغارقة في عيني. فأبتسم من المُفارقة الغريبة. أنا الذي يفترض أن يقول لكِ ذلك. أنتِ يا عزيزتي من فقدتِ كنزك، أباك وفارسِك. قُلتُ لكِ ذلك ذات ليلة مُظلمة قبل أن نهوي في النوم، فرأيتُ شبح ابتسامتكِ الصامتة في الظلام. والتي تحمل من الامتنان الكثير. همستْ لي يومئذ باقتضاب وبعد صمتٍ قليل أنني فارسكِ الجديد.

ننتقل على حِمار مع عِشتنا شرقًا إلى قرية أبعد، فأعمل شيالًا أحيانًا وأساعد في فلاحة الأراضي أحيانًا. وعندما نمكُث بأقرب القُرى إلى المدينة، أعمل مع التُجار، فأحرس لهم بضائعهم وأحملها لهُم. تجرأتُ مرة لفض نِزاع بين تاجرين على قيمة صفقة طماطم. واستطعتُ تسوية الأمر بخبراتي وفهمي الجديد لدواخل الناس. فأُعجب بي أحدهم وعرض عليّ العمل في دُكانته.

وافقتُ وكُنتُ عند حُسن ظنه، مما ساعد في تحسين حياتنا. وأُتيح لكِ الفرصة لشراء كتاكيت وتربيتها. كانت تلك هي أولى مهنِك المنزلية. فقد كُنتِ قبل ذلك تخرجين للأسواق. تسعين فيها مُتحمّلةً سخافة الزبائن وقباحة التُجار. توطدت علاقاتنا بين أُهالي القرى. عِشنا معهم أتراحهم، فَرِحنا لأفراحهم، وعيدنا مع المُعيدين والمُعيدات. صلينا بهم ومعهم ولهُم، وكذلك صُمنا مخلصين لله الدين ولنا الستر والأمان وللناس المنفعة. رأيتُ خواطرهم في عيونهم المُتحسرة وخلجاتهم المُتنهدة وشفاههم المُمصمصة. العطف والشفقة علينا من صغر سننا ووِحدتنا أمام قسوة الزمن وشقاء الحال. ثُم التألُم من رحيلنا في نهاية العام التالي. يتساءلون لِم الرحيل؟ فنصمُت دون إجابة شافية لفضولهم، مما يزيد من شفقتهم التي لم نحتاجها بقدر ما هيأت لنا من أمورنا هدوءًا اشتقنا إليه كثيرًا. خلال تلك السنوات المعدودات من التِرحال، لم تُصبني الحُمى ولو مرة. ولم يكن ذلك ليُقلقني. بالعكس فقد زاد ذلك من يقيني من قدوم دوري لا محالة، مثلما زاد من فضولي لمعرفة كنه ذلك الدور. لم يكن ذلك ليهمني بصورة مُثقلة، فالمسألة مسألة وقت مُناسب وتخطيط إلهي. كما قد زادتني قُدراتي المُكتسبة الجديدة اطمئنانًا لاستمرار المِنحة الإلهية. فقد كُنتُ أقرأ النفوس بسهولة أدهشتني. أعلم ما يُعلنون لبعضهم بعضا من خلفي، وأعلم ما يُسرون لأنفسهم. أعلم من هو مُحب ومن مُتعاطف ومن هو حاقد ومن هو مُتشكك في أمورنا. لكنني تمكنتُ من كبح جماح نفسي ولم أحاول استغلال قُدراتي في منفعة مادية إلا في أضيق الحدود. كما حرصتُ خلال عملي المُجهد وفي نزع الليل ما قبل النوم على امتصاص رحيق علومهم وخبراتهم في الحياة، بينما هُم نيام. ثُم مع تمكُني من قُدراتي وتعمُقي في استغلالها، تمكنتُ من فِعلها بينما هُم يُمارسون

أعمالهم مشغولين فيها كذلك. في نفوسهم عِشتُ ألف حياة أخرى، رأيت الحُب والرحمة والكُره والغدر، مثلما تعرفت إلى الكثير من الخبرات العملية، عبر بوابات عقولهم أتقنتُ مِهنًا مُختلفةً لم أمارسها قبلًا. عبر عيون قُراء القُرآن تعلمتُ القراءة في ليالٍ معدودة. فتمكنتُ أخيرًا من فتح مُصحف (عيسى) ذي الأوراق الخشنة المُصفرة وتلاوة حروفه التي كانت لي مُجرد زخارف بديعة منذ وقت قريب. بل إنني غرستُه بواسطة قُدراتي في روحكِ يا (هنا). فابتسمتِ لي ومنحتِني نظرات حُب وامتنان عميقين. صرتِ مثلي تُجيدين قراءته وتحفظينه عن ظهر قلب، وتقرأينه معي وخلفي مع كُل صلاة. لم يشعر أحد بتسللاتي النفسية أبدًا، بعكس مرّتي الأولى مع (عيسى) رحمه الله. فقد كان تواصلًا وليس نسخًا للخبرات. أما في حالنا الجديد، فقد كان لا بدّ أن يظل سرنا قيد صدرينا. لا يخرج عنهما أبدًا.

أوفيت بوعدي لـ(عيسى) طول فترة ترحالنا. حافظتُ على ابنته بحياتي وروحي. مرت السنة الأولى من ترحالنا في براءة الطفولة المُطلقة. فلم يكُن هُنالك مشكلة. ننام مُتجاورين بلا قلق. فلا أحلام سوى أحلام البراءة، بل إنها كانت أحيانًا تقترب مني نائمة فتضع رأسها على كتفي. تبحث فيّ عن الأب الذي مات. والفارس الذي سيُنقذها من وحوش الزمن ومصائبه. فلا أملك إلا ابتسامة تشمل كياني كله، بينما أُنهي جولتي العقلية الليلية في نفوس الأنام، قبل أن أغفو إلى صباح شقائي. وعندما أتى العام التالي، بدأ بلوغها. كانت ليلة عصيبة، عُدتُ فيها متأخرًا من العمل. فاستشففتُ في نظراتها وخلجاتها اضطرابًا واضحًا يماثل ما تُعاني نفسها منه. سألتني بعصبية أين كُنت، فأجبتُ أنني كُنتُ في العمل. تساءلت بملامح مشدودة مُتوترة كيف تتركني وحدي كُل هذه الزمن. ثُم صرخت كيف لك أن تهجرني في هذا الظلام.

استوعبتُ كيانها وفهمتُ ما تمر به. اقتربتُ منها مُبتسمًا بتعاطُف ولمستُ كتفها المُرتعشة، فانفجرت فجأة في البُكاء. احتضنتها بقوة. أبكتني دموعها فسرى في جسدي تيار جياش لا تصفه كلمات. قاومتُ في البداية ثُم لم يلبث جسدها أن تراخى في أحضاني. بكت مُتشنجةً وهي تهمس «أبي أين أنت؟ يا إلهي كم اشتقتُ لك»، فهمستُ فيها أنني أكيدٌ أنه سيلحق بنا لاحقًا. فهزّت رأسها بنفي عنيف وغمغمت من وسط دموعها «لا لقد مات، أعلم أنه مات منذ تلك الليلة. أحسستُ بذلك منذ الوداع. شعرتُ في كلماته ونظراته بالنهاية». فرددتُ عليها والحُزن يعتصرني وبينما لا نزال مُتعانقين «حسبُنا أن مات آمنًا راضيًا، حسبه أن كان من الشُهداء على ظُلم أهل القرية». ظللتُ أهمس لها وأُردد بهدوء أشبه بمن يُهدهد طفلةً. لا تبكِي يا صغيرتي، فأنتِ الآن على أعتاب النضج، تشهدين أول طمث لكِ. تمر بجسدكِ دورة شهرية ناجحة، فتقتطع جزءًا منه مع بعض دمائه وجزءًا من طفولتك نحو الأنوثة الكاملة. أنتِ الآن شبح محاقٍ بالغ الرِقة في بداية رحلته، لتكوين بدر مُتألق. ومازحتها قائلًا إنها ستبلغ قبلي. ستكون أمي التي لم تُنجبني. فاهتز صدرها من وسط بكائها على صدري. ربتُ ظهرها بحنو وقُدتها إلى الفِراش. اضطررتُ أن أنام جوارها فترة من الزمن كي لا تهتز نفسها المُرتبكة. وانتظرتُ حتى بدأت المرأة فيها امتلاك زمام الأمور، ثُم وضعتُ حاجزًا كبيرًا من الخوص يقسم عِشتنا قسمين. قُلتُ لها مُبتسمًا إن هذا وضع مؤقت. حتى يحين زواجنا. إن هذا لأفضل لكِ يا عزيزتي. إنني أحميكِ من نفسي أولًا وأخيرًا. تلك وصية والِدك وعليّ الامتثال لها. فأغرقت نظرات الحُب عينيها. تلك النظرات التي بدت مُختلفة تمامًا عن نظرات حُب العام الماضي، المرأة داخلها قد أطلت من العينين والجسد الذي بدأ رِحلة فورانه. بينما أنا أكادُ أوازيها في

السِن، ما زلتُ طفلا داخل جسد رجل متين البُنيان، أو ربما أنا طفلٌ شائخ في جسد رجُل مشوه. ولكنني لم أكن أشكو إلا نادرًا. لم أُخلق لذلك ولم أُجبل على ذلك من الصِغر.

أقطع طريق الحياة ونيرانها وأشواكها وطرقها الوعِرة دون شكوى، فأنا لا أعرف الشكوى. أو لم أعرفها إلا فيما بعد. أقرأ السطر القادم في لوحي المحفوظ فأنفّذه حرفيًا دون مُناقشة أو تذمر أو ندم. أهوي بمعولي على أحجارها بقوة وقسوة مفروضة عليّ، وأجني ما قطعتُه حجرًا حجرًا، أحمل الأسفار بلا ألمٍ إلى مُستقرها. أرُصها بعناية وأعود لأقتطع من جبال الدُنيا غيرها. أعبُر معكِ يا (هنا) القرى والأسواق والجبال والوديان، معًا نخوض مُغامراتنا. داخلي أحلام القدر المؤجلة إلى أن يشاء اللّه، وداخلك أحلام السعادة معي، مع فارِسك الذي وعدك به والدك، فأوفى بوعده. تتطلعين إليّ بعينين تضنّان الأمل، تنتظرين مني تحقيق وعدي الخاص. تلك هي حياتنا. ذلك هو لوحنا المحفوظ.

٨

انتهت رحلتنا يا (هنا) في أعماق الدُنيا الناسية المنسية. غادرنا القُرى مودعين أهلها بفقرهم وضعفهم وتراحُمهم وترابطهم وخبثهم وضغائنهم الصغيرة. كانت من أشق الأمور علينا دومًا هي بدايتنا الجديدة في كل قرية. فمُجتمعات القُرى لا تُرحب كثيرًا بالغُرباء وإن رحبت تُحاول دومًا اختراق الحاجز المسوّر لسُكانها الجُدد. ولكن صِغر سننا وأشباح اليُتم البادية في ملامحنا ووِحدتنا، ساعدتنا على امتصاص مُعظم تلك الصعوبات. وإن لم

يخل الأمر من بعض الطرائف، مثل إصرار أهل آخر قرية مكثنا فيها، قوم (بدران)، أن يُزوجوكِ لابنهم، وتلميحاتهم أن يخطبوني لابنة عمهم. مواقف طريفة من هذا القبيل. استمتعنا بها وهوّنت علينا وِحدتنا أحيانًا، كما كشفت جانب المرأة فيكِ من غيرة على عريسها المُستقبلي. وكشفت جانب الرجُل فيّ من مُحاولة مُستمرة لمناكفة مشاعر الغيرة لدى زوجته المُستقبلية.

على مطية كارو كبيرة، في صباح صيفي صحو. دلفنا إلى المدينة. بطرقها المرصوفة وشوارعها الواسعة، وأبنيتها السليمة القوية الضخمة. ناس غير الناس. بلباسهم الغريب النظيف ذي الألوان المُبهجة. تركنا الحوذي في مدخلها. فتمثّلت أمامنا بضخامتها وأهلها الغريبين، مما ضاعف من الرهبة في نفوسنا. وزاد ارتباكنا من وِحدتنا وشعورنا فجأة بعودة الطفولة التائهة رغم بلوغنا العام الخامس عشر. بهلاهيلنا وأموالنا التي اختزناها من تيسر الأمور في الآونة الأخيرة، هبطنا على رصيف أحد شوارع المدينة السياحية الكبيرة. جاهلين ماذا علينا فعله. انتابت وجداننا مشاعر العجز والارتباك فارتدّت في العيون الحائرة، والحركات التائهة، بينما نسير على رصيف أحد شوارعها الواسعة. يكاد زحام المارة يُغرقنا، مارة من جميع الألوان، الأبيض ذو الخدود المُضرجة والشعر الأشقر الذي ندر على عيوننا رؤيته، والأسمر مثل السواد الغالب من أهل القُرى والسواد الفاحم كالليل المُدلهم. بينما تتحرك على الشوارع الناعمة الكُتل المعدنية الغريبة، والتي استشففتُ من العقول حولي اسمها. كانوا يسمّونها سيارات. تؤوي أُناسا جالسين هانئين هادئين لا يبدو عليهم التأثر بدوار الحركة. في القيظ الذي غمرنا عرقًا، قُلتُ لكِ مُبتسمًا إن علينا أن نستريح قليلًا، وسأعلم كُل شيء من النفوس حولي في الحال.

اتجهنا إلى حديقة صغيرة جوارنا، يجلس الناس على حشائشها باسترخاء. ففعلنا مثلهم، واضعين أحمالنا الخفيفة جوارنا. تطلعتِ إليّ مُتأملةً ومُنتظرةً، فابتسمتُ بينما أتمعن في شعرك النافر بخُصلاتٍ فاحمة السواد من الإيشارب. وعينيك السوداوين الحزينتين وأنفكِ المنحوت وشفتيك الناضجتين، لقد اقترب بزوغ بدركِ يا (هنا). تضرّج وجهها بمزيد من الحُمرة المُحببة لي قائلة إن عليّ أن أُركز في النفوس حولي الآن وليس فيها. فأجبتُها مُداعبًا أن ذلك صعب للغاية أمام تلك العينين الساحرتين. ضحكت في خجل وأمرتني بجدية أكثر أن أفعل، فنحن الآن تائهان تمامًا لا نعلم ماذا نفعل. أومأتُ لها موافقًا. ثُم أغمضتُ عيني وأطلقتُ لروحي العنان. تطوف بين الناس لتحصُد عُصاراتهم وخِبراتهم ومعلوماتِهم. لا تُفرق بين أشقر أو أسود أو أسمر. فتتدفق فيّ آلاف الحيوات الغريبة. وقبل أن تهبط الشمس في الأفق بمقدار درجتين، كُنتُ قد أنهيت رِحلتي المحمومة في النفوس والأجساد والعقول، رأيتُ خلالها الكثير وشهدتُ تكدُر الأرواح بآلام الموت والحُب والغُربة، رأيتُ لحظات نقائها ونَزَقها. خبرتُ أحلامها وكوابيسها وخطاياها. فتحتُ كتاب البشر في ذلك العالم الجديد وقرأتُ كُل شيء. ثُم فتَّحتُ عينيّ في عينيّ حبيبتي، لتُطبق كُل ما قرأت. أخذتُ يديها وتركنا الصورة السطحية الكبيرة للمدينة المثيرة للانبهار والرهبة. وهبطنا إلى أعماقها، عالمها السُفلي الذي لا يهتم به المُسافر السائح، الناظر إلى المدينة من عِل عابرًا على معالِمها التاريخية من معابِد وتماثيل ومتاحف، لا نهتم بمعرفتها ولم نهتم يومًا. نحنُ أهل العالم السُفلي، حيث أدغال القُرى ومجاهلها التي لا يعلمها أحد. لا نرتاح سوى في تلك المجاهل. حتى وإن انتقلنا إلى حضر بكُل ما به من بهرجة وزيف واختناق. حتى وإن تعايشنا معه. فنحن لا نرتاح إلا في عالم الظل. لذا

قررنا البحث عن عالم الظِل الخاص بالمدينة الساهرة. خُضنا الحارات الدقيقة والأزقة، وهبطنا السلالِم الكثيرة. بينما أقود رفيقة دُنياي، تتعانق أصابعنا في سكينة ونخوض جبال المدينة ووديانها في صمت، دون سؤال المارة المُخمنين، فكياني كان يجوبهم قبل عيني ليستخلص كُل شيء. ودون أن تسألني هي عما أفعل. نحنُ روحٌ واحدة قُسمت بين جسدين. لذا يستحيل أبدًا أن تسأل عيناك عما تفعله يدُك. هي تعلم دون سؤال. أنا العقل وهي القلب.

مع المغرب، وصلنا إلى ضالتنا. عِمارة مهجورة منسية، تقع في الطرف البعيد لحارة (بلاط). مُتجاورين، دلفنا عبر المدخل المُترب ذي رائحة النسيان الخانقة، وصعدنا الدرجات القصيرة المُتكسرة، فرنَّت أصوات خطواتنا الوحيدة. صعدنا للسطح، حيثُ الشقة الصغيرة التي تتوسط النصف الخلفي من سطح العمارة الخالي من الحياة. وقفنا أمام باب الشقة المُغلق بقفل معدني صغير. تطلعتُ إليه فرأيتُ اللسان المعقود فيه مُخلخلًا مُتهالكًا. لم يصمد أمام ركلاتي المكتومة واندفاعي فيه. أخيرًا انفتح مستسلما ليكشف عن الشقة، ذات الصالة الصغيرة المُتصل بها غرفة النوم والمطبخ والحمام. الشقة المهجورة كانت مفروشة بأثاثٍ بسيطٍ، تكسوه طبقة سميكة من التُراب، فتجعله أشبه بالنُحاس المُطلسم. بالطبع لم يكن هُناك ماء في الصنابير ولا نور في المصابيح التي كانت مكسورة على كُل حال. دلفنا إلى المكان الخاص بنا في ذلك الجُزء المنسي من المدينة، نشتم عبق التُراب في المكان، الذي سمعتُ من خواطر السُكان المُحيطين عن وصمه بالملعون. تسكنه الأشباح والجِن بسبب حدوث حريق هائل أودى بأرواح أسرتين كانتا تسكنان الطابق الأول والثالث، ومنذئذ حدثت أنشطة غير طبيعية في المكان

من حركات مُريبة للأثاث وأصوات الصُراخ في ظلام سلالمه، مما دفع سُكان العِمارة القليلين للرحيل. تأملتُ المكان في نظرة شاملة، موقنًا من داخلي ألا أشباح في هذا المكان. على الأقل في شقة السطح. هو الفزع وألاعيبه التي لا تنتهي في قلوب الناس المُفتقدة للسكينة. والتي آمل من الله أن يجعلني سببًا في إخراجها من الظلمات إلى النور. نظرتُ لـ(هنا) التي كانت تتأمل مثلي المكان من وجه نظر أخرى. فهو لم يكُن ليحتاج إلى مجهود شاق -مُقارنةً بشقائنا السابق- لتنظيفه وتوضيبه على أكمل وجه. قُلتُ لها مُبتسمًا والليل يُدبر: ها هي عِشتنا الجديدة يا روحي.

هكذا بنينا حياتنا الجديدة على أنقاض ماضٍ غريب، يبدو مُقارنةً بما خبرناه في المدينة بالغ الغرابة، كأنه خيال لم يحدث مثلما استنكرتَ أيُها الشيخ. وضّبنا شقتنا الجديدة البعيدة على مِهل، مثلما وضب القدر حياتنا بصورة أسرع وأيسر كثيرًا من مُعاناتنا السابقة في مجاهل القُرى. بقُدراتي الفائقة وطُرُق بحثي التي لا تُقارن بكِفاح الناس التقليدي.سريعًا، استطعتُ التقدم بمظهر جديد مُناسب للحصول على وظيفة جيدة. عملتُ نادلًا بأحد المطاعِم السياحية. مُستعملًا قدراتي الخاصة في إيهام صاحب المطعم أنني حاصل على شهادة وغارسًا داخله وهمًا أنه قد رأي بطاقتي وتفحّصها. بالطبع لم أكُن أحمل شِهادة ميلاد ولا بطاقة. أنا بالنسبة للعالم وحكوماته غير موجود. و(هنا) مثلي. صرتُ رجله المُفضل بعدما رأي مقدرتي الفائقة على كسب وِدِّ الزبائن، الأجانب والمحليين. فقد كُنتُ أفهمهم قبل أن يطلبوا طلباتهم ولكنني بالطبع لم أكُن أُبرز ذلك لهُم بصورة دائمة. وإن كُنتُ أفعلها مازحًا أحيانًا، لنيل ثقتهم وجذبهم. عُرِفت لدى زبائن المكان بالاسم. وتمكنتُ بمُساعدة قُدراتي على احتواء الضغائن الصغيرة التي تنمو في قلوب زُملائي في العمل من

مكانتي الجديدة. البشر بالنسبة لي هُم مجالي. إنهم ساحتي المُفضلة، فدونهم أنا لا شيء. كُل علومي وخبراتي وفهمي للحياة أتى من كُتب صدورهم المفتوحة أمامي دومًا. بلا مشقة أُغلق عيني الخارجيتين وأفتح عيني الداخليتين لأقرأهم بوضوح. ولكنني رغم كُل ذلك كُنتُ حريصًا على وضعهم في مسافة معقولة، تُقربهم دون أن تكشفني ولا تُنفرهم مني. وإنني لأُشبهك أيها العالِم في بعض ذلك. ولكنني بالطبع أفضل منك. فأنت تكره الناس ولا تهتم بهم. أما أنا فأُعطيهم كُل ما يُريدون، دون أن أجعل نفسي تحتاج إليهم. في صلواتي كُنتُ أسأل الله دومًا ألا يُصيبني بمرض حُب الناس. فهو لأشد الأمراض فتكًا. قد يُدمرك ويجعل منك منافقًا لا تبغي إلا رضاهم. وإذا انسحبوا عنك تُجن بحثًا عنهم. سألت الله دومًا ألا يحوجني إلى الناس ويُعينني فقط على قضاء حوائجهم، ففعل. تسألني أيها الشيخ كيف تدَّعي الصلاح بينما تعمل بمطعم سياحي لا بدّ أنه يُقدم الخمور. فأخبرك أنه كان من المطاعم القليلة في المدينة التي لا تُقدم الخمور تحت أي بند. بل كانت تعتمد على ابتكارات مُختلفة للمأكولات والمشروبات، منتقاة من أكثر من مطبخ عالمي. أحببتُ المكان الذي يُعطيني الإحساس بذاتي وقدرتي على خدمة الناس وإدخال السعادة إلى قلوبهم. كما أنه مكان قصي ووظيفته بسيطة بعيدة عن الأضواء. فلم يكُن طموحي الشخصي له علاقة بحُب المال أو السُلطة.

أقضي في المطعم نصف ساعات اليوم، ثُم أعود عبر سراديب المدينة السرية حيثُ تنتظرني (هنا)، التي وجدت بعدي هي الأخرى عملًا بمحل صغير للملابس الحريمي. ساعدها العمل على شغل يومها الذي كان فارغًا تمامًا قبله. إذ كانت تنتظرني وحيدةً في البيت الموحش عليها، القصيّ عن فضول البشر.

وفي خلال السنوات الثلاث الأولى، تمكنا سريعًا من تثبيت دعائم وجودنا الجديد. تغيرت هيئاتنا ولباسنا بينما بقيت قلوبنا التي نشأت على الشقاء كما هي. لم تُغيرها المظاهر الزائلة. قلوبٌ خافقةٌ في رضاء بقضاء اللّٰه وتسييره للدُنيا. وطامحة إلى تآلُفها وزواجها في الحلال، بعدما تعانقت الروحان وصارتا روحًا واحدة. بعد الصلاة، ننامُ مُنفصلين، هي في غرفة النوم وأنا في الصالة، تحُفنا الملائكة الطاردة لشياطين الدناسة. وحينما يهفو الجسد الطينيّ الضعيف للزَلل، يهبط عليّ العقل بذِكرى قريتي التي هلكت بظُلمها. تقول لي صباحًا بعينين مُسهدتين: متى؟ فأقول لها مُبتسمًا بحنان: عندما يشاء اللّٰه. وأقول إنني أعلم يقينًا أن الوقت لم يحن بعد. لا تنسي يا حبيبتي أنني رجُل الإشارات. أعرفها وأحفظها وأفهمها جيدًا. والإشارات تقول إنه لم يحن الوقت بعد لزواجنا. مثلما لم يحن الوقت بعد لتحقُق الوعد السماوي. الكرامات الربانية التي أعلم أنها ستحل عليّ ذات يوم. ليس لأجلي فقط ولكن من أجل البشرية التي قُدر لي أن أخدمها بعطيتي.

حتى أتى ذلك اليوم، في أحد أيام الربيع السعيدة ذاتِ الشمس الحانية، والأطفال السُعداء في الطُرقات كالفراشات المزهوة بجمالها وخِفتها. استيقظتُ باكرًا بينما يشتعل جسدي بالسعادة وقلبي يعزف خفقاته عزفًا. فتحتُ باب الشقة ومشيتُ عبر السطح حتى وقفتُ خلف سوره، راقبتُ الشمس تصعد درجاتها السماوية، لتؤذن في الناس بالاستيقاظ، برحمة أُم توقظ أبناءها. أنْ قوموا بأمر اللّٰه الذي به تصبحون وبه تمسون. فابتسمتْ لبسمة الشمس الدافئة على أسقف المدينة الأشبه بظهور محنية تحت كسل النوم. مثل قلبي دقات الساعة في جيئتها وذهابها، وأنا أعد خفقاته مُنتظرًا تيقظها. حتى سمعتُ حركتها. تيقظت (هنا) أخيرًا. هرعتُ إلى وجهها الصبوح

مُبتسمًا وقائلًا صباح الخير يا سيدتي وزوجتي. اندهشت من عبارتي. بدا على وجهها المُتيقظ توًا فرح مصدوم. قالت إنها لم تتصور أن يأتي هذا اليوم أبدًا. حمدت الله على نهاية الانتظار الطويل. وأن الوقت قد حان لنتآلف. أضفتُ لها بنفس السعادة الخفيّة أن الوعد الآخر قد شارف على التحقُق. أوقن بذلك من أعماق أعماق قلبي. فزاد فرحها بالفرج الربيعيّ المُفاجئ. كُنتُ قد استطعتُ بمسالكي الخاصة إدراج اسمينا في أدراج الجهاز الحكومي بشهادتيّ ميلاد وبطاقتين جديدتين تؤكدان أننا بلغنا سِن الرُشد. ولم يكُن ذلك العائق الحكومي فقط هو ما منعنا من الزواج. بل كان للأمر بالفعل علاقة بالإشارات التي أخبرتُها بها. هي إشارات لا يُمكنني شرحها فأنا حتى لا أستوعبها. ولكنني أعرف جيدًا مفهومها. وسط الحُمى، عندما تهبط من السماء، تأتي لتضرب قلبي مُباشرةً حاملةً الرسالة. أما لُغتها فيستحيل وصفها. الرسالة نفسها هي لُغتها. واللُغة هي الرسالة. لا فارق. إنه نفس الشعور الذي يضرب الإنسان عندما يؤمن وعندما يُحب. إنها طاقة غريبة تضرب جسدك نافذةً إلى أعماقِ روحك. لا مجال لصياغة الأمر بلُغة الإنسان الزائلة تلك.

حملنا اليوم السعيد فوق سويعاته البطيئة، بينما ننتظر أن يُنهي كُلٌ منا عمله. اتفقنا على الذهاب للمأذون في تلك الليلة. وأكدتُ لها أن الإشارات تُخبرني بذلك. فقالت بمرح: لا تُخبرني عن الإشارات الليلة .. فأنا أعلم هذه المرة أن الأمر سيتم. وذلك لا يحتاج إشارات لفهمِها يا زوجي العزيز. هكذا أخذت قلوبنا تعد تنازليًا إلى موعِد السعادة الأكبر. بفرحٍ مُسكرٍ أخبرتُ كُل زملائي بالمطعم فباركوا لي وسألوني أين الفرح. فقُلتُ لهم الحال لا يسمح بذلك. سأكتفي فقط بعشاء هُنا في المطعم للإشهار، وستُحضر هي زميلاتها في

العمل. فكلانا مقطوعٌ من الشجر يا أصدقائي. أصر صاحب المطعم على ألّا أدفع تكاليف العشاء. بينما تصايح زملائي أنهم سيزفوننا خصيصًا حتى لو أغلقنا المحل كُله. تضاحكنا بذلك وهددتُهم بشكوى صاحب المطعم الذي سيخرب بيوتهم بكل تأكيد!

هكذا سارت الساعات البطيئة حتى المغرب، والفرح يكادُ يعميني، أُداعب هذا الزبون وذاك. أُدردش قليلًا مع هذا السائح، وأمزح مع ذاك، باللغات التي أتقنتُها في أيام قليلة من قلوب الناس التي تُنطق الحجر. شعرتُ بنفسي غير نفسي السابقة. انسلختُ عن حارس القديم الشقيّ وأتى حارس الجديد بعمله المُستقر وكفافه المعقول وزوجته المُنتظرة. حياة مُختلفة تمامًا عما يُمكن أن يتخيله أبي لو كان قد تخيل يومًا، بينما يلفظ نطفتي في قرار أمي المكين. وبالتأكيد يختلف كل ذلك عمَّا تصورته بينما كُنتُ طفلًا. أعارني أحد الزُملاء بدلة قائلًا بغضب أنني لا أهتم بتلك التفاصيل الجميلة وهذا خطأ وعار. فقُلتُ له إنني لا أُحب كُل تلك المظاهر الشكلية. سرى النزع المُتبقي من اليوم سريعًا بينما نلتقي مُتأنقين قدر استطاعتنا عِند المأذون. كُتب الكتاب وحضر الشهود. فاختفى العالم كُله من بصري ولم يبق سواها. عَلَقَ بعينيّ وجهها الأسمر الجميل وبسمتها الهادئة، كأنما أراها لأول مرة، وكأنما لم يمر الزمن الذي انتزع منها الألم تلو الآخر.

عميتُ عن العالم في الساعات القليلة التالية، ولم يلمس بصري ولا بصيرتي إلا أنتِ يا (هنا). تعشَّينا في المطعم فاستلذذنا الطعام لأول مرة في حياتنا. وخفق قلبانا اللذان صارا واحدًا مع دقات دفوف زملائي وغنائهم، وطرب مع زغاريد زميلاتِك. زُففنا ببدلتي الكحلية وردائك الوردي الهادئ في شوارع

المدينة الصاخبة الساهرة، المُنتشية بنسمات الربيع. ركبنا إحدى العربات السياحية التي أصر صاحب المطعم على دفع أجرتها إلى عِش الزوجية. دق الجوادان على قلبنا الدافق بينما تتعانق بسماتنا. نزلنا عند أقرب موضع مُمكن، ثُم خُضنا دهاليز عالمنا السُفلي إلى عِش الزوجية. بينما نعبر روَّاد المقاهي، ونظراتهم الناعِسة المُضببة بالنوم والحشيش. دلفنا العمارة وصعدنا السلالِم قاهرين أشباح الخوف المزعومة. وصلنا لشقتنا بقلوبٍ مُضطربة بالشوق. دلفنا وجلسنا جوار بعضنا بعضا. وبينما أسرح في ملامحكِ التي عشقتها بالقدر الذي أستغربها الآن، هطلت عليّ فجأة الإشارة. وأتت الحُمى.

فجأة وقر في قلبي الأمر السماوي. أتت الحُمى أخيرًا بعد طول انتظار. فلم أعُد أشعُر بشيء. لا أدري كم من الوقتُ لبثتُ فيها. ولكن عِندما تيقظتُ وجدتني ما زلتُ أجلس جوار (هنا)، بينما ملامح الجزع تبدو على وجهها. وهي تهُزني مُناديةً. بدا في البداية صوتها بعيدًا للغاية، كأنما هو قادم من تحت الماء. ثُم فجأة خمدت الحُمى القصيرة وعُدتُ والعالِم طبيعيًا. ابتسمتُ بارتباك وأنا أتأسف لها عن سرحاني. ساد الصمتُ بيننا. كانت الإشارة ومدلولها يرُج كياني. لم أستطع النظر إلى (هنا) المُنتظرة خطوتي القادمة. فقط ظللتُ واجمًا ناظرًا لقدميّ المُرتعشتين. بصعوبة بالغة، رفعتُ وجهي لزوجتي التي بدأت دموعها تسيل في عدم فهم. ابتلعتُ ريقي عبر حلقي الجاف وأنا أقول إنها الإشارة.

وفجأة، انفجرتُ باكيًا، فاهتزت صورة وجهها تحت دموعي المُنهمرة. لمست بأناملها وجهي. فساعدني سِحر أناملها على دفع بعض السكينة فيّ. تمكنتُ من استعادة بعض من تماسُكي. مسحتُ شلالاتي بأصابع مُرتعشة وأنا أُحاول

بصعوبة السيطرة على تشنُجي. ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أندفع نحوها، فتتقارب رؤوسنا وتتعانق شِفاهنا، قبل أن نصير جسدًا واحدًا.

٩

أُتابع نظراتكما الذاهلة، غير الفاهمة. فلا أملِك إلا الشفقة الممزوجة بالرضا. عليكُما وعلى نفسي، وعمَّا وصلنا إليه جميعًا. وأقول لكُما بصوت كسره ثِقل الماضي واستحضاره:

-أنا موسى الذي لم يستطع لخضره صبرًا. آتتني الِحكمة والإشارة فرفضتُها. ضعُفت فنِلت جزاء ضعفي وقِلة صبري. كان مُقتضى الإشارة التي هلت على قلبي دون أية قطرة شك هو أن أُنهي حياة زوجتي..(هنا).

في تلك اللحظة الغريبة ما بين فرحة ما قبل الحُمى ومُفاجأة وصدمة وعدم فهم ما بعد الحُمى. قرأتُ لوحي مُجددًا، قرأتُ السطر الأول القائل والآمر بإنهاء حياة زوجتي. فهزني اليأس وأبكاني العجز..في سجن تلك الثواني الأبدية صرختُ في داخلي لماذا؟! لماذا يا رب؟! ماذا جنت حبيبتي؟! ماذا جنت زوجتي الرقيقة؟! وعلى الرغم من ذلك شعر قلبي بحتمية حدوث ذلك. اقتسم الخضر وموسى دقات قلبي وحجراته. لكُل منهما دقة. ثُم أتت الومضة القدرية الثانية .. بالتأكيد لم يُرفع القضاء الإلهي. وإنما جاءت قراءتي للسطر الثاني أشبه بتخفيف حُكم الإعدام إلى المؤبد ..في الثواني التالية قرأتُ لوحي وعلمتُ من أعمق أعماقي أنني لن أستطيع. أنني لن أفعلها. قُدِر لي أن أعصي أمر السماء. مثلما قُدر للشيطان عصيان أمر ربه ولم

يسجُد لآدم. أكان يعلم أنه لا بدّ أن يعصيه؟ أكان بإمكانه الاختيار؟! إن السقوط الحُر ما هو إلا وهم خلقته الجاذبية.

أتوقف بُرهة، ثُم أُكمل:

-في تلك اللحظة بينما أحتضن زوجتي عَلِمت أن موساي قد هزم خضري.

ألهث كثيرًا بعدما أنهيتُ كلماتي، إذ أشعر أنني أخوض ماضيي كُله مُجددًا. أحياه بكُل دقائقه بما تحمل من عجائب. رحلةٌ مُقدرةٌ من بدايتها إلى عطفتها الكُبرى التي سردتُها، أعود لأُكمل النهاية:

-منذُ تلك اللحظة وإلى الآن. نلتُ العقاب الذي قُدر لي، جزاء عصياني. لا تستنكرا ما أقول ولكنني لن أعترض على القضاء السماوي بعد كُل ما مرّ بي. الحقيقة أنني لم أعترض سوى في تلك اللحظات الفاصلة في حياتي. لحظة اعتراض وسخط واحدة كانت كفيلة بقلب دُنياي كُلها رأسًا على عقب. لحظة دعيتُ الله في كُل وقت وحول كُل أذان وفي كُل صلاة أن يغفرها لي. أن يسامحني على اعتراضي على قضائه.

أتى الجزاء صارمًا. وقد ارتضيته مُتفهمًا خطأي. نلتُ حُب الزوجة ونهلتُ من وجودها الدائم جواري، رغم انعدام ذُريتنا وفشلنا في الإنجاب، ببسمتها الدافئة وعينيها الرائعتين. نتنقل بين شتى البقاع، ونرتاد عشرات المِهن، ونرى آلاف الوجوه. ولكن ثمن استبقاء روحها كان باهظا، دفعتُه عن طيب خاطر. لم أُحرم من قُدراتي العقلية والنفسية الفذة أو الإشارات. بالعكس تطورت قُدراتي أكثر وجاءتني الحُمى مرارًا وتِكرارًا. لم تهمد أبدًا. ولكن لم تجئ إشاراتي بدعوة إلى الله أو هداية أو حتى وسائل خاصة للشفاء، مثلما

أملت وحلمتُ طوال حياتي. كانت إشاراتي منذُ تلك الليلة الربيعية التي تعاشقتُ فيها مع حلالي تحوي شيئًا واحدًا..إنهاء الحيوات.

تأتيني الحُمى القصيرة حاملةً الإشارات بالوجود الفُلاني للشخص الفُلاني فأُنفذ. أُغمض عيني وأترك كياني يسبح فوقي في السماوات الرحيبة ليحِل في الشخص المُراد. ومثلما لا أعلم بالضبط آلية وتفسير ما اكتسبته من قدرات عقلية وربانية، فأنا أيضًا أجهل تمامًا الكيفية التي أُنهي بها الحيوات. أنا أفعلها بكُل بساطة عندما أرغب في ذلك. لم أكُن انتقي أشخاصي أبدًا. فكُلهم أُناسٌ أجهلهم. وكثيرٌ منهم يكونون في الطرف الآخر من الأرض.. مثلك أيها العالِم. ولكنني أعرف بقدراتي وموهبتي الفذة أنني أستطيع التنفيذ، بل إنني سأنفذ.. أرى ذلك في لوحي. يدقّ قلبي مع كُل إشارة وفي كُل حمى بذلك. أنا لا أقتُل بالمعنى المفهوم لديكم. إنما أُفني الحياة بعدما أنسخ خبراتها ومعارِفها. فقط أُزهق الروح ولا أُعذبها. إذ لم أفعل ذلك سوى مرة واحِدة فقط مع قريتي الظالمة والتي كانت تستحق.

أرمش، فتبتل رموشي وخديّ بالدموع. أمسحها بصمت، وأُضيف بنوع من التهكُم المؤلم:

-هذا أنا وما صرتُ عليه. من مشروع رجُل صالح إلى عاصٍ مهدي، لم تنقطع عنه الأوامر السماوية! اعتبراني عزرائيل في صورته الإنسانية!

تعبث أصابعك المُتوترة في لحيتك يا شيخ (أحمد)، وتبتلع ريقك بصوت قوي مسموع قلقًا، قبل أن تقول باضطراب عاجِز:

-يعني هتقتلنا؟!

أقول مُتأسفًا ناظرًا بينكما:

-الأمر لا علاقة له بِكما. لا علاقة له بشخصك أيها العالِم واختراعك العجيب المُثير لجدل عُلماء الدين. ولا علاقة له بِك أيها الشيخ الداعية الذي استغللت اسم اللّٰه لتحقيق مكاسب دنيوية زائلة. إنه الموت. الموت أمرٌ لا علاقة له بالتقوى. وبالتأكيد أنا لستُ معنيا بتوازنات الدُنيا وتتابُعات أحداثها بعيدة المدى. لستُ الخضر. كما أن الأبرياء يُقتلون يوميًا وكثيرًا ما تنتهي حيواتهم نهاياتٍ غير مُجزية. لا أحد يعلم الحِكمة الإلهية من وراء ذلك.

تُقاطعني أيهُا العالِم بعصبية وتقترب مني مُشيرًا بيديك:

-استنى بس الأول. يقتلنا إيه يا (أحمد)؟! إنت فاكرنا هنصدق الأوهام دي؟! إنت مجنون يا حارس. اللي زيك دول همّ اللي بيسموهم فعلًا مهاويس الدين. حتى أعتى مُتشددي الدين يُعتبروا بالنسبة إليك لا شيء. لو كان كلامك صح عن طفولتك فهي دي السبب في وصولك للي إنت فيه. فيه مرض معروف في طب النفس(6) بيسبب الأعراض دي .. المريض فيه بيتوهم إن ربنا بيخاطبه أو إنه بيشوف الرُسُل..ا كده!

فيه ناس بنفس حالتك بالظبط ظهروا قبل كده على مرّ التاريخ. وارتكبوا جرايم قتل وتعذيب متوهمين إن ربنا كلمهم وقال لهم يعلم ولا تؤثر طلقاتك فيّ، أُجيبك بهدوء:

-أعلم تلك الحالات من خلال خبراتي وقراءاتي السابقة في النفوس البشرية. ولكن يبدو أن غريزة البقاء داخلك تُحاول النجاة بِك. أنسيت أنك هُنا؟! في هذا العالم الذي أسميته أنت وأخوك كابوسًا لا فكاك منه؟ وأنا الوحيد فقط

القادر على إخراجكما من هُنا؟! أنسيت أنني بالفعل أعلم كل شيء عنكما؟! مثلما علمتُ وتشربتُ الكثير من الخبرات من البشر فقط بواسطة قدراتي الخاصة. إنني أعلم علاقتك بـ(ليز) يا (عمرو) مثلما أعلم بفاحشتك مع (سُمية) يا (أحمد).. أنا من أتى بِكما هُنا .. لتنطلق أرواحكما في حِساب النفس العسير ولو لمرة واحِدة. معظم البشر يُحبّون ويتوقون كثيرًا للحديث مع بعضهم. ولكنهم دومًا يغفلون أنفسهم. لا يُحادثونها ولا يُحاسبونها. وقد كُنتُ الوسيلة التي منحتكُما ذلك .. مثلما فعلتُ مع كُل السابقين. أما الجديد هُنا أنني لأول مرة أُخبر محل إشارتي بقصتي. أول مرة تنحل عُقدة لساني وأقول كُل ما بخاطري وكل ما سجنتُه داخلي. حتى زوجتي نفسها حفظها الله لا تعلم أنها كانت محل الإشارة يومًا ما. رغم إيمانها العميق الذي لا يتزعزع بما أفعل. لم تعلم قط أن إشارتها هي التي غيّرت مساري إلى الأبد. لا تعلم أنه قد كُتب عليّ أن أضع روحها في كفة وأرواح كُل من أفنيت حياتهم في كفة، فقُدر أن «تطبّ» كفتها في قلبي وتهوي إلى سابع أرض .. ولا يُمكن لمليون روح أن تُعادلها.

تعود لتسألني، باهتمام شفيف تبدو تحته طبقات الفزع واضحةً:

-لكن ليه؟! ليه بتقول لنا كل ده؟! اشمعنى إحنا؟!

أدركتُ الطبقة الراقدة تحت فزعك البادي، كانت طبقة الاستيعاب التام وتقبُل الحقيقة الواقعة رغم غرائبيتها بالنسبة لك. ربما الذي ساعدك على ذلك، هو رغبتك القديمة والدفينة في الموت. أجيبك بانفعال مُلوحًا بيدي:

-لماذا أنتما بالذات؟! لأنكما لوحي الأخير! أنتما مهمتي الأخيرة التي سأتقاعد بعدها! قرأتُ ذلك بوضوح بينما أستيقظ صباحًا جَزِعًا مما أفزع زوجتي ونور عيني. في ذلك الصباح القريب أيقنتُ أن موساي الذي هزم خضري قبلًا سيُنهى مُهمته .. سيُلقي ألواحه ولن يحملها ثانيةً.

أصمت قليلًا مُختبرًا قسماتكما المصدومة مثل روحيكُما، وأُضيف بحسمٍ مثل القدر:

-إنها النهاية..نهاية أحدكما.

يسري مزيدٌ من الذهول في عروق ملامحكما. تعقد حاجبيك أيها الشيخ، وتقول بحذر:

-يعني إيه؟ مش هتقتلنا إحنا الاتنين؟!

يضرب تساؤلك المُستنقع الراكد في صدري، فيثير فيه الزوابع. أُجيب:

-كلا. إنه قدركما. هو لوحكما المحفوظ. فأنا أعلم بالوقت ..بالدقيقة وبالثانية متى ستحين ساعة أحدكما! فأنا المُوكل بها!

تتوتر ملامحك يا (عمرو)، وتصيح بعصبية:

-مين فينا؟! هتقتل مين؟! أنا ولا (أحمد)؟!

فأقول متُأملًا كليكما والعالم الأبيض المضيء:

-إنها المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك. وهي الأخيرة طبقًا لما وقر في نفسي. كانت التعليمات التي أبصرتُها في لوحي الأخير هي تجهيزكما أولًا، وهو ما كان من إدرار ذكرياتكما وأحاديث ضميريكما. ثُم ما تم من سرد قصتي عليكما.

أصمت لحظة أزدرد فيها أنفاسي، ثُم أُضيف:

-وقد كُتب عليّ بعد ذلك أن أترك قلبي يهديني إلى انتقاء الحياة التي قُدِرَت نهايتها.

أرى ارتعاش قلبك مع ساقيك يا (عمرو). وتهتز لحيتك يا شيخ مع صُراخك:

-كفاية تلاعب بأعصابنا! .. مين فينا؟! بتعمل فينا كده ليه؟! إنت عايز مننا إيه؟!!

فلا أهتز. أبتلعُ ريقي بأقصى هدوء مُمكن، وأهتف:

-صدقاني لستُ في حِلٍ من معابثتكما. فما تنزَّل من السماء عليّ هو ذلك بالتحديد. سيموتُ أحدكما في الوقت المعلوم. أما الآخر فسيشهد موت أخيه ويعيش حاملًا سِره. قلبي المعجون بمزيج العصيان والهُدى المُدهش هو الذي سيُحدّد مقر الإشارة..هو الوحيد الذي سيقرأ الكلمة الأخيرة في لوحي الأخير!

أُضيف أمام انفعالكما وحركاتهما العصبية:

-ورغم كُل ذلك. فأنا لا أشعر بأية حيرة أو ارتباك. لأنني أعلم أن المُنافقين والكاذبين هُم فقط من يشعرون بذلك. أما المُختارون فهُم من يشعرون بكُل تلك الثقة والطمأنينة وهدوء النفس.

بعينين مُنهارتين، تُحدق فيّ أيهُا الشيخ. يحتقن وجهك وحلقك وأنت تصرخ:

-والمجانين!!!

ثُم بعجزٍ تندفع نحوي لعلك تنالني، ولكنك لا تنال سوى الفراغ الذي ما زلتُ أحتله، فتسقط خلفي على الأرض المُنورة العدمية البيضاء. قُلتُ بهدوء مُتأسف بينما أرى أخاك يعدو هاربًا بيأس في الفراغ:

-صدقاني أنا آسف جدًا على ذلك. ولكنه القدر. صدر القرار السماوي وما عليّ إلا التنفيذ.

أصمُت مُتنبهًا لدقات قلبي، قبل أن أقول:

-الآن.

أُفتح ذراعي عن آخرهما، فتتسع طاقتي إلى آخر مداها، ثُم أطبقهما معها على بعضٍ. فينطبق عالم النور على بعضه. ويدوي صراخكما المُستغيث، قبل أن يأتي ظلام أحدكما الأخير.

أُطلق سراح عينيّ من تحت جفوني. فيتحدد بصري برؤية وجِهك، الذي زاده جريان الزِمن بهاءً. بحدقتيّ المبهورتين بجمالِك الأبدي، آخذ تجاعيدك -الرفيعة عند زوايا عينيك وحول فمكِ المُبتسم- في أحضاني. وبأطراف بصري المُنصب على تفاصيلكِ، أرى الدُنيا صباحًا، وقد أشرقت شمس اليوم الجديد من النافذة التي فتحتها عمدًا. فوقر في نفسي أنه سيكون يومًا مُختلفًا عن كُل ما عِشناه.

تقولين لي بصوت مبحوح بالحنان صباح الخير. فأهمس لكِ صباح الحُب. بكفكِ تخبطين كتفي المُتراخية على السرير بدلال، آمرةً أن أنفض الكسل وأقوم للعمل. فأقول لكِ إنه لا عمل اليوم. تندهشين فتدور عيناكِ حول وجهي مُحاولةً الفِهم. بصوتٍ مُترقب تطلبين مني تفسيرًا. فأُجيبك أن إشارة أمس كانت الأخيرة. تندهشين وتنفرج بعض تجاعيدكِ في سعادة مُقبلة. أقول إن قلبي أعطاني أمرًا وما عليّ إلا التنفيذ. فتندهشين أكثر ويفور في أعماقك الفضول. أقرأه مُستمتعًا بينما أضيف أن وقت تنفيذ وعدنا قد حان. سنرحل عن هُنا يا حبيبتي. تندهش ملامحك أكثر وتسألين أي وعد وإلى أي مكان. فأُجيبك أنه الوعد الذي قطعه على نفسه فارسكِ الجديد. تظنين أنني أقصد القصر المنيف والحدائق والجِنان الغناء. فتُخبريني بحُب أنني قصركِ وجنتكِ الموعودة بعدما خُضنا كُل الأحراش والجِبال والوديان. فأُخبركِ بل هو وعدٌ قطعته على نفسي، أن أجعل جنتكِ أبدية يا حياتي. بينما أرى اتساع عينيكِ ولهاث فمكِ وخفقات قلبكِ بارزةً في الوادي بين عُنقكِ وصدركِ، أقول إننا سننطلق في رحِلة أعلم أنها شاقة وقد تكون خطيرة مُهلكة إلى حيثُ تبدأ الأبدية. من جديد، سنخوض في أحراش وهضاب ووديان الأرض والبشر باحثين عن جواب ما سأل عنه ذو القرنين، ما جناه الخِضر بصلاحه، وما عجز

عنه البشر بكُل علومهم وابتكاراتهم. قبل أن يتركوا سعيه بقِلة صبرهم وضيق أُفقهم، قانعين أنه وهمٌ يستحيل تحقُقه.

ألهثُ مع كلماتي المبهورة، فتلهثين معي بذاتِ الإيقاع، وترتجف شفتاكِ وطاقتا أنفكِ في شوق، بينما تُطل روحِك من قلب عينيكِ مؤازرة بكُل ما بها من حُب. أسمعها تقول أنا هو أنتَ يا فارسي. وأسمعِكِ تقولين أنا معك إلى آخر دُنيانا وبإذن الله في آخرتنا. فأرفع ذراعي الكسول، وأُداعب بأناملي شعركِ الأسود الناعم الذي خالطته شُعيراتٍ فضية مسحورة، لم تُزدِكِ إلا روعةً. وبحلقٍ أبهته العِشق، أقول لكِ في سعادة كاملة إننا سنكون دومًا كذلك إن شاء الله. وإننا يا حبيبتي، سنرتحل بحثًا عن رشفة الخلود، في عين الحياة(7)

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..

بالفصحى , بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..

بتحب تكتب , أو تعرف حد بيحب يكتب , كلمنا ..

هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..

لأن فى كيان , للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 –
أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

وتابعنا :

-كيان للنشر والتوزيع

facebook:http//www.faceook.com/kayan.publish

Twitter:@kayanpublishing

6 هو المرض المعروف باسم Religious Psychosis

7 عين الحياة

ذكر ابن عساكر من طريق وكيع، عن أبيه، عن معتمر بن سليمان، عن أبي جعفر الباقر، عن أبيه زين العابدين خبرا مطولا جاء فيه: {أن ذا القرنين الأكبر، وكان وليًا من أولياء اللّٰه الصالحين قد ملك ما بين المشرق والمغرب كان له صديق من الملائكة يُقال

له: رفائيل أو رنقائيل، يزورهُ بين الحين والآخرِ. وبينما هما يتحادثان، قال ذو القرنين: يقولون: ربنا ما عبدناك حقّ عبادتك» فبكى ذو القرنين ثم قال: «يا رفائيل إني أحب أن أعمرّ حتى أبلغ في طاعة ربي حقّ طاعته» قال: «وتحبّ ذلك؟»، أجابه: «نعم» فقال رفائيل: «فإن لله عينًا من الماء تسمى عين الحياة من شرب منها شربة طال عُمُرُه إلى ما شاء اللّٰه ولا يموتُ حتى يُميتهُ اللّٰه عزّ وجلّ. فقال ذو القرنين: «فهل تعلمُ موضعها؟»، قال: «لا غيرَ أننا نتحدثُ في السماء أن لله ظلمة في الأرض لم يطأها إنس ولا جان فنحنُ نظن إن تلك العين في تلك الظلمة}. وقد قيل إن الخضر قد تحقق له الوصول إلى عين الحياة والشرب منها. لذا يعتقد الصوفية بوجوده حيًا يُرزق إلى الآن.